

كانتسا

رِوَايَة

حامد العابد

دار المحرر الأدبي

www.elmohrereladbe.com

الفصل الأول

هذه الدنيا كالعجلة العملاقة التي تدور بالبشر
الكل يردد هذه الجملة بشكل دائم و مستمر و في الأغلب
هي عبارة صحيحة لكن أحدا لم يحاول أبدا أن يتطرق إلى
ابعد من ذلك إلى ما خلف الصورة ويفهم ما السر في
دورانها وهل يقدر أحد علي إيقافها ؟
السر يكمن في التداعي !!!

التداعي مثل . . . قطع الدومينو تضع الواحدة تلو
الأخرى ثم تدفع إحدى القطع عشوائيا فتداعي علي
بعضها البعض في نظام ميكانيكي عجيب لا تقدر علي
التنبؤ بحركته كذلك كل قرار يقوم الإنسان باتخاذ يوتر في
كل ما حوله فتظل عجلة الدنيا دائرة و لا تتوقف فكل قرار
تتخذه يجعلك تسلك مسارا جديدا من مسارات الحياة
المتشعبة .

بدأ دوران الدنيا بتداعيات القرار الأول في تاريخ البشرية حين قرر قابيل قتل أخاه هابيل و أخذ التداعي يحتدم كلما زاد عدد البشر إلى الصورة صرنا عليها الآن من دمار وخراب و حروب عرقية و قبلية و إبادة الملايين بدون وجه حق .

مع كل صباح يمر بحياتك تبدأ سلسلة القرارات التي لا تنتهي بل إن كل دقيقة تمضي تحتاج فيها لاتخاذ قرار ما في حياتك دون أن تشعر بدءا من اختيارك عدم الذهاب للعمل في ذلك اليوم قارص البرودة فهو في حد ذاته قرار له تداعياته و كل قرار تتخذه يحدد مسارك و تداعياته تجعل مسارك يتقاطع بالحياة مع آخرين و تربط مصائرهم ببعضكم البعض و هنا تكمن إثارة المصادفات فنحن أمام مصفوفة تحوي عددا لا نهائيا من الاحتمالات تجعلك لا تعرف بمن ستصطدم و من ستقابل وتظن أن الأمر هين

بسيط لكن جناح الفراشة الذي يضرب الهواء في غابات
الأمازون قد يتسبب بإعصار في مكان ما بالمحيط الأطلسي
في ما يطلق عليه أثر الفراشة و هو تعبير فيزيائي يمكن تشبيهه
بكرة الثلج حين تصنعها صغيرة و تضعها أعلي تله فإنها
تكبر و تكبر و يزيد أثرها و ذاك ما حدث معي تماما فقد
أوقعتني المصادفة في ما لم يتصوره خيالي يوما
مجرد ملاحظة لكنها تساوي ملايين الجنيهات بل قد لا تقدر
بمال لو قمت فيها بحساب عدد مرات نجاتي من الموت
لكنني بدلا من أن أبتعد عن كرة النار اخترت أن أحملها
بنفسي .

بقرار واحد تغيرت مسارات حياتي و تقاطعت
فحدثت أغرب مصادفة بتاريخ الاستخبارات بسقوط
شبكة من اعتي شبكات التجسس و أكثرها احترافية بفضل

مجموعة من الهواة الغير مؤهلين بطريقة هزلية أشبه بموت
أحد المفترسات في الغابة اختناقاً و هي تتناول لحم طريدها

سبق الحدث الكبير العديد من التداعيات التي
تطورت لتوصلني إليه و تحولت من شخص عادي فجأة
إلى مطارّد تطلبه أكثر جهة للإيقاع به و من يتصور أن
أبواب الصدفة بإمكانها أن توصلك إلى عنان السماء أو أن
تقلب حياتك رأساً علي عقب .

أقف حائراً أحاول جمع شتات نفسي و أنا أكتب
عن تلك الفترة التي مرت من حياتي و أحس بعد انقضائها
أنها مرت كالسحر برغم كل ما قاسيته فيها من عناء و قبل
بدء قصتي أحتاج أن أتوصل لتحديد التداعي الأول
المسؤول عن كل هذا ليكون نقطة البداية للانطلاق فهو من
ساقني إلى قدري فقد سمعت يوماً ما أن أقدار الرجال

منوطة بعزائهم و ربما هذا هو السبب في أن المتاعب تسرع إلى دوما .

أظن أن التداعي الأول المسئول عن تحول حياتي للبحث يرجع إلى الفترة التي قررت خطبتي السابقة بشكل مفاجئ و فردي فسخ خطبتنا . . . ربما يكون هو أو لعله قراري الغريب بالسفر إلى محافظة مطروح . . . الحقيقة أنا في حيرة من أمري لا أقدر علي تحديد التداعي المسئول عن تدفق الأحداث لعل كلاهما اشتركا في صنع المصادفات الرهيبة التي لا أظنها تتكرر في حياة شخص آخر لذا فأنا أجد أنني قد استغرقت كثيرا في الحديث عن المصادفات القدرية و فلسفاتها التي توصلت لها بعد نجاتي .

عموما سأترك لكم مطلق الحرية في تحديد التداعي الأول من خلال قصتي و سأدخل مباشرة إلى الموضوع لتعرفوا علي ما هو أغرب من الخيال إنها الحقيقة لكن لكي نبدأ الأمر بشكل سليم أحتاج أن أنقل لكم طبيعة

الجو الذي كنت أعيشه و سيطر علي حياتي من البدء ثم
ننتقل تدريجيا إلى قلب الحدث بنفس الوتيرة التي جرت بها
الأحداث فمن الرتابة و الملل إلى الهرولة و اللهات الغير
طبيعي .

هكذا كانت حياتي السابقة في الفترة الماضية ساكنة
تمضي بإيقاع ثابت أشبه ما تكون بلحن كلاسيكي رقيق
يشعرك بالنعاس وروتين قاسي و منضبط و خطوات
محسوبة علي درب واحد ثم انقلبت إلى إيقاع صاخب و
خطر كموسيقى البوب بل البلاك ميتال و فوضى و بعثرة
فمن النقيض إلى النقيض بدون سابق إنذار .

بعد الانتهاء من فترة التجنيد بالخدمة الوطنية التي
حفلت بالعديد من الأحداث لكن لا يتسع المجال هنا
لذكرها ، و التحاقي بالعمل خطوات أول خطوة في
أحلامي التي أعددت لها بالورقة و القلم منذ أيام الدراسة
و عقدت خطبتي علي إحدى زميلاتي بالجامعة و كانت

الحب الأول بحياتي التي توطدت معرفتي بها علي مدي سنوات الجامعة فكان الحلم الجميل الذي جمعنا و تأكيداً لهذا الحب و مدي صدقه سعيت إلى خطوة أكبر و هي أن تتم خطبتنا ثم نتزوج و ظللت خلال مدة التحاقني بالجيش أحلم بهذه الخطوة المهمة في حياتي إلى أن أنهيت خدمتي علي خير وجه لكن بعد الخطوبة بدأت تتكشف إلى أمور جديدة و أشياء لم يكن لي علم بها فالحب شيء و الحياة الحقيقية أمر آخر تماماً .

عدت إلى الحياة المدنية مرة أخرى بعدما عشت لثلاث سنوات في الصحراء مع قوات حرس الحدود ، راجع بالتفاؤل والأمل أن أعطي في عملي و أبدأ و هناك لي حبيبة قد أتممت وعدي لها و تمت الخطبة لكن الأمور كانت غير ذلك فالحياة المدنية هي ذلك القاتل الصامت الذي يسرق أعمار ضحاياه من سكان المدن المساكين و يحولهم إلى مجرد تروس في آلة تبدأ في طحن آدميتهم قبل

عظامهم و ربما لن يشعر معظم من يقرءون كلامي بهذا الفارق لأنهم اعتادوا علي هذا طوال حياتهم لكن عندما تعيش لمدة ثلاث سنوات في معسكر بالصحراء علي الحدود ستستشعر الفارق الرهيب في الحياة فهناك الحياة لا تزال علي طبيعتها و أجمل أوقاتي قضيتها في متابعة الحياة بالصحراء و ذكرياتي مع قبائل البشارية .

قد يكون السبب في انتشار أمراض ضغط الدم و السكر بين سكان المدن خلاف غيرهم من سكان الريف هو الإيقاع السريع و الرتيب في نفس الوقت للحياة بالمدينة فأنت دائما في حالة من العجلة و كأنك دخلت في صراع مع الوقت من أجل كسب قوت يومك و الحياة غالية جدا لذا فلا يوجد وقت لالتقاط الأنفاس و في نفس الوقت هو نمط رتيب وقاتل يجبرك علي الاستمرار بدون توقف من أجل الحصول على المادة لأنها هي المسئول الأول عن

تحريك كل شيء و صنع السعادة و هي لن تتحقق إلا من خلال أمرين إما بالسعي الدائب وراء كسب المعاش أو النفاق الاجتماعي و في سبيل كسب عيشك تضطر لتحمل الكثير من تلك السخافات وعلي رأسها

" الثقلاء " و أولهم مديرك الذي ينافقه الجميع إلا أنت فتكون محط سخرية البعض و احترام البعض الآخر لكنك محل كراهيته و حذك في هذه اللحظة فقط تدرك الفخ الذي سقطت فيه و تتمني أن تعيش أي نوع من أنواع التجديد لكن ليس الجميع بإمكانهم امتلاك رفاهة القرار للسفر للخارج أو ممارسة رياضات خطيرة مثل القفز بالمظلات أو تسلق الجبال لذا تظل هكذا حبيس حياتك .

في حالتي أنا لن أنكر أنني ندمت في وقت ما اشد الندم علي أمنية العودة لحياتي القديمة لأنها جرت علي الكثير من المتاعب و عندما طلبت شيء من التغيير و

الإثارة تحولت إلى شخص مطارديترب الموت في أي لحظة
ولا يأتي وعشت منها ما يكفيني لبقية عمري .
أنت دقيق الملاحظة يا مُراد !

تطرق هذه العبارة ذهني كلما تذكرت قصة
الومضات الخفية و يطرق السؤال بالي كثيرا هل أنا دقيق
إلى هذه الدرجة التي تجعلني أري ما لم يره الآخرين ؟!
لو لم أنتبه لألوان السماء لاختلف الأمر ، ربما
أبلغني كثير من المحيطيين بي بدقة ملاحظاتي لكن أظنه
قدر كل إنسان لأنه حتى أجهزة الأمن لم تلتفت إلى هذه
الملحوظة ولم تثر الريبة في نفس أحدهم لمجرد اللحظة .
عندما يتحرك فضولي لا أقدر علي كبح زمامه في
بعض الأحيان و كانت هذه المرة من المرات التي اندفعت
فيها خلف حدسي و فضولي القاتلين ولم أتعلم أبدا
الحكمة من المثل الانجليزي القائل بأن " الفضول قتل القط

»

الغرب يؤمن بأن القط له تسعة أرواح فما بالك بمن
يملك روحا واحدة و فتحت أمامه أبواب الجحيم بسبب
صدفة و ما أكثر الصدف بحياة البشر لكنه يرفض الرجوع
و يمثل لأوامر فضوله و رغبته في سبر الغموض .

لكيلا تظن أن كلامي عن المصادفات مجرد كلمات
تذهب أدراج الرياح تأمل معي دور الصدفة في تاريخ
البشرية بالأخص أغلب الاكتشافات العلمية العظيمة التي
غيرت وجه الحياة علي الأرض بدأت بمصادفة ثم ملاحظة
إلى أن وصلوا لصحة الفرض العلمي بدءا من اكتشاف
الإنسان النار .

لكن يبقى الاكتشاف الأكثر غرابة هو البنسلين لأن
له مصادفة غريبة ذكرها التاريخ الطبي أظنها متعلقة
بكلامي عن فلسفة المسارات و هي أن أحد الرعاة أنقذ
حياة ألكسندر فلمنج و هو طفل صغير من الغرق ثم مرت
السنوات و الصغير الكسندر يكبر و يكون هو مكتشف

البنسلين الذي يدور الزمان دورته فينقذ الكسندر حياة ذلك الراعي بعدما توصل لصنع العقار البنسلين الذي أنقذ حياة الملايين حول العالم و لو أن هذا الراعي تجاهل استغاثات الصغير وقتها لكان مات بفيروس الأنفلونزا شأن الكثيرين حول العالم إنها المصادفات القدرية التي تحمل احتمالات لا تنتهي .

لعلها مصادفة غريبة تلك التي جرت لألكسندر لكن مصادفتي أيضا لا تقل عنها في غرابتها و تفردتها فاكشافي صنعته الصدفة التي بدأت بملاحظة ظاهرة ما تكررت عدة مرات و مثلما فعل الكسندر فلمنج في معمله جلست بشرفتي أيضا أفند الفروض الممكنة إلى أن توصلت إلى نتيجة واحدة و صار علي الاختيار و يقينا لن تحب أن تكون موضعي . . .

فضولي هو نقطة ضعفي الكبرى والتفسيرات
السطحية لا ترضيني و لا تشبع نهمي ولا بد أن أجد
تفسيرات تلائم حجم تساؤلاتي التي غالبا ما تجر علي
المتاعب في حياتي و هذه المرة جرتني لعش دبابير غاضبة .

نعود مرة أخرى لنقطة البداية مع حياتي المستقرة
بحي المعادي الذي أسكن فيه مع أسرتي منذ زمن وهو
مكان يتميز بالهدوء و الكلاسيكية ربما إلى وقت قريب قبل
الغزو العمراني الجديد .

أحيا هناك بهدوء و مثالية تشبهه إلى حد كبير تماما
لكن أحيانا ذلك الهدوء قد يخفي وراءه العديد من الأشياء
التي لا تبدو لك من الوهلة الأولى فحي المعادي برغم
الهدوء الذي يحيم عليه إلا أنه يحوي الكثير من الذكريات
عندما كان المقر الآمن للكثير من جواسيس الحرب العالمية
الثانية وما بعدها و مسرحا للعديد من الأمور الخطيرة التي

لا تجري إلا في الخفاء و لا يعلم أحد منا عنها شيء و
تجنبنا الكثير من المراجع التطرق لها لأن الحكومات لا
تحب أن تتلوث أيديها بمثل تلك الأمور .

بالتأكيد أن أول سؤال سوف يتبادر لذهنك و من
أين لك بكل هذا اليقين برغم أن أغلب المراجع التاريخية لم
تتطرق له بشكل واضح ؟

بطبيعة الحال علمت هذا من جدي الذي كان
يشغل منصبا عسكريا رفيع المستوى خلال الفترات الماضية
و من بعده أبي سار علي دربه لكنني رفضت الانخراط
بنفس السلك الوظيفي رغم أن السبيل كان أيسر لي من
غيري و اخترت أن أنفرد عنهم و لأعيش خارج عباءة أبي
والتحقت بكلية الهندسة لكن قدر الإنسان المحتوم عليه
ألبسني رغما عني عباءتهم و أمضيت فترة خدمتي الوطنية
بسلح حرس الحدود كضابط احتياط و عشت أحداث
عديدة في تلك الفترة من أجل مكافحة المخدرات مع

ذكريات جميلة بالصحراء لا اقدر علي نسيانها فيها دفء
الصحبة و المحبة الخالية من المصالح مع فرقة الأشقياء وقد
أسميناهم بهذا الاسم في الوحدة لأنهم دوما في مشاكل مع
الكل لا يكفون عن الشغب و التعرض للحبس و مع ذلك
مترافقين و متضامنين لا يفرق جمعهم أحد ، ربما عانيت
كثيرا في أيام الخدمة لكنه كان عناء لذيذا تكمن لذته في
التغلب علي الصعاب .

بعدما أنهيت الخدمة العسكرية كان كل أملى
الالتحاق بأي شركة في نفس تخصصي و هو شبكات
الاتصالات ، و صاحبني التوفيق من ربي و التحقت
بأحدي الشركات المهمة في هذا المجال بفضل معارف أبي
، و هي مهنة ممتعة لكنها تحتاج الكثير من الحركة و السفر
و تحمل المرونة في المواعيد . . . أحيانا يكون هناك حاجة
لإصلاح أحد أبراج التقوية بالصباح ووقت آخر بالمساء و

تضطر للسفر في كل أنحاء البلاد في برد الشتاء أو قيظ الصيف تغير ممتع لكنه مرهق جدا و يستغرق معظم وقتي بسبب السفر الدائم لكنه يعطيني إحساس المغامرة التي لها طعم لذيد يشبه الإدمان ومع كل ذلك تمر علي أوقات كثيرة أشعر فيها بالضيق و أن الحياة مملة و رتيبة .

يومي مشحون يلتهم العمل أغلبه ثم خطيبتني والأسرة المكونة من أمي و أبي و جدي لا تراني كثيرا و أخ أصغر يعيش حاليا بالخارج و صديق العمر حميد الدين الذي نعهده فردا من عائلتنا و الذي سوف يشاركني الكثير من الأحداث التي مررت بها .

بجانب كل هذه الحياة الحافلة أحب القراءة في عالم البرمجيات و أطور ما تعلمته بشكل فردي عبر المراسلة مع بعض المبرمجين من دول جنوب شرق آسيا مثل دولة الهند لأنني لا أجد الوقت الكافي لتعلمها بشكل منتظم و قد

فقد استهوتني الفكرة لكن خطيبي تغار من عملي و تراه
يلتهم وقتي و البرجة عدوها اللدود .

برغم تعبي من طلبات خطيبي التي لا تكاد تنتهي
و مع ذلك تتمني أن تكون معي طوال الوقت و تري أن
عملي هو المستولي الأكبر علي وقتي و اهتمامي لكنني
أحبها و قد كبر هذا الحب و أثمر الخطبة السعيدة و أري أن
علي أن أتحملها .

حياة كمثل أي حياة لأي مواطن في العالم يتمني أن
يعيش في مستوي دخل مناسب يحقق له بعض الرفاهية و
الأمان في حياته و يشغله ارتفاع أسعار البنزين و الطعام
لكن القادم لم يكن عاديا .

أحيانا في حياتك تتمنى حدوث أشياء بعينها ثم
عند تمامها تتمنى امتلاك خاصية تمكنك من التراجع هذا
هو حال الإنسان لا يرضي بشيء .

تمنيت و سعت لتحقيق حلمي بتحويل الخطبة إلى
زواج و هذا الذي جعلني مثل الجميع لا أفكر بشيء سوى
كسب المعاش و تحولت إلى ترس في آلة المدنية العظيمة لا
ألقت لشيء سوى السعي الدائب و أرحب بأي مأمورية
عمل لمكان بعيد لأن هذا يعني زيادة في الحوافز لكن بالنسبة
لخطيبي تري ذلك من وجهة نظر أخرى و أنه مؤشر سلبي
لما بعد الزواج و يقلقها دائما و اهتمامي بكل ما هو جديد
في عالم التكنولوجيا هو الأكثر خطرا أما هي حاملة و
رومانسية ولا تزال تعيش بعصر الحمام الزاجل و مهما إن
حاولت أن تشرح لها ظروف التغير بالمجتمع و أن الحياة لم
تعد كما كانت سابقا فلن تجد أذنا مصغية .

أعياني الشرح بأن المعاش صعبة و الدنيا لا ترحم
و أنني أضع نصب عياني إتمام أمر زواجنا بأسرع وقت
ممكن لكنها غارقة في رومانسياتها الحاملة و لا تقدر حجم
تعبي .

ربما كانت هذه الأسباب كافية لدفعني لثماني عودة
حياتي مرة أخرى إلى الوراق للهروب من قيود الروتين
القاتلة وإشباع نهيمي للمغامرات ويا ليتني ما فعلتها . . !
عقلي يبدأ في الهدوء تدريجيا و التقت أنفاسي لحظة
ركوبي للقطار الذي أعشق ركوبه منذ الصغر و أهوي
حركته الهادئة التي تسمح لي بالتأمل و خصوصا القطار
المتجه من القاهرة إلى الإسكندرية المهم أن يكون مكيف
فلن تقدر علي الجلوس بهدوء و أنت تتركب في قطار
الدرجة الثالثة و الناس تتدافع من خلفك و من أمامك و
عن يمينك و يسارك فقد صار التدافع و الزحام هو أسلوب
حياة و أنا من عشاق الهدوء لذلك أفضل ركوب الدرجة
الأولي واقبع في مكاني أشاهد الحقول الخضراء و الطرق و
أتأمل كل ما حولي و ما أجمل التأمل لكنني أكره العزلة في
نفس الوقت .

يتحرك القطار و نفس الفرحة الطفولية البريئة التي كانت تملكني منذ الصغر عندما أجلس بجوار النافذة و أنا أظن أن الأماكن هي من تتحرك وكأنها تغادرنا و تتحرك من حولي و تتدافع لكن هذه المرة من كان يتدافع هو أفكاري التي تملأ رأسي ضجيجا ما بين نفاق بعض المهندسين لمدير عام الصيانة المهندس عوض و محاولاتي إرضاء خطيبي التي صارت في الفترة الأخيرة عصبية المزاج و دائمة التشاجر لأتفه الأسباب و أنا أفعل كل ما هو ممكن لإرضائها لكن دون جدوى عبثا حاولت الموازنة بينها و بين متطلبات عملي التي تحتاج مواعيد مرنة لكن كان الأمر صعبا و الالتزامات لا ترحم .

يأتي دائما كعادته لينغص علي متعتي الصغيرة إنه هاتفي يقطع علي حبل أفكاري و تأملاتي و كأنه يغار منها و إن لم يقم هو بهذا الدور يضلع بدوره مفتش القطار ،

لكن هذه المرة شعرت بأن رنينه الهاتف له وقع خاص في
أذني و كأنه يتذمر من شيء ما .

الفصل الثاني

كالعادة كانت خطيبي تعاتب علي السفر المفاجئ
لكن كان الجديد في الأمر أن تقول لي بكل بساطة لقد
أنتهي كل ما بيننا !!!

كلما استعدت الكلمات في رأسي يزداد الطنين و
اشعر بأنني لست في حالة طبيعة كمن يغلي لكنه غليان
بارد يلفح وجهي حرارة أو دخان و أشعر بأعصابي تنهار
كما أن الأرض تميد من تحتى قليلا لكنني استمت للحفاظ
علي هيئتي المتماسكة و صممت علي تقبل الأمر بهدوء و
كبح انفعالاتي و قلت لنفسي : " علي أن أكمل مهمتي
الموكلة إلى بمنتهي المهنية ثم بعدها إن احتجت إلى أجازة
للراحة في أي مكان يمكنني الذهاب لأي مكان لألق
جراحي بهدوء " .

هل ذنبي أنني كنت أسعي علي لقمة عيشي و
لأجل من . . . أليس من أجلنا سويا؟!

أجبت علي نفسي بعبارة واحدة . . . إنه سؤال
سخيف لكنه ظل يطرح نفسه من لحظة خروجي من محطة
القطار .

ظلت علامات الاستفهام و التعجب تدور برأسي
و أمام عيناى ، الأمر صعب بدون أي مبالغة و الصدمة
مباغثة . . . بل هي طعنة من الخلف و في لحظة واحدة تبيع
هي كل شيء ببساطة . . . !

حالة من الدهشة المزوجة بالألم من الخبر المفاجئ
الذي لم أكن منتبها أنه عاصفة لم تسبقها أية مقدمات أو
يبدو أنها أعدت للأمر جيدا قبل سابق لتفاجئني أو ربما أنا
من كان تفوته هذه المرة الكثير من التفاصيل ولم تنفعني
قوة ملاحظتي .

خرجت من محطة القطار فوجدت أحد سائقي
الشركة و ينتظرني في الجهة المقابلة للمحطة و أشار لي من
السيارة و ارتحت كثيرا لوجوده لأنه شخصية هادئة ولا
تثرثر كثيرا و كل ما كنت أحتاج إليه في هذه اللحظة هو
الهدوء و السكينة لم يكن ينقصني المزيد من الضجة
فيكفيني الضجة التي تعيث في رأسي ، لقد ظهر كمنقذ لي
من أفكارتي التي تضطرب بداخلي .

مجرد لحظات احتجتها لأفئق من الدهول والدهشة
الممزوجة بالألم العاطفي ليحل ألم من نوع آخر وفي لمح
البصر تمر حياتي أمامي كشريط سينمائي سريع و أشعر
بجسدي يطير ويهوي إلى الأرض و أفئق علي صيحة ألم
رهبة هزت المكان .

ظننت في البداية أن المسألة بسيطة وحاولت أن
استند علي السيارة التي صدمتني ظننا مني أن الأمر هين و

بسيط فأذيت قدمي أكثر لأنني حاولت التحامل لكن بمجرد أول محاولة للتحرك سقطت فورا علي الأرض و أخذت أئن و شعرت بدمعتين ساخنتين فاضا علي خدي فقد تفاقم الوضع و تمزقت بعض الأربطة و زاد ألمي لكنه علي الأقل شغلني عن أوجاعي القلبية لبعض الوقت فأفقت من صدمتي الأولى علي صدمة أخرى من جراء سيارة تقودها أنثي أخرى لتكون الصدمة الثانية لي في نفس اليوم من جراء حواء . . . و ستتوالى في طريقي الصدمات في أمور كثيرة كنت أوّمن بها لكن الحياة ستعلمني الجديد .

هرع السائق إلى و هو يدعو في سره أن لا تكون الإصابة خطيرة لأن الشارع لم يكن به أية سيارات و فجأة ظهرت هذه السيارة و كأنها جاءت من العدم و اجتمع الناس علي صوت صرختي واحتكاك الفرامل و حاول الجميع مساعدتي . . . ونصحتني بعضهم بتحرير دعوة

ضدها لكنني رفضت و بشدة و قبلت فقط بأن تقوم
بتوصيلي لأقرب مستشفى ، وفي المستشفى بدأت رحلة
الفحوصات الطبية للاطمئنان علي عدم وجود نزيف
داخلي أو أية كسور أخرى و تم التشخيص بأني مصاب
بكسر مضاعف بالساق و تمزق في الأربطة مع توصية
مشددة بالراحة التامة و من هناك إلى منزلنا بالمعادي رأسا
لم يكن أبي يطمئن إلى أي طبيب سوى طبيب
العائلة الذي استدعاه علي الفور أثر دخولي المفاجئ إليهم
علي كرسي متحرك و قدمي يحيط بها الجبس و يبدو أثر
كدمة علي وجهي و أحد المسعفين يساعدني في الدخول .
فورا هرع أبي للهاتف ليستنجد بطبيب الأسرة و
رغم رباطة جأشه المعروفة عنه و التي قد تخدعك من
الوهلة الأولى لتشعر أنه شخص قاسي القلب لكنه هذه
المرة استسلم لمشاعره الأبوية و خصوصا أنني ولده الأكبر .

تمنيت الأجازة لأرتاح و ألق جروحي فجاءت في صورة إقامة جبرية مشددة مع أوامر الطبيب بالراحة التامة و التأكيد علي خطورة الإصابة وأن التهاون في أمرها قد يؤدي إلى الإصابة بعرج دائم و الحاجة للاستعانة بعكاز طبي لبقية حياتي بالإضافة لما سبق مع كمية رهيبة من الملل المركز و الفراغ .

صار لزاما علي أن أبقى رهين محبسي في المنزل لا أخرج ولا أتحرك و أمام تصميم أبي و جدي و إرادتهما العسكرية بت غير قادر علي التملص من الرقابة المشددة و بت أشكو الحبس أكثر من الم ساقي فأنا لم أكن أطيع الجلوس ساكنا لبضع دقائق دائما في حركة و انشغال و رغم ذلك أحس بأن نمط حياتي يلزمه الكثير من الحركة و التغيير و أراه هادئا لا يشبع نهمي .

في البداية جربت القراءة و هي أحد أهم عاداتي
لكنني مللت و حاولت الاستمرار في مشاهدة التلفاز لكنه
أيضا أصابني بالملل و من هنا تحديدا أتذكر أنني بدأت أتمني
خوض مغامرة فالملل و الفراغ يقتلاني .

الملل و الفراغ قد يدفعان بك إلى أماكن بعيدة لم
تفكر فيها و كأحد الأفكار المجنونة تمنيت أعيش مغامرة أو
حدوث أي تغيير بحياتي فقد كانت فترة الخدمة العسكرية
حافلة بالكثير من الأمور أما الآن محاصر بأبي و أمي و
جدي و تعليمات الطبيب المشددة بالإضافة إلى أن الحبس
يعوق حركتي و ألم ساقي لا يسمح لي حتى بالحركة بدون
الكرسي المتحرك و اعز أصحابي حميد الدين مسافرا في
بطولة خارج البلاد في رياضة الأيكيدو و لن يرجع قبل
أسبوع و أظنه سيكون مشغول بصفقات عمل خاله الذي
يعمل في شركته مسئولا للاستيراد من دول الشرق الأقصى

يرجع من كل رحلة محملاً إلىنا بالهدايا و من له
بعد موت أمه و أبيه و نحن نعتبر عائلته الوحيدة و خاله
والصراحة هو شخصية كريمة بطبعها لكن دائماً يحلو لي
مشاكسته وقت توزيع الهدايا و أردد عليه عبارات مثل
بالتأكيد أنها رديئة أو لعلك اشتريت المائة منها بدولار و
خلافه من مشاكسات الأصحاب .

ما أسوأ الانتظار ولحظاته صعبة و تصيب الإنسان
بالجزع و الضيق مهما كان صبوراً و الأسوأ أن تكون رهين
محبسك لكن سبحانك ربي ذلك الحبس لم يطل لأيام
طويلة وعاد حميد في عصر أحد الأيام التي لا أذكرها من
طول انتظاري أشكو فيها وحدتي و أحزاني .

حضر بصره و ضجيجه و أيقظني من نومة
القيولة و من يقدر في البيت أن يمنع حميد وهو أعز و أقرب

الناس لي مثل أخوتي فقد تربى معنا منذ الصغر و كل من
بالبيت يحبونه لطيفة قلبه فبرغم ضخامته الجسمانية إلا أنه
يملك قلب طفل لا يعرف النفاق و إن كان لا يخلو من
شيء من المكر الصبياني الذي لا يؤدي أحد لكنه يزعجني
دائما حين يأتي ليوقظني كما جاء اليوم بغارته المعتادة و
ظل يستفزني بقولته : " يا عريس يا صغير ، علة تفوت
ولا حد يموت "

مستمر في ضحكه المستفز و كأننا لا نزال بعمر
الابتدائي و ربما يكون هو سر مرجه أنه لم يسمح للحياة
بأن تقتل براءة روحه لكنني لم أكن في حالة تسمح لي
بالضحك والهذر كما أنه لم يكن علي علم بعد بنجر فسخ
خطوبتي و ما زاد الطين بلة أنني اليوم استقبلت خبرا آخر
من أحد الأصدقاء المشتركين بأن خطيبتى السابقة علي
وشك الزواج برجل غيري و هذا زاد ألمي أكثر و أكثر مع
الإقامة الجبرية المشددة التي لا فكاك منها إلا بحميد .

ظل حميد على معايشته و مشاكسته لي و هو يقول
لي : " ألم تصلك أي مكاملة رقيقة و صوت صغير لكي
تقوم من مكانك أم أن الجميل غاضب عليك هذه الأيام "

يضحك باستفزاز رهيب لكن كانت هذه العبارات
كافية لتفجير شحنتي السلبية كلها في وجهه رغم أنه لا
ذنب له و قلت له بحسم شديد و عصبية : " لقد فسخت
الخطوبة و ستتزوج رجل غيري ، فقط ارتح "
أحمر وجهه غضبا و ألما و أسفا و أخذ يتأسف لي
بشدة ثم اندفع يقول بغيط شديد :

" فلتذهب للجحيم هي و من ستتزوجه . . .
سافلة "

تغير وجهي بعد هذه العبارة و لا أعرف لماذا لكنه
بدا واضحا لحميد و شعر أنه قد تجاوز الحد المسموح به في
الصداقة و أن الذكري لا تزال تؤلمني فقلت له بهدوء :

" هون عليك يا صديقي الموتى دائما ما نتذكرهم
بالرحمة "

كان هذا كافيا له ليستعيد مرحة السابق ليقول لي :
" اليوم عيد ميلادك يا معلم . . . ما رأيك أن نخرج
لنحتفل لأنك بالتأكيد رائحتك قد تعفنت من الجلوس
وحيدا بدوني "

" نعم بدوني . . . أنا عمك و سيدك الذي
يخرجك من الاكتئاب "

لم أتمالك نفسي من الضحك و قلت لنفسي إلى
هذه الدرجة لم أنتبه إلى أن اليوم هو عيد ميلادي و لم ينتبه
أي شخص بأسرتي لذلك و لعلهم جميعا متأثرين مما حدث
لي لكنه لم يتركني لأفكاري و مد يده إلى حقيبتة و توقعت
إحدى هداياه العجيبة القادمة من بلاد الشرق الأقصى

فقلت له لأقطع عليه لحظة انتشائه قائلاً : " فقرة الهدايا و
بالتأكيد محملة بفيروس سارس "

فاستفزته العبارة الأخيرة و قذفني بأحدي الوسائد
و قال لي بصوت هامس : " افتح الهدية . . . فقط ،
هدية لم يهدك إياها أبوك "

و ضحكنا بنجث شديد و هو خشي أن يسمعه أبي
فيتعرض كلانا للتوبيخ و ما أكثر ذلك .

يأتيني فجأة حميد مرحا يريد إخراجي من هذه
الحالة و يطلب أن نسهر سويا أو أن نسافر ما هذا الجنون
أأخرج في مثل هذه الحالة الصحية فقلت له غاضبا هل
تعرف كم الساعة الآن ؟

عاد لصمته مرة أخرى للحظة ثم أنفجر ضاحكا
بشكل أثار غيظي أكثر و أخذ يقول لي : " علقه تفوت و
لا حد يموت " لقد استفزني أكثر و ثار غيظي فقذفته

بوسادة في وجهه ثم قال لي بلهجة جادة يجب أن نخرج الآن
لأنه اليوم عيد ميلادك ولن أقبل بأي نقاش يا صديقي .
ثم قال عاد ليقول بتأنيب : " افتح هديتك ، حتى
تصاب بسارس "

ذاب حنقي المكتوم مما مررت به في الأيام السابقة
أمام فرحتي العارمة لكنني أغتاض دائما من تصرفاته
الصبيانية التي يقوم بها دائما و أضيق بها عندما تكون
حالتي المزاجية لا تسمح لي بهذا النوع من المزاح لكن
هدية كهذه كافية لتمحو مثل تلك الحالة .

كنت في أشد الحاجة لجهاز حاسب شخصي
محمول بالمواصفات التي أمسك بها و خصوصا أن جهازي
السابق صار من التاريخ لكنني لم أكن أملك المال الكافي
للتحديث و قد دار حديثا بيني و بين حميد حول ذلك وقتها
كانت كل مواردني المالية منصرفة لأموال الزواج و لكن

حميد أخي و صديقي لم ينس ذلك و بالفعل تذكره و
أحضره لي علي الفور من الخارج . . . يا له من صديق .
أمام هديته الرقيقة و إلحاحه الرهيب لم أقدر علي
الفكاك أو مقاومة رغبته في الخروج للاحتفال بعيد ميلادي
و قررنا الذهاب إلى أحد المقاهي الراقية ذات الطابع
الأجنبي التي ينتشر بها خطوط الإنترنت السريعة و ذلك
لتجربة الجهاز ومدى سرعته و إمكانياته المختلفة و حتى
أخرج من حالتي النفسية السيئة ركبنا سيارة حميد الأثرية
التي كنت دائما أحس أنها اشتراها من أحد تجار المخلفات
الحربية فهي عتيقة الطراز صناعة ألمانية تحس أن لها نفس
طابع السيارات التي تظهر في الأفلام التي تتحدث عن
حقبة الحرب العالمية الثانية و لم أكن أعلم أن تلك السيارة
سوف تشترك معنا في مغامرتنا الكبرى و ستكون هي
المفتاح الذي يفتح لنا الطريق لكن من يعلم إلى أين يسوقنا
قدرنا ولولا قرار حميد بالخروج ما كنت تعرفت إلى حب

حياتي و زوجتي بعدما كنت قد خرجت من تجربتي السابقة محطم الفؤاد .

جلست في ذلك المقهى و كانت ليلة الجمعة و رغم ذلك المكان لم يكن كعاداته يعج بالناس ففكرت في تجربة الجهاز فأخرجته من مكانه ثم ترددت للحظة هل سأفتحه لمجرد لحظات حين عودة حميد الذي كان يركن سيارته ثم أقفله وقتها سأبدو مثل محدثي النعمة ثم عدت أقول لنفسي إن حميد دائما ما يحتاج لوقت لركن سيارته فهي برغم من كونها عتيقة الطراز إلا أنه متعلق بها ويحافظ عليها بشكل غير عادي كأنها ابنه له و كل شخص مشغول بهومومه فحسنت أمري و فتحت الجهاز و شجعني أكثر أن الاتصال بشبكة الإنترنت هناك سريع وقد تأخر علي حميد و لما قمت بالاتصال عليه و لم يرد مما زاد مللي مللا وقررت الدخول إلى أحد مواقع الدردشة لتضييع الوقت و تجربة الجهاز .

صراحة لم أجرب من قبل أن أقضي وقتا في أحد مواقع الدردشة رغم اشتراكي في العديد من المجموعات البريدية لكنها كانت كلها تتعلق بدراسة البرمجة فكنت أحيانا أحادث بعض المبرمجين من الهند وباكستان لكن أن ابدأ الحوار مع شخص لا أعرفه لمجرد الدردشة فهذا صعب علي و كيف يكون للكلام طعم ما بين شخصين غريبين يلتقيان علي موقع الدردشة و كلا منهما لا يعرف الآخر فيحكيان لبعضهما عن حياتهم و مشاكلهم وأمالهم و أحلامهم ، لقد كنت أرفض فكرة مواقع الدردشة تلك لكن هأنا أدخل لها برغبتي . . . لا ليس الأمر برغبتي الكاملة لكن بدافع الملل و الفضول تجاه ذلك العالم المجهول بالنسبة لي فما أكثر ما سمعته عن المادحين لهذا الأمر و الأكثر سمعته عن الذم فيها ، كنت في تلك اللحظة مترددا و أحاول إيجاد العديد من التبريرات لنفسي فقلت لعل معظم من يدخلون للدردشة مروا بتجارب عاطفية

فشلت مثل حالتي واتجهوا لها لعلهم يجدوا من يواسي
قلوبهم الجريحة التي أضناها الشوق ، لا أدري
حتى أنا ظل عقلي يدور بين تلك الأفكار و ما بين شعوري
بالملل الشديد لأن حميد تأخر بشكل غير عادي و كلما
اتصلت به لا يرد فقلت لن يضر تجربة الأمر و لو للحظة .

دخلت إلى موقع كان لي أصدقاء يحكون لي عنه
فيه مجموعة من هواة الكتابة و الشعر و علي قدر طيب من
الثقافة فوجدت في الأمر ضالتي لعلي أجد من يؤنس
وحدتي و استطيع أن أتكلم معه قليلا ولكن في البداية كان
علي اختيار اسم لكي اشترك بالموقع فاخترت الدخول
باسمي فلا أحتاج إلى اسم مستعار أتواري خلفه مثلما
يفعل البعض .

كل هذا و حميد لا يزال غائبا عني و أنا في سري
ألغنه بضيق فقد تأخر علي كثيرا وبدأت أمل من الجلوس

وحيدا و النادل سألني أكثر من مرة هل اشرب شيئا لكنني
اعتذرت له و تعللت بوجود شخص آخر معي .

أول ما شد انتباهي في تلك المجموعة أن لهم أسماء
رقيقة و قد اختار البعض منهم اسمه المستعار بعناية شديدة
فمنهم من سمي نفسه نور الأمل أو . . . و يبقى الأمل أو
فارس الليل و جذبني اسم الحب المستحيل و شد انتباهي
بقوة و لكنني كنت لا أزال احتفظ بوجهة نظري تجاه
الأسماء المستعارة أني أكره من يتوارى خلف اسم ما فما
أجمل الصراحة .

قلت لنفسي حسنا لأبدأ كلامي بالسؤال عن
المغزى من اسمها أو اسمه المستعار لتكون فرصة لطيفة
لبدء المحادثة فأنا لم أجرب ذلك الأمر من قبل و حتى
يظهر حميد ما المانع أن أتسلي قليلا .

دخلت و طلبت أن الأذن بالتعارف علي صاحب أو
صاحبة الاسم الرقيق " الحب المستحيل " فكانت فتاة ثم

طلبت منها في البداية طلبت أن أتعرف إلى اسم محدثي
فكان الرد علي بسؤال و قالت لي : لماذا تريد معرفة اسمي
ما الفائدة من ذلك ؟

كتبت لها علي الفور : لأنني أحب أن أعرف من
هو محدثي ؟

فقالت لي : و هل يريحك إن قلت لك أي اسم ؟
فقلت لها : أنا أفترض حسن النية في من يتكلم
معي و في النهاية هذه حرية شخصية .

فقالت لي : لقد احترمت أسلوبك المهذب في
السؤال لذلك سأخبرك باسمي ، واسمي هو ليل .
فقلت لها : ما أجمله اسم و بصراحة لقد افتقدت
الأسماء العربية

فقالت لي : هل أفهم من كلامك أن هذا نوع من
السخرية

فقلت لها علي الفور : لا . . . لا أبدا

فقلت لي : حسنا لا بأس لكنني اعتدت أن هناك
كثير من الناس يسخرون من الأسماء العربية القديمة .
فقلت لها : إطلاقا علي العكس أنا أحب الأسماء
العربية بشدة لكن هل أنت مصرية ؟
فأجابت علي الفور : بالطبع لماذا ؟
فقلت لها : لقد اعتدت أن هذه الأسماء يسميها
أشقاؤنا من الدول العربية المجاورة و ربما الأمر غير معتاد
في مصر .

أعجبني أسلوبها الراقي في الحوار و بدأنا نندمج في
الكلام و شرحت لها وجهة نظري في مواقع الدردشة و
اندهشت من كلامي و فكرتي لكوني أحمل انطبعا سلبيا
عن الدردشة بمواقع التواصل الاجتماعي و أن كل من
يدخل إلى هذه المواقع يعاني من الشعور بالفراغ أو جرح
عاطفي في حياته و دخل من أجل النواح و البكاء و
شرحت لي أن كل شخص أحيانا يتألم بالضيق و التعب

من حياته و لا يستطيع أن يبوح لأي شخص قريب له بحاله
لذلك يلجأ إلى تلك المواقع كنوع من التفريغ الإيجابي
للشحنة السلبية من خلال تبادل الأفكار ويستطيع بعدها
أن يعاود حياته مرة أخرى فمن تتكلم معه هو أشبه ما
يكون بالبرء المرتحل الذي تلقي فيه كلماتك و أفكارك لا
يعرفك ولا تعرفه ثم سألتني : " و أنت ما دمت تملك هذه
الفكرة عن مواقع التواصل الاجتماعي ما الذي دفعك إلى
الدخول ؟ !

شعرت بالخرج من هذا السؤال المباغت لكنها
كانت ردة فعل طبيعية كرد علي كلامي و بدأت أهمهم و
أحاول الرد لكنها باغتتني بردها و قالت لي : " أنت أيضا
بحاجة لبرء مرتحل لتفرغ ما يملأ قلبك لكنك ترفض أن
تعترف بهذا و لحظك أنك وقعت معي و لن أتركك قبل
أن أقنعك "

ضحكنا علي كلماتها الأخيرة التي قالتها بلباقة شديدة وأسلوب مهذب وظل الاختلاف قائما والنقاش محله إلى أن ظهر أخيرا حميد بغارته بعد طول انتظار له فوجدني استخدم جهاز الحاسب المحمول .

فلم يفته التعليق كعاداته و قال بصوت جهوري :
" احترس الحاسوب فيه فيروس سارس ، احترس . . . "
و بدأ البعض يلتف إلينا بسبب صوته المرتفع و كلمة سارس فابتسمت له بغيظ لكنه لم يكتف بذلك فقد فوجئ أنني استخدم أحد مواقع التواصل الاجتماعي فلم يرحمني وقتها فانتهزت فرصة مجيء النادل لتلقي طلباتنا و استأذنت من ليل .

فبادرني حميد بالسؤال : " ما اسمها تلك الفتاة التي كنت تحدثها صورتها تبدو جميلة " نسيت تماما أن خطيبة حميد التي ماتت كان اسمها ليل و ظننت أن حميد نسي الأمر مرور عامين علي موتها لكن الجرح لازال غائرا

و لم ينس أنها ماتت بمرض السرطان قبل زواجهما بشهر
واحد فقط .

تحولت السهرة إلى حالة من الشجن و كان علينا
المغادرة لأن حميد هو الذي أصبحت حالته يرثى لها بعدما
تذكر ليل و أخذ يحكي لي كيف اختطفها الموت في لحظة
من بين يديه .

وجدت أن الأنسب عدم تركه يعود لمنزله ليقضي
تلك الليلة وحده و حكمت عليه أن نقضي الليلة معا في
شرفتي فحاول التملص متعللا بالعمل فقلت له : " منذ
قليل كان صوتك يسمعه الجميع و تريد السفر الآن صرت
مهذبا . . . تحرك و لا تدفع الكرسي المتحرك بقوة و إلا
ضربتك "

فخرجت منه ضحكة رغما عنه مع دموعه النازفة
علي خده و أكثر ما أكرهه هو رؤية الرجل يبكي لكن
أحيانا يكون الألم فوق طاقتنا .

في شرفتي بالمعادي سهرنا أنا و حميد و أحببت
الجلوس بالشرفة لمجرد المشاهدة و أخذت انظر إلى برج
التقوية بنوع من الحنين و الافتقاد لعملتي و كم افتقدت
جلستنا هذه من بعد التخرج بسبب مشاغل الحياة و
الضغوط الكثيرة التي تعرضت لها و الآن أنا في إجازة
طويلة رغما عني و علي أن أستمتع أو أحاول التظاهر
بذلك و إقناع نفسي بالراحة لكن عملي هو حياتي .

الفصل الثالث

مضت على خير الليلة الماضية بعد حديث الشجون التي أمضت قلبي و حالة الحنين و البكاء التي مر بها حميد صديقي لأنه تذكر أوجاعه و أحزانه علي ليل خطيبته التي توفيت بمرض السرطان قبل زواجهما و ظل عقلي معلق بليل التي تعرفت عليها متمنيا مقابلتها مرة أخرى فقد كانت إنسانة مثقفة و لبقة و عندما استأذنت منها كان هناك وعد بلقاء آخر و تمنيت في نفسي أن يكون هناك لقاء ثان و ثالث و رابع حتى نستكمل حوارنا سويا .

لكني منذ جلست أنا و حميد نتجاذب أطراف الحديث في شرفة منزلنا و اكتشف أن الشرفة جلستها ممتعة في الليل و مشاهدة الأنوار ليلا أمر مسلي للغاية و دوما كان نظري معلق بأبراج التقوية الخاصة بشبكة الاتصالات ، انظر إليها و أشعر بأنها تحدثني و تقول لي شيئا ما .

أفكار غريبة تملك الإنسان في بعض اللحظات
لكن الحقيقة أنني كنت قد نسيت طعم الشعور بالراحة و
التأمل و الاستجمام في غمرة مشاغل لقمة العيش و
ضغوط الحياة الجديدة التي كنت استعد لها و خطر ببالي
أن أذهب يوما إلى الصحراء و مضارب البدو و حياة الرعي
البداية الجميلة لكن هنا الحياة المدنية تفرض علينا قيود
رهيبة و هاهي الفرصة قد واتتني فلما لا أستغلها .

مع الوقت غلبني النعاس فنمت لكن صارت لدي
عادة و هي حب المراقبة المسائية لمشاهد الليل و بالطبع لن
يكون هناك لي أنيس و جليس خيرا من حاسوبي المحمول
الذي اشتراه لي حميد فأجلس في الشرفة بصحبته و في نفس
الوقت أدخل أحيانا إلى مواقع الدراسة للتعلم من الآخرين
المهتمين بعلم البرمجة و ذلك قطعاً للوقت حتى تمر أيام

حبسي الانفرادي علي خير لكن . . . دوما تأتي الرياح بما
لا تشتهي السفن .

يبدو أنني وقتها بعد انتهائي من قصة حب عاصفة
كان لهذا الأمر تأثيرا علي حتى أنني كنت محتاج لأي
شخص يملأ الفراغ العاطفي لقصتي التي انتهت بشكل
درامي مفاجئ لم يكن في الحسبان لكن هذه هي الحياة دائما
ما تأتي بمفاجآت لم تكن في الحسبان .

لكن ما لم يكن في حساباني هو أنني بدأت ألاحظ
أشياء كثيرة من خلال جلوسي و مراقبة الرائح و الغادي
من شرفة منزلنا و هو الجيران وعاداتهم وطبعا لشعوري
بالضيق من محبسي فقد كان علي أن أشغل نفسي بأي
شيء لكي أبرد الوقت من حولي و أشغل رأسي عن قصة
حبي التي انتهت بالفشل .

كان هناك أمران شغلا بالي أبراج شبكات التليفون
و ومضاتها الحمراء التي كنت أشعر في وقت ما أن الأبراج
تتجاوز مع بعضها عن طريق إشارات موريس و خصوصا
ما بعد منتصف الليل و سلوكيات الجيران الجدد الذين
سكنوا أمامنا فلهم عادات شتي فقد كان هناك قبل بناء
هذه العمارة فيلا فخمة و لكن للأسف باعها الورثة و تم
إنشاء هذه الكتلة الخرسانية الصماء التي ملأت الحي
بضجيج سياراتهم و عاداتهم الغريبة فعظم من سكنوا
العمارة ليسوا من السكان الأصليين لحي المعادي الذي
يتمتع بخصوصية كبيرة في أجوائه لكن كان علينا أن
نعتاد وجودهم بعدما صار واقعا مفروضا علينا .

كنت في حالي هذه من الملل دائما ما أتذكر الفيلم
الأجنبي خلف النافذة الذي قدم بطولته الممثل الأمريكي
جيمس ستيفارت والذي كان يحكي عن صحفي شاب ،

أصيب بكسر مضاعف في قدمه أجبره علي الجلوس علي كرتي متحرك وصار مثلي أو أنا من صار مثله .

يقضي وقت النقاهاة وحيدا في بيته فراح يسلي أوقات فراغه الطويلة من خلال مراقبة أحوال سكان العمارة المجاورة له و تأمل علاقاتهم فكان يشاهد الزوجة الشابة التي تتدلل علي زوجها المسن و كذلك الفتاة التي تحاول أن تلفت نظر أحد الشباب و كذلك الشاب المتعجب بعضلاته فلا يحلو له أن يمارس التمارين الرياضية إلا في شرفة الشقة و كذلك الزوجين اللذين يتبادلان الحب و العطف و الزوجين اللذين يتبادلا الكراهية و الجفاء بصمت و كل هذه أمثلة من الحياة لكن مع فارق أنني طبعا لن أتي بنظارة مكبرة أو كاميرا ذات تقريب عال لكي أتجسس علي جيراني لكن منذ أن فكرت في مسألة أن أعيش مغامرة ما و أنا أشعر بأنني أعيش حالة بطل الفيلم الذي عاني من الملل مثلي و ظل في انتظار حدث هام يُغير

حياته و لا بد و أنني كنت واهما فقد طال انتظاري أياما
طوالا حتى مللت و غابت عني ليل أيضا لم تظهر علي
موقع الدردشة لفترة طويلة و قلت لعلها هي الأخرى
أصابها الملل من الكلام معي كما أصاب سابقتها فتحولت
هي الأخرى عني .

شعرت بدوامة الأحزان عادت مرة أخرى
لتحاصرني و أخذت أسترجع شريط الألم في حياتي ثم
حاولت بعدها أن أفكر بشكل إيجابي بعض الشيء و
أحاول البحث عن السبب الذي جعل السأم يتسلل مرة
أخرى لحياتي بعدما كنت أوشكت علي أن أتخلص من
تلك الحالة و في غمرة تأملاتي الحزينة لم تطل علي هذه
اللحظات حتى ظهرت أخيرا بعد طول انتظاري علي
موقع الدردشة في وقت متأخر من الليل و تسأل عني
بلهفة غريبة و قد تركت لي عدة رسائل معلقة فقلت لعل
الأمر خيرا و مع ظهورها برقت السماء بلون أحمر أخذ

يتكرر أكثر من مرة و قد سبق و شاهدته لمرات أثناء كلامي معها في شرفة غرفتي لكنني لم أعره أية اهتمام يذكر .

قلت لنفسني علي أن أنسي فكرة الحدث الهام المصيري فلن يحدث أبدا لي شيء ذو بال طوال فترة الإقامة الجبرية تلك التي علي أن أقضيها بأمر الحاكمين العسكريين أبي و جدي .

ما بين التسكع في مواقع التواصل الاجتماعي و القراءة و تعلم البرمجة أو التحدث إلى ليل و مشاهدة سكان البناية سكنت مشاعر الملل نوعا ما لكن صوت ما يتردد بداخلي و ينبئني دائما أن هناك حدثا مصيريا ينتظرني و يقترب و يتزامن هذا الشعور كلما تحدثت مع ليل و يزداد التقارب بيننا .

أصبح هذا الشعور عندي أقوى و لكن الأمور بيني و بين ليل عادية أحيانا تختفي و تترك لي بعض الرسائل المعلقة ثم يخيب ظني و تعاود الظهور و تسأل عني و عن

أحوالى و تعتذر عن غيابها المفاجئ فسألتها بفضول : " أين تختفين بين الحين و الآخر "

فشرحت لي أنها تضطر للسفر لأهل أمها في إحدى الدول الأوربية و أحيانا تسافر مع أبيها لكن سفرها مع أبيها يكون بدون علم مسبق منها و أحيانا تنشغل مع أخوتها الصغار فقد يصابوا بنزلات البرد بعد السفر و العودة أو الاهتمام بمذاكرتهم مما يمنعها من الظهور أو تكتفي فقط بمتابعة الرسائل التي تردها علي صندوقها البريدي .

أخبرتني بأنها عندما وجدت رسائلتي التي أرسلتها لها شعرت بالحرج لأنها خشيت أنني قد أظن أنها تعمدت عدم الرد أو لم تلتفت للرسائل التي أرسلت لها و قد تخرجت من نفسي بعدما سمعت أسبابها و خصوصا أنها استطاعت بسهولة قراءة كل ما دار في خلدي .

فقلت لها بكل وضوح أن هذا فعلا هو كل ما دار في مخيلتي و ردت علي بأنه هذا أمر عادي و ليس مستغرب لأننا لم نعرف بعض حتى الآن بالقدر الكافي مما يجعل هناك بعض المسافات و الحواجز لكنها تزول مع الوقت .

فانتهزت ذلك الكلام فرصة لكي أدير الحوار السابق الخاص بأن التعارفات عبر مواقع التواصل الاجتماعي أحيانا لا تكون كافية للمعرفة بين الأشخاص فكتبت لي عبارة ضحك ثم توقفت للحظة عند كلامها عن إخوتها الصغار و أبيها الذي اضطرت للسفر معه فجأة و سألتها عن عائلتها فكتبت إلى و أحسست من أحرفها و كلماتها بأنه حديث له شجون في نفسها و قصت علي أخبارها و أن أمها متوفية منذ فترة ليست بالبعيدة و أن لها ثلاثة أخوة صغار هي التي تهتم بهم و صارت هي كأم بديلة لهم بعد انشغال أبيها دائما بأعماله و صفقاته ، قبل ذلك كان أستاذا جامعيا مرموقا في مصر ثم بعد ذلك

التحق ببعثة في الخارج و هناك استطاع الحصول علي فرصة حقيقة فقدم استقالته و التفت إلى عالم المال و الأعمال و عاش حياته بالكامل في الخارج و وقته بالكامل في عمله و شعرت أنني لست الشخص الوحيد الذي يحمل قلبه أحزانا في هذه الدنيا و أنها برغم الحياة الرغدة التي تعيشها فهي أيضا لها أحزانها و شجونها التي تملأ قلبها مثلي تماما فقد علمت أن لا بد من مساحة الحزن في حياة كل إنسان .

أشفقت كثيرا علي حالها في هذه العزلة الصعبة في أن تكون شابة صغيرة تتمني أن تتزوج و تفرح و لكن ملقي علي عاتقها واجب رعاية إخوتها الصغار و متابعة دراستهم بدلا من أمها المتوفية و أبوها المشغل بحياته عنهم . . . في البداية ظننت أنه أستاذ جامعي و لا بد أنه متخصص في الفيزياء و الكيمياء و له معمل يبتكر فيه لذلك أبحاثه تشغل وقته لكنها خيبت ظني حين قالت لي أن أبوها كان أستاذا في هندسة الاتصالات و لكنه حاليا

رجل أعمال و كل ما يشغله هو صفقاته و جمع المال ،
كلمة اتصالات هذه فتحت شهيتي و قلت لعله لديه أفكار
و استثمارات لكن طريقة كلام ليل عن أبيها أزالته
أي فكرة خبيثة دارت في عقلي لأن من الواضح أنه شخص
أناني يعشق ذاته و لا يهتمه شيء في الدنيا سوى نفسه و هذا
جعلني أتوه في حالة من التعاطف اللانهائي مع حالتها
نسيت فيها أي حدث مصيري ممكن ، فقد شعرت بموجة
من الصدق تسري في كلامها و لم ادر ما هو السر .

أخذني الكلام معها و راحت تحكي لي عن
مشاكلها اليومية مع أخوتها و تعبها الدائم في تربيتهم و أن
الدردشة غالبا ما تكون هي المتنفس الحقيقي لها لأنها لا
تكاد تخرج من البيت إلا لقضاء بعض الحاجات التي
يحتاجها البيت و أن الحياة في محافظة مرسى مطروح هي
حياة هادئة و جميلة لكن أحيانا المرء يضيق بتلك الحالة من

الركود والملل فالمرء يلزمه شيء من التغير لا شيء سوى
أن التغير أحيانا ما يكون مفيدا لكي يجدد الحيوية و النشاط
سرني الكلام مع ليل كثيرا و صار الأمر عادة شبه
يومية أن نتحدث بالساعات وتمتد بيننا الكلمات والحروف
تنساب عبر الإنترنت و نحن ناسين تماما الوقت و لكنها
أحيانا تغيب عني لعمل شيء في البيت ثم تعود إلى مرة
أخرى و تجدني انتظرها لكن كانت دوما عيوني متعلقة
بأبراج التقوية و الوميض الأحمر المتألق ليلا و برغم جو
القاهرة الملبد بالغيوم لكنني كنت قادر علي ملاحظة
الأبراج القريبة من سكني ، بمرور الوقت الحال أعجبني و
صرنا أصدقاء من خلال المراسلة و نعرف المواعيد التي
يتواجد كلانا فيها و صارت شبه عادة أن ندخل يوميا إلى
موقع الدردشة من أجل أن نتحدث و نتجاذب أطراف
الحديث في خلال هذه الآونة كنت تدريجيا بدأت أعتاد
وجود ليل في حياتي و أستعذب أسلوبها في الكلام و

ثقافتها و لباقتها وأشياء كثيرة و طبعاً أحياناً كنت أحكي لها عن عادات جيرانى و ملاحظاتى الفضولية عنهم فلا يشغلنى شيء سوى التطلع للرائح والغادى و مشاهدة حركة الشارع لكننى لم أصارح أحداً بفكرتى الغريبة حول أبراج التقوية والوميض الأحمر الصادر عنها و شعورى أنها تتحدث لغة تخرج عنها فى سكون الليل فماذا أفعل فى حالتى هذه كان على شغل الوقت بأكبر قدر ممكن حتى لا أتذكر جرحى القديم و قد ساعدتنى ليل كثيراً فى ذلك و شيئاً فشيئاً صارت أواصر المعرفة بيننا تتوطد و أصبح لقائنا دائماً ويومى حتى أننى طلبت منها أن تتصل على هاتفى المحمول فى حال وجودها و صرنا نتبادل الرسائل و كل هذا و حميد يتابع هذا عن كذب و يقول لى بشيء من الطفولة لقد بدأت تتعلق بهذه الفتاة يا صاحبى لكننى أنا لم أكن أتصور أن يتعلق قلبى بأي شخص بعد قصتى السابقة فقد كنت قررت أن أغلق باب قلبى و أتزوج

بشكل تقليدي و في هدوء و بدون أي مشاكل أو حماقات
لكن حميد ظل مصرا علي رأيه و أننا سوف نتحول من
حالة الصداقة إلى حالة " الحباقة " وهو تعبير مبتكر من
صديقي حميد يعني فيه أننا في حالة ما بين الحب و الصداقة
أشبه بوضع اللاسلم و الاحرب لكنه توقع أن تكون
النهاية لهذه الحالة سعيدة لأنني منسجم و أريد الخروج من
الشعور بالذنب الذي يصيبني بأنني أنا من أفشل الأمر ولو
كنت أهتم بها و صبرا ما كان يحدث ما كان

لكن الغريب بالأمر في كل هذا هو أننا كنا نكتب
لبعضنا البعض و نرسل الرسائل و لم يسمع أحد منا
صوت الآخر من قبل رغم أنني أملك رقم هاتفها المحمول
و هي بدورها كذلك لكن لا أعلم ما الذي كان يحملنا
علي ذلك و رغم كل هذه الحكايات و الكلمات
التي تبادلناها معا خلال فترة الأسبوعين إلا أنني لم أسألها
يوما عن سر اختيارها اسم الحب المستحيل ليظهر علي

بريدها الإلكتروني و هل هو حب حقيقي في حياتها أم مجرد اسم أعجبها ؟

هنا بدأ عقلي يتبهِه و يرسل إنذارات شديدة اللهجة فيبدو أنني مقبل علي حالة حب جديدة لكن من موقع دردشة و هل هذا يمكن أن يحدث لشخصين لم يعرفا بعض من قبل و لكنني تذكرت كلامها عن أن الدردشة قد تكون أحد الوسائل الحديثة للتعارف و التقارب بين الأشخاص ، لكن عقلي يرفض مثل هذا الهراء التخيلي لقد تناقشنا مرارا و تكرارا في هذا النقطة و لازلت أري أن المعرفة الحسية للأشخاص أوقع و أقوى و هي التي تولد شرارة المشاعر لكن ما الفائدة من شخصين كل منهم يسكن في بقعة بعيدة عن الآخر في الأرض و لا سبيل للقاءهم و يتجاذبان أطراف حديث حلو و رقيق و يجبان بعضهما لكن الأيدي لا تلتقي .

لكنني ظللت منشغلا و معجبا في نفس الوقت
بقصة اسمها الحب المستحيل و لم أرتح إلا حين قابلتها
فيما بعد و سألتها ما سر هذا الاسم فضحكت و قالت
لي : هل تعرف قصة حب الشمس و القمر ؟

كتبت لها المزيد من الضحكات و قلت لها : و هل
هذا ممكن أو جائر أن يحب القمر الشمس ؟

فردت علي بكل بساطة و قالت : هذا هو الحب
المستحيل أسطورة الحب الخالد فهو حب بلا أمل ، اقتراب
القمر من الشمس يذيبه و يحرقه لكنه مع ذلك مُصر على
حبه لها و مصمم أن يتم زواجه بها و الشمس تخشي عليه
من هذا و تشفق علي حاله فتهرب من لقاءه لأنها تحبه و
كلا منهما يتمني أن يلتقي بالآخر و لكن أملهما بعيد في
اللقاء و التلاقي حتى ولد الفجر فهو تلك اللحظة الوحيدة
التي يتمكن كلا منها بأن يمسك بيد الآخر لشوان معدودات

ثم لا يلبثا أن يفترقان تدريجيا فتبكي السماء لفراقهما فتزل
على خديها دمعان رقيقتان تغسلان الأرض بأسرها .

لم أتمالك نفسي من جمال هذا المشاعر و رقتها كنت
سأكتب تعبيرا مضحكا لكن جزء بداخلي منعني و حال
دون ذلك العبث لا أدري ما هو لكنه دفعني أيضا
للاستئذان .

هل هي مشاعري التي أحسست بها تبعثرت في كل
مكان أم أنني شعرت أنني قد أسلمت قلبي للشخص الخطأ
و لمن لا يستحق مشاعري لا أدري بالضبط ما هو شعوري
لكنني كنت في حالة يرثي لها لا أدري سعيد أم حزين ،
غضبان أم راض عن نفسي موجة عارمة من المشاعر تجتاح
نفسي و الجرح لا زال غائرا في قلبي لم يكن أبدا الأمر
سهلا أو هينا علي أن نترك بعضنا بهذه السهولة و كم
تمنيت حين يرن هاتفني أن يطالعني صوتها لكن هيهات لقد
قررت أن تبيعني برخيص المتاع فلتذهب هي إلى ما أرادته

، لكن أين كنت يا ليل لماذا لم أجد فتاة رقيقة كليل
استطيع أن أهبط قلبي و أنا مطمئن راح الشعور
بالذنب الذي كان يراود نفسي علي نوبات متقطعة و تحول
إلى حالة من الحنق و الضيق لم تهدأ إلا مع الصلاة و
بالقرب من الله فقط أشعر أنني ضئيل و ضعيف و لست
مركزا للكون بل هناك أمورا أهم من ألمي و حزني لمجرد
أن حبيبتي فارقتني .

في هذه اللحظة تملكني رغبة رهيبة بأن أمسك
الهاتف المحمول و أتصل بليل لمجرد أن أسمع صوتها فقط
لا غير لا أدري ربما كانت حالة من الفضول العارم اعترتني
أو أنها رغبة صبيانية نفست عنها لكنني لم أتنبه و أخرج
من بحر تخيلاتي إلا على صوت الخط يُفتح فلم يكديرن
لمرتان ثم سري صوتها و شعرت بحالة غريبة من الحرج
سقطت فيها لا أدري لما هذا الشعور تملكني

الفصل الرابع

كنت لا أزال في حرجي و تلجلجت في الرد حتى
إنني قلت في قرارة نفسي لأغلق المحادثة و كأنني طلبت
الرقم بشكل خاطئ و لم أكن اقصد الاتصال بها واعتذر
لها فيما بعد و لكنني وجدت أن الوضع سيكون أكثر
صعوبة و حرجا ، و قد تقول ما الداعي لأن يتصل بي و
يتحدث معي ما دمنا نتكلم من خلال موقع المحادثة لكن
كل أحاسيس الحرج هذه تلاشت بمجرد أن ردت علي
بشكل هادئ لا يشي بأي بوادر توتر أو ضيق من محادثتي
معهما و كأننا كنا نعرف بعض منذ زمن و لكن كيف هذا
فسألتها و قلت لها : أنا أشعر و كأنني أعرفك من دهر "

فردت علي كلامي بضحكة هادئة و رقيقة فقلت
لها بجزم : " و ما سر الضحكة "

فقلت لي متدركة الموقف : " أنا أيضا شعرت بهذا " و ضحكنا لتوارد خواطرنا .

مر الوقت سريعا بشكل غير عادي و استمرت المحادثة لأكثر من نصف ساعة ، لم نكن نحس أبدا أننا شخصين لأول مرة يحدثا بعضهما البعض ، بالفعل شيء غريب و شعور لأول مرة أجربه ولكنه ممتع .

لكن بعد انتهاء المحادثة ظلت نفسي تحدثني و تقول لي أنني مخطئ و أن ما فعلته غير صحيح بالمرّة و إن كنت خرجت من تجربة قاسية فلا يصح لي أبدا أن أنساها بأخرى و ليست تلك أخلاقي و أن كلام حميد لي صحيح أنني أعيش حالة من الحباقة لا هي حب و لا هي صداقة و سوف يؤدي بي الأمر إلى حماقة من نوع جديد أضيع بها كل حياتي في المزيد من الأوهام فهل تقبل ابنة الثري أن تعيش بأسلوب حياتنا المتواضع .

لكن الفضول كان يقتلني كنت أريد أن اعرف تلك الفتاة أكثر و أكثر و بداخلي صوت داخلي ينبئني بأن هناك شيء ما ينتظرني وأنا متجاوب مع هذا الصوت و لا مانع عندي أبدا من أكمل القصة رغم التحذيرات التي أطلقها حدسي .

ظل عقلي يدور في حلقات مفرغة حتى جاءني حميد كعاصفة الصحراء قاطعا علي جبل أفكاري ، فبالرغم من طيبة قلبه أحيانا يكون له أعمالا صبيانية لا تحتمل لكن ماذا أفعل فهو أعز أصدقائي و أكثر من أخ لي

وقف قبالي حميد ثم قال لي بشيء من المرح جهز حقيبتك يا بطل سنذهب إلى مرسى مطروح ، و لم يعطني أي وقت حتى لأبدي اندهاشي أو حتى اعتراضي أو نتجادل أو انبس بكلمة ، لقد قام من فوره لكي يجهز لي حقيبتي و تركني لأندهش وحدي و اعترض كما أشاء .

برغم خفته إلا أنه كان بارع جدا في قراءة الأشخاص و كان يجيد قراءتي بحكم العشرة الطويلة و الصداقة الممتدة من نظرة عين أو التفاتة يفهمني وقد علم أن هذا سيحدث إن آجلا أم عاجلا . . . سيطيرني الشغف و الشوق لمطروح لألتقيها و هو شعر من كلامي عنها أنها إنسانة مميزة و ربما خشي أن يزداد التعلق بيننا و يكفيني الصدمة التي خرجت منها لتوي .

سوف أقابلها ولكن متي ؟ هذا ما خاف علي من عاقبته فقرر أن يكون أكثر حسما و قال نذهب في رحلة إلى مرسى مطروح و في نفس الوقت سوف يتهيا لي الوقت لزيارتها و معرفتها عن قرب و أنا فهمت هذا من نظرة حميد إلى و لكن كلا منا لم يفصح إلى الآخر بما يجول في نفسه و بقيت أفكارنا حبيسة في صدورنا إلى أن يأذن الله ، لكن يبدو لي أن حميد أراد أن يثبت لي أن الأمر محض أكذوبة و ما من فتاة عاقلة سوف تتعارف إلى شاب من

خلال الإنترنت و تقابله و بينهما مسافات و
مسافات ، بالطبع أنا أيضا كنت مقتنعا بهذا لكنه الفضول
الذي يكاد يقتلني بل سيوشك علي هذا . . . ثم عدت و
قلت لنفسي ما المانع .

قد تكون إنسانة صادقة و تخيب ظنون حميد فيها و
تكون هي الفرصة التي انتظرتها في حياتي فدوما المغامر هو
الذي يفوز بملذات الحياة لكن . . . عاد عقلي إلى الشك
فقد كنت دوما ما بين شك و فضول و هذا ما دفعني طول
هذه المغامرة إلى أن عرفت الحقيقة .

بدأنا فعلا في تجهيز الحقائق استعدادا لسفرنا إلى
مرسي مطروح فلم يعد باقيا في إجازتي المرضية إلا أياما
معدودات و بعدها سأرجع إلى العمل الشاق و الطبيب
نصحتني بشيء من الحركة البسيطة حتى لا تتيبس عضلات

رجلي و وجدت الفرصة ستكون طيبة لتغيير الجو و منظر البحر يشرح القلب و يذهب الحزن عن النفس ، لكنني حين أذهب لمكان ما فأنا لا أراه فقط بعين السائح و لكنني أشاهد ما وراء الحدث أراه أحب أيضا أن أراه بعين الحياة و أحاول تخيل الأشخاص الذين سبق و عاشوا في هذا المكان فقد كنت متشوقا لأري حمام كليوباترا حيث كانت تستحم و تقابل حبيبها أنطونيو و يا تري كيف كانت حياتها و بماذا كانوا يفكرون أمور كثيرة شغلت خاطري في أثناء السفر إلى مرسى مطروح و لكننا هذه المرة لم نركب السيارة العجيبة الخاصة بحميد و لكننا أخذنا الحافلة خوفا من طول المسافة و أن السيارة قد لا تحمل السفر لمسافة طويلة ، بالطبع هذا تم بعد محادثات مطولة لأنه أخذ يدافع عن سيارته و أنها له سمعة طويلة في السير لمسافات طويلة و أنها من الممكن أن تذهب بنا و تعود في نفس اليوم و لكنني أنا من كان لا يحتمل المزيد من المفاجآت الغير سارة

في طريقنا إلى مرسى مطروح هطلت علينا أمطارا
خفيفة أحسست معها بأن الشتاء يودعنا و هو يلفظ أنفاسه
الأخيرة ليوسع الطريق للربيع و ما أجمل المطر في مصر يأتي
ضييفا عزيزا غاليا في مثل ذلك الوقت فينسال علي خد
السماء برقة ليغسل الأشياء كلها الحجر و الشجر و البشر
حتى الألم نفسه يذوب مع رفته و جماله كذلك آلامي باتت
تذوب مع كل قطرة تغمرها و اشعر بها تغادرني بعيدا و
انسالت دموعي دون أن يلحظها أحد مع دعاء رقيق
وتمتات تلهج بالذكر إلى ربي سألته التوفيق في أموري و
التيسير في كل خير ربما كان جرحي القديم لم يندمل بعد
أو أن نزول المطر حرك المشاعر القديمة لا أدري أو أنني
شعرت أنني مقبل على أمر جديد و احتجت إلى الدعاء
لكن بعيدا عن الفلسفة دوما الإنسان بحاجة إلى الدعاء إلى
ربه .

بعدها وصلنا إلى محافظة مرسى مطروح ، توقف حميد أمام أحد الفنادق التي يعرفها و كان يحب النزول فيها و قرر أن نحجز فيه لمدة عدة أيام لما ناقشته في ذلك و أنني كنت أريد مجرد زيارة سريعة لن تزيد عن أربع و عشرون ساعة رد بهدوء شديد علي و قال أنه يجب أن أسعى لتغيير مناظر و أماكن حتى تستعيد نفسي نشاطها مرة أخرى و أقبل علي العمل لكنني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعا بما يقوله حميد فهو يعرف ما يدور في خلدي و لماذا وافقته علي هذه المغامرة و هو أيضا يعلم هذا لكن كلا منا لم يصرح للآخر بما في نفسه . . . و كنت أريد أن أصرخ في وجهه و أقول له يا حميد . . . قل لي أرجع عما برأسك و راجعني لكنه لم يفعل ذلك يبدو أنه كان مثلي يمتلكه حالة غير عادية من هذا الفضول تجاه معرفة ما الذي سيجري و أحب أن مشاهدة الأمور عن كثب أو ربما وجد الأفضل أن يتركني أجرب حظي بنفسي و خاف أن ينصحنني فأضيق

ذرعاً من النصح و الإرشاد ، لا أدري حقيقة لكنه الفضول
قاتل البشر . . .

يبدو أن قصتنا كانت تبدو مثل أي قصة تقليدية لا
تنم عن شيء مثير أو جدير بالذكر حتى و لكن حين
اكتملت فصولها و تبلورت حبكةها بدت شيء أغرب من
الخيال ، و لم يكن يدور بخلدني أبداً أن هذا من الممكن أن
يحدث بالمرّة و لكنها الأقدار التي تجمع الأشخاص من
شتي بقاع الأرض إلى أماكن و عوالم أخرى لم يكونوا
يحلّموا بأن يدخلوا إليها أصلاً ، فهذا أنا أحكي قصة حبي
ليل و صراعي مع الظروف القاسية التي لم تخطر ببالي و
لا ببال أي شخص ، ففي البداية لم تكن علاقتي بها سوى
مثل بالبئر المرتحل الذي يلقي فيه الإنسان آلامه و آماله و
يحكي ما لا يقدر أن يحكيه للأشخاص المحيطين به ، و هذا
سبب أننا نشر على مواقع التواصل الاجتماعية ثم

تطورت الأمور لأبعد مما كنت أتوقعه أنا شخصيا وصولا إلى اكتشاف سر الومضات الخفية .

فما الجديد في قصة شاب تقابل مع فتاة عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي و استمر في الكلام مع بعضهما البعض و الدردشة فملاً الميل نفسه تجاه هذه الشخصية التي لا يعرف عنها شيئاً و قد تكون غير حقيقية بالمرّة فما أدراه ما هي حقيقتها وطار به الشوق و فضوله الشخصي لمعرفة الحقيقة إلى حيث تسكن و ذهب إليها رغم أنها تعيش بمحافضة تبعد عن محافظته بمسافة طويلة و هاهو آت لكي يختبر صدق مشاعره و أحاسيسه تجاه تلك التي استطاعت أن تشغل أحلامه و تملأ عليه فراغ حياته بشكل مفاجئ!

اتصلت بليل و أخبرتها بوصولي إلى مرسى مطروح و موضع إقامتي و فرحت كثيراً و سرت موجة غير عادية من الفرح في صوتها و إن كنت شعرت بأن

صوتها يشوبه شيئاً من الاضطراب الغير معلوم السبب لا أعلم ما سره و ما سببه و قلت لنفسي ربما المفاجأة و لم تكن متوقعة .

ظللت تلك الليلة احلم بها و ما الذي يمكن أن أقوله لها في أول لقاء تعارف حقيقي و بيني و بين نفسي اشعر بأنه أمر غريب جدا هو أن يتعارف شخصين هكذا قدرا و يذهبا ليقابلا بعضهما شيء كان لم أعتاده من قبل لكننا في النهاية نحن مجرد غريبان تعارفا عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعية و يريدان أن يوطدا هذا المعرفة بشكل أكبر .

قمت من نومي كعادتي علي آذان الفجر لكن هذه المرة رأيت مناما أقلقني بشدة فقد كنت أري نفسي وحيدا أجلس في حجرة مظلمة حوائطها سوداء مقبضة و المكان الذي أجلس فيه يبدو قدرا و رائحته نتنة و شعرت بأن جدران الغرفة أخذت تضيق تدريجيا علي جسدي و تطبق

علي ضلوعي و شعرت بأنها النهاية الوشيكة . . . ثم
انفتحت طاقة من النور أخذت تتسع لتضيء ظلام الغرفة
واستيقظت على صوت أذان الفجر .

الفصل الخامس

في اليوم التالي مررت بنفس الحالة من عدم الارتياح في النوم و أخذت أتقلب في فراشي و كافحت من أجل استدعاء النوم لكنني لم أفجح بذلك طيلة الليل ولم يغمض لي جفن أما حميد فظل يغط في نوم عميق بعد يومنا الطويل مع هذا السفر المفاجئ فقممت لأجلس في شرفة الغرفة فلم يكن هناك أجمل من منظر الليل في محافظة مرسى مطروح و إطلالة البحر و الأضواء تنعكس علي صفحة الماء سواء أضواء المنارة أو الفنادق الأخرى المطلة علي البحر في لوحة فنية بديعة تتداخل فيها كل الألوان ما بين اللون الأحمر و الأصفر و الأخضر و سواد الليل يحوطها في غموض و بخاصة حين تجلس في طابق مرتفع يكشف لك المنظر .

أفقت على ما قطع على تأملاتي و كأن كلمة
الوميض الأحمر أشبه ما تكون بكلمة السر مثل التي
يقولونها للمنوم مغناطيسيا فيفيق و تذكرت أنه العديد من
أبراج التقوية مؤخرا قد تعطلت و في عدة مناطق و
خصوصا الإسكندرية و مرسى مطروح و الساحل
الشمالي و قد تم استدعائي شخصا أكثر من مرة آخرها
تلك التي كنت فيها بالإسكندرية و تعرضت لحادث كسر
ساقى و صاحب حوادث التعطل حوادث سقوط الفنيين
من أعلي أبراج التقوية . . . و دائما ما يكون السبب
المكتوب ضمن تقرير الطبيب الشرعي هو وجود نسبة من
المخدر بالدم وهذا بالتأكيد الذي أدى إلى شعوره بالدوار و
اختلال توازنه فيسقط من هذا الارتفاع الكبير فيودي بحياة
هؤلاء المساكين و برغم أن الشركة تقوم دائما بعمل
اختبارات المخدرات بشكل عشوائي للاطمئنان علي
الفنيين تلافيا لهذه الحوادث لكن للأسف أغلبهم مستهتر .

ظلت اللمبات الصغيرة المثبتة اعلي أبراج التقوية
تومض و تنطفئ ثم ترجع ثانية و تومض و أنا في عالمي من
التأملات و هي تضايقني إضاءتها لأنها تنعكس علي
صفحة الماء و كأنها تصر علي إخراجي من هذه الحالة من
الصفاء التي أعيش فيها كانت تومض ثم تنطفئ بشكل
غريب و كأنها تجذبني إليها و تشد ناظري و أنا أنظر إليها
مثل المنوم مغناطيسيا حتى أنني بدأت ادقق النظر فيها و
أتابعها . . . ثم ندت عني ضحكة عالية و لم أنتبه لها إلا
حين تحولت لحالة من القهقهة العالية و المتابعة حتى أن
حميد صحا ليدخل إلى دورة المياه فجذبه صوت ضحكي
المرتفع ، فدخل إلى الشرفة و رآني في تلك الحالة فاندesh
من الأمر وسألني علي الفور فلم يكن هناك تلفاز و لا
أتكلم بالهاتف : " ما الأمر مراد " .

فقصصت عليه له أنني لوهلة تصورت أن الأبراج
تتحدث لبعضها عن طريق التحكم باللمبات المثبتة أعلاها

بأسلوب شفرة موريس لكن طبعا الشفرة مجهولة و أخذت أضحك من خيالي الواسع فما رأيته في القاهرة أظنني أراه يتكرر مرة أخرى في محافظة مطروح وبطبيعة الحال الرؤية هنا أوضح بسبب الاتساع و تحسن الأجواء و في نفس التوقيت في الواحدة صباحا اشعر بهذه الحركة الغريبة ثم قمت تاركا حميد يفرك في عينيه ثم سحب مقعدا و جلس بجواري محدقا بالفضاء محاولا تركيز نظره علي حركة عدد مرات إضاءة اللمبات و ذهبت لأنام فقد وجدتها فرصة طيبة لأرتاح من صوت شخير المستمر و أنال قسطا من الراحة قبل لقائي مع ليل .

مع أذان الفجر قمت لأصلي ففوجئت بحميد لا يزال يجلس محمقا في الفراغ و يبدو عليه التعب و عيناه مكدودتان من السهر و التفكير و لما سألته ما الأمر رد علي بعدها بلحظات بشكل مقتضب و قال ما معناه انه منهك و يريد أن ينام و يرتاح و بعدها نتناقش ثم قام من مكانه إلى

فراشه و طبعا لعلمي بطبعه فلم أرد أن أضايقه بشيء و تركته لحاله و كعاداته حين يستيقظ فإنه لن يكف عن الكلام لكن يبدو أن الأمر أثار فضوله بشكل غير عاد .

حين أفاق حميد من نومته الطويلة كنت أنا استعد من أجل لقاء ليل و كان استعداد حافلا فقد احتجت لقرب الساعة لأقرر ماذا سوف أرتدي في أول لقاء لأن هذا يعطي انطبعا معينا عن الإنسان .

أخذ حميد ينظر لي و هو بين النوم و الاستيقاظ لم يكن بعد متنبها و سألني عن سر هذه الأناقة و إلى أين أنا ذاهب فأجبتة باقتضاب لأنني كنت في عجالة من أمري و قلت له و لماذا نحن أتينا إلى هنا بالأساس و كأنه تذكر فجأة أنني سأخرج لمقابلة ليل كان يبدو بحالة غير طبيعية من تشتت الذهن و أرجعت الأمر إلى كونه لم يعتد علي السهر لفترات طويلة ولأن ذهنه أكيد انشغل بالنظر إلى لمبات أبراج التقوية .

خرجت من باب الفندق تتنازعني دوامة من
الأحاسيس ما بين إقبال و إدبار و أسئلة كثيرة دارت بعقلي
عن صحة ما أفعله فقد شعرت بالمراهقة وقتها و ربما هذا
تصرف لا يليق بي لكن كانت هناك لذة غير عادية و فرحة
لا أعرف ما سرها .

هل الأمر يستحق كل هذا التفكير . . . عادت
الخواطر مرة إلى نفسي شعرت بمشاعر المراهقين الصغار
حين يخشي أن يراهما أحد من الأهل و أخذت ابتسم في
نفسي لمرور مثل تلك الخواطر الغريبة بنفسي و لم ألتفت
أنني نسيت نفسي وأن صوت ضحكي ارتفع و أخذ المارة
بالفندق يحدقون بي ثم التفت علي صوت سيارة توقفت
فجأة فقد كانت ليل من المغرمين بالسرعة ، موديل
فولكس فاجن من موديل الخنفساء الجديدة ذات الطابع
الرياضي خرجت منها فتاة في منتهى الرقة والأناقة تضع
نظارة شمسية تغطي معظم وجهها تبدو كأحد نجومات

السينما ، تبسم بشكل رقيق وهادئ ثم توقفت أمامي
قائلة : " ربنا يسعدك و لكن يا تري ما سر كل هذا
الضحك الجميل "

احمرت وجنتاي للحظة بسبب ملاحظتها و لا أعلم
كيف استطاعت ملاحظتي استدركت الأمر فورا و قلت
لها : " تفضلي . . . "

هزت رأسها موافقة لكنها استأذنتني في تغيير موقع
ركن سيارتها فضحكت في سري مرة أخرى و قلت يبدو
أنها مثل حميد لكن حقيقة شعرت بمشاعر غريبة و يبدو أن
قلبي ما زال غضا يحلم بالحب و أخذت دقات قلبي أخذت
تسارع و يبدو لي أنها لم تكن تختلف عني فقد كادت
تتعثر بخطواتها حين تابعت خطواتها .

انسحب بساط الوقت من تحت أرجلنا و لم نشعر
بأي شيء فأنا لم أتوقف تقريبا عن الكلام و كنت سعيدا
للغاية لمجرد رؤيتها و هي كانت رقيقة للغاية فسماع

صوت شخص في الهاتف شيء و رؤيته و معاينته بعينيك
و الحديث معه شيء مختلف تماما ، فأنا لم أفق من هذه
الحالة إلا علي صوت هاتفها يرن فاستأذنتني في الرد علي
الهاتف لم يكن سوى أحد إخوتها الصغار الذي طالت
عليهم غيبتها عنهم و هم لم يعتادوا ذلك لم تكذ تنهي
مكالمتها إلا و وجدت حميد يتصل بي لم أرد الرد في البداية
و لكنني وجدته يلح في طلبي فاضطرت للرد عليه بعدما
طلبت مني أن أرد عليه .

ظهر أخيرا الفتى متأنقا هو الآخر و كان يشير لي
من الطرف الآخر لصالة الاستقبال الخاصة بالفندق كان
يجلس بعيدا و يراني معها و لم يرد أن يقطع اللقاء
الأسطوري علي قوله و لكن يبدو أنه مل من الجلوس
وحده فجاء ليلقي التحية و بالطبع لا مانع من شيء من
أفعاله التي تثير جنوني و الآن ظهر لأن فضوله غلبه و أراد
أن يري تلك التي شغلت بالي و شعرت بشيء من الحرج

لحظتها ثم سارعت بتقديم صديقي حميد و انه هو من أتى بي إلى هنا لعدم تماثلي للشفاء بشكل كامل ، شعرت أنها بدأت تتململ في جلستها و لم تكد تمضي بضع لحظات إلا ورن هاتفها مرة أخرى ، كانوا أخوتها مرة أخرى يستعجلونها فاستأذنت لكن بدا لي في حقيقة الأمر أنها تخرجت من الظهور المفاجئ حميد فلم يكن من اللطيف أبدا مجيئه بدون أي مقدمات و هو يرسم علي وجهه هذه النظرة الطفولية البريئة و كأنه لم يفعل شيئا .

قمت بتوصيلها مع وعد بقاء آخر لكن لم نحدد الزمان أو المكان و أخبرتها بمدة مكوثي بموسي مطروح حتى لا تتأخر علي بالرد و ظلت عيناى معلقتان تودعانها و هي خارجة من بوابة الفندق حتى حانت منها التفاته مفاجئة و أشارت لي بيدها برقة بالغة ثم اختفت من أمام ناظري و كأنها طيف رقيق زارني في منامي ثم سرعان ما انصرف تاركا ورائه سحابة من الرقة و الخيال و منذ أن

خرجت من باب الفندق و ظل عقلي يردد أغنية محمد عبد الوهاب " كل ده كان ليه . . . لما شفت عينيه " لا أدري ما السر لماذا تذكرت هذه الأغنية القديمة وقتها لربما لأنني قلبي يدق فعلا و يتعلق بها ، أحقا قد يكون حبا لكنني لن أنكر أبدا فأنا منذ أن نظرت في عينيها شعرت بسحر عجيب وسهم الحب يخترق قلبي وملأ نفسي الشعور بأنها أصبحت قدرتي ؟!

كالعادة أخذ حميد ينظر إلى نظراته ذات مغزى المستفزة التي افهمها و يشير بحركات يديه كمن يعزف لحنا رومانسيا وأخذ يضحك بطريقته المعهودة ليخرجني عن شعوري و أخذ يغني لي أغنية " لما بدا يتثنى " و أنا استمررت في ضربه ولكزه عدة مرات في كتفه من شدة غيظي منه لأنه دائم الاستفزاز لي و بعدها صحبته من يده إلى مطعم الفندق لكي نتناول وجبة الغذاء لأن عصافير معدته كانت تتشفع ، وعاد مرة أخرى لحالة الهدوء

الغامضة التي حلت عليه منذ أن أتينا إلى هنا وبدأ في تناول وجبته بهدوء وروية علي غير العادة فهو سريع دائما في كل شيء و دائما تجد نمط حياته سريع لا يثبت علي حال أبدا لكنه هذه المرة أخذ يحكي لي عن سهرة أمس التي كانت مستغربة عليه و بدأ يحكي حتى أنني أنا نفسي انتبهت للحكاية و أن الأمر ليس مجرد شك و هاجس سخيـف مر برأسي وحدي و أنا من يتوهم الأمر فيها هو صديق عمري أيضا يؤكد لي شعرت لحظتها بانقباضه في قلبي شديدة و أحسست و كأن قبضة حديدية أمسكت قلبي و أمعائي و اعتصرتهمما بقوة .

عندما يأتيني هذا الشعور أعلم وقتها أن أمرا سيئا سوف يحدث و أنا دائما ما اصدق حدسي تحديدا منذ هذا التاريخ استطيع أن أقول أن نمط حياتي كله بدأ يدخل في دوامة التغير تدريجيا و لم استطع إيقاف هذا الإيقاع السريع الذي ألهب حياتي فما عدت حتى قادرا أن أتوقف لبضع

لحظات من أجل التقاط أنفاسي فلم يكن لي أدنى إرادة لي
فقد اختارني القدر و جرت بي المقادير .

هنا تبادر لذهنى سؤال محير فقلت لحמיד : ما الذى
جعلك تهتم بمجرد هاجس مر بـخيالى ، ما الذى دفعك إلى
تصديقي بهذا الشكل أمس و تهتم بقوة "

فرد علي بطريقة هادئة و آلية جدا و قال لي : "
الإجابة عندك أنت ! "

ازدادت حيرتي أكثر و لكنه لم يتركني للمزيد من
الحيرة و قال لي أنه ليس من هواة القراءة و التثقيف مثلي
لذلك تجده دائما ما يهتم بالأخبار الخفيفة و خصوصا
الحوادث و قد بدأت مسألة حوادث الأبراج تصبح ملفتة و
خصوصا الفترة الأخيرة تعطل مفاجئ و قال لي أن نفسي
ذهبت لأكثر من مهمة و سمعنا عن أكثر من حادث سقوط
أحد الفنيين بسبب اختلال توازنه فقلت له علي الفور :

"إذا فالإجابة في أبراج التقوية لكن يا تري ما الذي ورائها"

فرد علي حميد علي الفور و قال لي أنت المهندس المسئول عن الشبكات و ليس أنا و أنت انسب شخص للإجابة علي هذا السؤال ، فكل هذه الأسئلة لمن تكن إجابتها بالسهولة و لا اليسيرة وهي في نفس الوقت محتاجة إلى إجابة شافية و في أسرع وقت ممكن فلم يكن الأمر عاديا أو بسيطا نحن أصبحنا نتكلم عن مسألة تتعلق بتهديد أمن الوطن ، و قد تعلمنا في الخدمة أن علينا التصرف ثم بعدها التأكد .

الفصل السادس

يبدو أن إجابة سؤال مثل السؤال الذي أطلقه حميد سوف تتطلب خلال الفترة القادمة المزيد من التحري و الدقة لتأكيد المعلومة أو نفيها و في كلا الحالتين لن يرتاح بالي إلى أن أصل حل و خصوصا لأنني أنا و حميد كنا في حالة من الفضول الرهيب لاستكشاف الأمر ولكن كيف السبيل لهذا . . لابد و أن أعود إلى أحد أبراج التقوية و حالتي الصحية حاليا لا تسمح بهذا الأمر فأننا لم أتناهل للشفاء تماما و قدمي لا تزال تؤلمني مع أي إجهاد زائد .

لكن هل أنا حضرت لكي أقضي أجازة و لتهدأ أعصابي . . . أم انه هو قدر بعض الناس مع التعب و جلب المتاعب فما أكثر متاعبي التي يرجع تاريخها لما قبل أيام فترة الخدمة الوطنية كضابط احتياط و هاهي المتاعب

عادت لتلاحقني مرة أخرى بعدما ظننت أنها نسيتني لفترة من الوقت ، لكن أن هناك شيء ما بي يجذبها نحوي .

قطع حميد كعادته علي تأملاتي و قال لي : "

السؤال هو هل كل الأبراج لكل شبكات الاتصالات يبدو أنها تعطي مثل تلك الإشارات أم أنها شركة بعينها ؟ "

فلو تأكدنا من هذه النقطة فهذا سوف يضيق نطاق البحث بشكل أكبر و نستطيع أن نصل إلى خيط حقيقي لو أن كل فروضنا و تخميناتنا صحيحة هذا إن كان لها أساسا من الصحة بالأساس !

كان علينا الصعود إلى أحد أبراج التقوية لكن الأمر لن يكون عشوائيا و لكن متي يمكننا الصعود فلابد أن هذه الأبراج هناك من يتواجد بقربها وذلك لتحاشي أي خطأ و من الطبيعي أنني سوف أحتاج إلى الصعود بدون أن ألفت الأنظار إلى وأنا في مثل حالتي تلك كان الأمر يبدو صعبا

جدا و بات علي تكليف حميد بهذا الأمر لكنني في البداية لا بد أن أشرح له فكرتي حول ما ستقوم به الأبراج .

كل برج تقوية للشبكة يتكون من عدة مكونات و هي : البرج و الهوائي و هو الجزء المسئول عن إرسال الإشارة المراد إرسالها أو استقبالها و جهاز موجات " ميكرويف " حيث يقوم الميكروويف بإنتاج موجات قصيرة جدا لها مدي بعيد جدا ، و " الشيلتر " و هو مكان يتم وضع فيه الأجهزة الخاصة ببرج التقوية وتوضع فيه مبردات لتخفيف الحرارة الناتجة .

ما لن يأتي في بال الجميع هو أن تقوم هذه الشبكة باستغلال شبكة التليفون المحمول لتحميل حزمة من الموجات المشفرة المخفية داخل موجات المحمول عبر إرسالها و إعادة استقبالها وغالبا سوف يصعب رصدها أو محاولة قطعها لأنها سوف تكون مخفية عبر الحزم الموجية المرسلة والمستقبلية عبر الهواتف المحمولة لكن لن يكون

قطعها مستحيلا و إن حدث هذا فبال تأكيد فهي مشفرة و بالتأكيد أنه حوادث التعطلات في أبراج شبكة التقوية الفترة الماضية كانت بسبب أنهم يقومون بتركيب هذه الأجهزة أو القيام بصيانة لها لكن مثل هذا الأمر يستلزم أن يكون الجاسوس القائم بهذه المهمة علي درجة عالية جدا من المهنية و علي دراية كافية بشبكات التقوية و كيفية عملها لكن تكلفة جهاز كهذا تتجاوز الملايين و هل سيتم تركيبه في كافة الأبراج أم في أبراج معينة بعينها لإرسال مثل هذه الرسائل و هل هو بجميع المحافظات أم أنه قدرتي الغير عادية علي اجتذاب المتاعب معي هي التي قادتنا إلى هذا ؟!

علي الفور قائلا : " مما يعني أنه يجب أن يكون مهندس شبكات تقوية "

" ربما . . . أو قد يكون تقنيا و تعلم الأمر علي يد محترفين و هذا الأمر يعني أنهم احتاجوا وقتا كبيرا لإنشاء

هذه الشبكة في بلادنا لكي يتمكنوا من تعليم عملائهم ،
لكن إرسال الشيفرة كيف يتم ؟

هل هو من خلال أجهزة محمول مخصوصة يتم
إدخالها عبر مصر أم أن انه يتم الاستقبال لها عبر أجهزة
هواتف عادية مثل التي نحملها أم أنه تم إجراء تعديل
هندسي معين عليها و هي مسألة شديدة التعقيد و يصعب
إجرائها في مصر ؟ ! "

فقال لي حميد : " يبدو أن الأمر أصعب مما كنا
نظن . . . أو أنها مجرد هلوسات و حدسك هذه المرة لم
يصيب "

لحظة سكون تخيم علينا ثم عدت و قلت له لكن
يبقى السؤال الأخطر يا حميد يا صديقي فقطب حميد جبينه
و قال لي : " و ما هو "

قلت له : " إن كنت أنوي أن أتجسس و استغل شبكة المحمول في هذا ما الداعي أن ألفت النظر عبر الومضات الصادرة عن البرج ؟!!! "

ثم . . . إن جميع الشبكات تخضع لأشراف الجهاز القومي للاتصالات الذي يشرف علي كل الشبكات و هناك العديد من الأجهزة الأمنية داخل البلاد التي تمتلك الكثير من الكفاءات في مجال الاتصالات و الموارد إلى س من السهل عليهم ملاحظة الأمر الذي لاحظناه نحن و ربط الأمور ببعضها البعض ؟!!

حاولنا تنفيذ جميع الفرضيات الممكنة لنظرية التجسس باستخدام أبراج التقوية الخاصة بالهواتف المحمولة لكننا لم نصل لشيء سوي أن حدسنا الشخصي وصل و توقف عند الأبراج هذه الأبراج بها سر ما لا نقدر علي كشفه ، لكنني متأكد أنه كل هذه التعطلات الأخيرة في أبراج الشبكات لم تكن أبدا محض صدفة و لا الحوادث

التي جرت بعدها و قيل أنها بسبب تعاطي بعض التقنيين
للمخدرات و هي التي تؤثر علي توازنهم و هم علي
ارتفاعات بعيدة ثم كيف أكذب عيني لقد كانت الأبراج
تتحدث .

مما نراه الآن أن الفرض الوحيد الممكن أمام أعيننا
هو استغلال الهوائيات و أجهزة الإرسال والاستقبال
الخاصة بشبكات المحمول لاستخدامها في التجسس عبر
إرسال الرسائل لأن إمكانية قطع محادثات المحمول و
التصنت إليها تبدو مهمة شبه مستحيلة بسبب خطورة
الأمر مع وجود رقابة أمنية مشددة و ارتفاع التكلفة بشكل
رهيب .

لكن كيف السبيل إلى كشف الغموض الناتج عن
هذه المسألة . . . وكيف نقدر علي أن نصل إلى هذا البرج
من دون أن نلفت الأنظار ، فأنا لن يغمض لي جفن ما
دمت أري أن الوطن في خطر و لن أتحمل قضاء إجازة و أنا

أحس انه هناك ما يهدد بلادي ولن أصبر في نفس الوقت
أن أعود من الأجازة لكي أتحقق من مثل هذا الأمر فلعل
لحظة تأخر واحدة تساوي عمر الوطن ، أخذ عقلي
بالدوران في ساقية لا تنتهي من الأفكار و خرجت أفكار
بصوت مرتفع حتى رد علي حميد بمنتهي الهدوء و الثقة و
قال لي ما كل هذا يا صديقي و ربما تكون هذه الأفكار
مجرد تخیلات محضة و تكون أبراج التقوية بريئة من كلامنا
هذا و نحن فقط استغرقنا في مشاهدة الكثير من الأفلام
الأمريكية حتى أصبحنا مرضي بحالة من التشكك في كل
شيء حولنا .

أغاظني كثيرا تعبير حميد و لكنني لم أعره اهتماما
لأنني أمشي وراء حدسي و لكن هذه أول مرة أخشي أن
يكون حدسي مصيبا فما سنصل له لن يكون أمرا ليس هينا
ولا بسيطا فهذه شبكة تجسس علي مستوي عال جدا من
التدريب و المهنية و لابد أن أفرادها من أصحاب النفوذ و

المال حتى تفكر في استغلال أبراج الاتصالات بهذه الجراءة دون أن تأبه بأن يسقط أحد رسائلها المشفرة في يد أحد الأجهزة الأمنية و هم يعلمون مدي قوة القبضة الأمنية و عنفها عندنا فلا بد أنها تعتمد في تمويلها علي شخصيات بارزة تحركها و الأهم من كل هذا أنهم أفراد مدربين و علي درجة عالية من التثقيف يسمح لهم بالتعامل مع هذا الكم من التكنولوجيا المعقدة بمنتهى إلى سر و السهولة دون أدني خطأ قد يحدث لكن دوما لا توجد جريمة كاملة و أي شيء به عنصر بشري يتلازم معه خطأ و إن بدا صغيرا فقد يكون مدمرا .

في غمار كل هذا نسيت موعدي مع ليل اليوم عصرا و علي أن استعد لم أكن بعد أخذت حماما و لا اخترت ما سوف أرتديه ، فالمرّة الأولى هي من أتت إلى في صالة الاستقبال بالفندق لأنني قدمي كانت تؤلمني لكنني

هذه المرة أصريت علي أن نخرج معا و لم أكن أعلم ما
ينتظرني في مرسى مطروح .

تأنقت برغم عدم ارتدائي ملابس رسمية لكنني
ارتديت أفضل ما عندي ليس لشيء سوى أنني ذاهب
لمقابلة ليل ذلك الحلم الجميل الذي لطالما انتظرته عمري
كله و لكن الآن صار كل همي هو الوصول إلى هؤلاء
المخربين الذين يخططون لتقويض أمن بلادى و يتمنون لنا
الخراب .

أجلس أنا مع ليل و هي تتحدث أخيرا عن نفسها
معي وجها لوجه و عن حياتها لكن عقلي كان يسبح في
مكان آخر كان عقلي مع هذه الأبراج و قد تركت حميد في
أعلي سطح الفندق لكي يدرس الأمر و قد شرحت له و
قلت له أبحث عن أي جهاز يبدو غير مألوف عما شاهدت
صوره . . فقد يكون هذا هو الأمل المنشود فلا بد أن هذا

الضباع الرابضة خلف حدود بلادنا الآمنة لن يهدأ لها بال
أبدا طالما بلادنا تحيا .

لا أعرف هل كنت سخيفا أم مرحا فمن عادتي
حين أستغرق في أمر ما أنصرف بكل ذهني وحواسي عما
حولي و هأنا الآن مشئت بين أمرين البقاء مع حلمي
الجميل و بين حدسي الهاجسي الذي لا أدري هذه المرة إن
كان صحيحا أم هو محض خيال .

يبدو أن ليل لاحظت توتري و اندهشت له برغم
كوني شخصية هادئة و نظراتي دوما إلى الأعلى و بصري
المتعلق بأبراج التقوية الموجودة علي أسطح العمارات و
كان أمرا غريبا حتى ظنت أنني أعاني خطبا ما و اكتفيت
بالنفي و أكملت معها كلامي و عدت إلى مرحي السابق و
تناسيت الأمر مؤقتا حتى لا أضايقها .

اللطيف في الأمر أنني فوجئت بأن ليل عندها فكرة
لا بأس بها عن مجالي و أنها مثقفة جدا بمجال الحواسب

الآلية رغم أن كل دراستها كانت حول الفلسفة و التاريخ
إلا أنها من المهتمين بكل ما وصلت إليه التكنولوجيا
الحديثة و لما وجدت أن عيناى لم تتوقفا عن النظر إلى أبراج
التقوية ظنت أنني ربما أفكر في عملي الذي ابتعدت عنه
لفترة بالنسبة لي طويلة جدا و أنا لم أعتاد علي كل هذه
المدة فأخذت تحدثني عما تعرفه عن أبراج التقوية و
شبكات المحمول و كيفية عمل المحمول و الجيل الأول من
الشبكات و الجيل الثاني أو الرقمي ثم الجيل الثالث من
شبكات المحمول و أنه ظهر في عام ٢٠٠٢ بالبداية كانت
في دولة اليابان أولا ثم انتقلت هذه التقنية إلى الولايات
المتحدة و أوروبا .

علمت منها أنها من خلال عمل أبيها أيضا في مجال
هندسة الاتصالات و مقابلة العديد من الناس فهذا سمح
لها بتكوين فكرة طيبة عن هذا المجال فقد كانت تتحرج
عندما يتحدثون في شيء و هي تكون المضيغة في منزل أبيها

و لا تفهم ما يقولونه فبدأت تهتم بهذا المجال و قامت بتنزيل بعض الكتب التي تساعدنا في فك طلاسم هذا المجال و خاصة أنها لديها و لع بالتكنولوجيا والكهرباء .

زاد إعجابي بها أكثر و أكثر فما أجمل أن تكون الفتاة مثقفة و واعية و قادرة علي استيعاب الموضوعات المعقدة و تذكرت حالي أنا و خطيبتي السابقة فلم يكن لديها المقدرة علي تفهم طبيعة عملي أو مدي خطورته و أهميته و لا كانت تحب أحاديث السياسة فكل ما كان يشغلها هو تكوين بيت و أسرة و كفى .

لما وجدت أن عقلي سوف يبدأ بالاجترار من الذكريات القديمة الحزينة و يقارن بين الاثنين كانت هذه إشارة لي بأنه الوقت قد حان لأستعد للرحيل وأوصل ليل إلى منزلها حتى أطمئن على سلامة وصولها ، رغم أنني قمت من معها و أنا في أشد الضيق بسبب أنني كنت أتمني أن تطول الجلسة أكثر و أن يكون ذهني منتبها لها أكثر لكن

مسألة أبراج التقوية تلك شغلتنى عما يدور حولي ،
لكنني صار عندي شبه يقين داخلي بأن ليل هي الحلم
الذي انتظرته حياتي كلها .

بعدها أوقفت سيارة أجرة لتوصيل ليل إلى منزلها
الذي يبعد عن مركز مطروح فأوصلتها ، ثم علي الفور
اتصلت بحميد لأنظر ماذا فعل هذا الفتى بعدما صعد إلى
سطح الفندق حيث كان هناك برج للتقوية ولأنه برج
التقوية الوحيد الذي لن يتشكك أحد من صعود أحد
النزلاء لسطح الفندق أو ربما لن يكون ملحوظا بشكل
كاف .

لكن حميد لم يهتم بأن يتصل بي حتى لأطمئن عليه
و قد زاد قلقي أن يكون قد ظهر أحد أفراد هذه الشبكة و
تعرض لحميد بسوء و أنا أدري الناس بحميد فهو في هذه
الأوقات سوف يكون متحفزا و عنيفا و قد يتسبب في
مشكلة و نحن لا ندري حتى الآن إن كان الأمر محض شك

أم أنها حقيقة و واقع لا يحتمل التأويل فإن كانت حقيقة
فنحن أيضا نحتاج إلى السرية التامة للإمساك بكافة الخيوط
صاح حميد بي في الهاتف و قال لي : " و أخيرا
وجدتك "

اندهشت لصوته الذي يملؤه مرح زائف و لم أفهم
ما السر في هذا و رددت عليه بعصبية بالغة و قلت له : "
لماذا لم تتصل "

قال لي : " لم أشاء أن أزعجك يا مراد "
فقلت في غيظ شديد : " و ما الأخبار . . . هل
هناك من جديد أو أي أمر غير طبيعي ، فأكد بأنه كافة
الأمر علي ما يرام ، بخلاف أنها شاهد نفس الومضات
الغريبة التي سبق أن لاحظناها !!!

الفصل السابع

ندور ثم ندور في حلقات مفرغة لا نصل إلى شيء
نفس النقطة التي بدأنا منها نرجع لها و السر لا نقدر علي
كشفه . . . الأبراج هي اللغز وهي مربوط الفرس لكنني لا
أدري ماذا بها و حدسي ينبئني أنها هي أول خيط في حل
اللغز لكن كيف يكون السبيل لهذا ؟
لم يكن هناك بُد من ذهابي إلى أحد أبراج التقوية
بنفسي و الصعود إلى أعلاها حتى لو كلفني هذا قدمي
لأتأكد من صدق حدسي حول هذه الأبراج فأنا دوما ما
أتبع حدسي في مثل تلك الأمور و ربما في معظم أموري .
بعدها أوصلت ليل في الليلة الماضية عدت إلى
الفندق مرهقا أو لربما هو الشعور بالضيق من عدم توصل
حميد إلى شيء أصابني بشيء من الضيق فنمت و لم أشعر
بأي شيء لكنني رأيت مناما غريبا فقد وجدت نفسي في

حجرة مظلمة ضيقة حرجة مغلق علي بابها أجلس متكوراً
على نفسي و أحس بحزن ثقیل في قلبي ثم بعدها انفتح
الباب و جاء شخص بهي الطلعة جميل الملبس ابتسم في
وجهي فامتلاً المكان نورا و أخذت الضيق ينفرج تدريجياً و
المكان يتسع و شعرت بالفسحة ، انتهى المنام و صحت
علي صوت أذان الفجر فقمّت لأتوضأ و أصلي لكن المنام
شغلني كثيراً و لكن سرعان ما عاد ذهني إلى ما كان عليه
من البحث عن الحقيقة .

لم يكن ذهاب حميد الدين في أول مرة مجدداً كما
كنت أظن كان الأمر باحتياج لي على أساس أنني أنا
المتخصص في مثل تلك الأمور لكن قبل كل هذا كان علي
اتخاذ بعض الاحتياطات اللازمة فقد قمت أنا و حميد
برصد بضعة أبراج تومض أنوارها بشكل منتظم و ثابت و
كانت هي العينة التي سوف ابدأ بفحصها للتأكد من صحة
شكوكي وفكرتي التي بنيتها على أساس أن هذه الشبكة

الحاسوسية تستخدم أبراج التقوية في بث إشاراتها و
استقبالاتها دون أن يدري أحد .

حين وجدت نفسي قد قمت مبكرا للصلاة وجدت
أن الفرصة مهيئة ومناسبة للصعود إلى سطح الفندق و
صادف أنني وجدت أحد العاملين فطلبت منه أن يفتح لي
الباب المؤدي للسطح في البداية رفض و قال لي انه الأمر
ممنوع و بعدما استطعت إقناعه بأنني أريد ممارسة بعض
الرياضة و التعرض لشمس الشروق و قمت بإعطائه شيئاً
من المال ففرح به و قام بفتح الباب المؤدي إلى السطح و
طلب مني أن أقوم بإغلاقه بعدما انتهى .

البرج الموجود اعلي سطح الفندق هو أول شيء
انتويت فحصه بعدما فشل حميد في ما طلبته منه ، كنا
نشاهد هذا البرج من علي البحر ليلا يرسل تلك
الومضات الغريبة لكن كان علينا أن نقوم بعمل بحث وكان

هذا البرج عينة من ضمن عدة أبراج من التي قمنا برصدها
تومض ليلا في سماء مطروح .

حدسي الداخلي القوي هو المحرك الأساسي لي
في هذه القضية و هو الذي يدفعني بقوة نحو كل هذا الجنون
فقد تسلقت البرج الحديدي برغم حالتي الصحية التي لا
تسمح لي بأي مجهود مرهق لقدمي لكن كان علي أن أتأكد
من التوصيلات الخاصة " بالهوائي " وهو الجزء المعدني
المسئول عن إرسال و استقبال الإشارة مثل أطباق
الاستقبال المنزلية " الدش " التي نستقبل من خلالها إرسال
القنوات ثم قمت باقتحام " الشيلتر " دون اعتبار لأي
عواقب أو أي مسألة قانونية قد أتعرض لها لو دخل أي
شخص فقد يظن أنني اسرق أحد الأجهزة الموجودة
بداخله نظرا لارتفاع سعرها و خصوصا حين يعرف يتم
التعرف علي شخصيتي و طبيعة عملي فمثل هذه الأجهزة
تكون غالية السعر و حساسة و لذلك يتم حفظ الأجهزة

المسئولة عن تشغيل برج التقوية داخل كارفان يسمى " الشيلتر " مصنوع من ألواح معدنية مكونة من طبقتين معدنيتين يفصل بينهما طبقة عازلة من الصوف الحراري لكي تحافظ علي برودة الحرارة داخل هذا الكارفان الصغير لضمان عمل الأجهزة كلها بكفاءة و فاعلية .

لن يكون الأمر سهلا أو بسيطا للتعرف علي الجهاز الذي سوف يتم توصيله بالأجزاء الخاص بالبرج التي هي مسئولة عن استقبال و إرسال الإشارة التي تأتي من الهاتف النقال وسوف يكون علي أن أقوم بفصل المولد المسئول عن توليد الكهرباء للبرج ثم بعدها فحص الأجهزة و التوصيلات الخاصة ثم إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها حتى لا يشعر أحد بما جري لكنني و بكل أسف لم أجد شيئا ذا بال يوصلني إلى أي شيء يُذكر .

النتيجة كانت سلبية و محبطة للغاية لعلی أنا من تصور أن الأمر سوف يكون سهلا و بسيطا و لن يستغرق

اكتشافه سوي بضع دقائق لأتوصل إلى خيط أو أي شيء
يؤكد لي صحة نظرتي للأمور و يساعدني في سبر أغوار
هذه القضية و ما هو سر الأبراج الوامضة علي خلفية
خدمتي العسكرية السابقة لكن ما جري كان عكس
توقعاتي تماما .

نزلت من السطح و قد استسلمت تماما لليقين
بالواقع و أنه المسألة كلها كانت محض تخیلاتي أنا و حميد و
يبدو أنه كلانا كان يعاني من الملل الشديد ليس أكثر من
هذا ، لما رأي حميد وجهي متكدرا فهم الحكاية و لم ينطق
بأي كلمة .

نظر إلى حميد ففهمني ثم فجأة صرخت و قلت :
" اللعنة يبدو أنني قد نسيت أن أوصل اللمبة الوامضة "
فاغتاظ حميد من تصرفي و قال لي و ما سر كل هذه
الجلبة يا أخي لما يأتي ميعاد الصيانة الدورية سوف يتم اتخاذ
اللازم فسكت علي مضض لكن قلبي لم ينبئن بحير منذ

أن رأيت هذا المنام الغريب و أنا من النوع الذي ينام و نادرا
ما يتذكر أي شيء من أحلامه لكنني في المرات القليلة التي
تذكرت فيها مناما غالبا ما تحقق لكن يا تري ما معني هذا
المنام ؟!

ذهبت أنا و حميد للبحر و استمتعنا بالسباحة مع
أول النهار و كان الجو منعشا صراحة و حادثت ليل
تليفونيا و استمتعت بالكلام معها جدا ، صراحة لقد
اكتشفت أن قلبي عاد ليدق من جديد مع ليل رغم أنها
لون مختلف عن لوني فهي عاشت في الخارج و أنا طوال
حياتي أعيش بمصر هي متحررة ربما بعض الشيء بدون
تبذل لكنني أنا كنت من النوع الشديد التمسك بالتقاليد
حتى خروجي عن حدود التقاليد كان بسيطا لا يتعد
كثيرا لكن أن الألوان أن أقول أنني قد عدت من جديد و
العود أحمد هذه المرة ، حتى حين أغلقت المكالمة معها بدا
علي وجهي الارتياح و ابتسم حميد برقة شديدة لي ثم

ضربني علي رأسي بنوع من الود و الصداقة فما بيننا ود كبير جدا يسمح بتقبل العديد من الأمور التي لا تكون سوي بين الأصدقاء الحميمين و التي قد لا اقبل ابسطها من أناس آخرين ، كلانا يفهم الآخر و قد فهم من المكاملة ما قد خطر ببالي و كان في نفسي دون أن أنطق به فالعشرة الطويلة لها حكم فهو بدا عليه الفرحه لعودتي مرة أخرى لاستعادة حياتي مرة أخرى و أنني استطعت التخلص من شرقة الأحزان التي كانت تخنقني ويبدو أنني تلك المرة قد أصبت الاختيار لكن علي أن أتروي تماما فلن أسرع مثل المرة السابقة و أتألم مرة أخرى .

بعد أن انهينا السباحة الصباحية و اغتسلنا و تناولنا وجبة الفطور في الفندق و استرخينا و قمت بالإعداد و التهيؤ للمساء و تسامرت أنا و حميد و بدأنا بالاستعداد النفسي للعودة إلى أتون القاهرة و القلق و الضغوطات

العصبية و الزحام بعدما كنا في جنة الله في أرضه هنا حيث
الحياة بكر و هادئة و رقيقة .

كنت انتظر لحظات المغيب بفارغ الصبر لكي تمر
اللحظات و يأتي ميعادي مع ليل أخيرا لأنني كنت أريد أن
أتأكد من حقيقة مشاعرها تجاهي و افهم بضعة أمور لكن
علي أن اعترف أن كل لقاء لي مع ليل كان لقاء أسطوريا
فهي في كل مرة تأتي فيها لها طلة رقيقة أحس معها أنها
حين تأتي يمتلئ المكان بعبق النسيم المحمل بأريج زهور
الحدائق ، وأنا كان لزاما علي أن أعوض لها المرة السابقة
التي ظل عقلي فيها معلقا بأمر الأبراج و سر الومضات
الخفية لكن يبدو الرياح دوما لا تأتي بما تشتهي السفن
فلا بد من شيء من المنغصات ليأتي إلى ، فما حدث لم أكن
أتصوره أن يحدث ليفسد علي هذا اللقاء الأسطوري
... . لقد ومض البرج !!!

ثم رن هاتفني قاطعا علي إمكانية للدهشة كان حميد
و لم يكن بعادته أن يتصل علي و هو يعلم موقعي ، لكن
و كأن حدسي أخبرني أن يتصل لنفس الأمر ليقول لي أن
البرج عاد ليومض مرة أخرى و قد كان فعلا لقد اتصل
ليخبرني بنفس الخبر بأن البرج يومض و أنه شاهد سيارة
الصيانة و هي ترحل عن الفندق و لما سأل العاملين
بالفندق أفادوا بأنه ليس من عادة الصيانة أن تأتي في هذا
الوقت لكن أحدا لم يعر الأمر اهتماما .

طال صمتي و انتبهت ليل إلى هذا و تأملت حالي و
بدا الضيق في وجهها و اضحا في نبرات صوتها ثم قالت لي
بلهجة حادة لقد عدت لنفس حالتك الغريبة من الصمت
المبالغ فيه و يبدو أنني تأخرت و بدا عليها التأثر و فوجئت
بها تقوم من مكانها و لم تترك لي مجالا لاستبقائها فقامت
علي الفور لألحق بها فلن أتركها تعود إلى بيتها بهذه الحالة
و كان علي أن أزيل أسباب الضيق و الحرج و في الطريق

إلى بيتها حاولت أن أدعي أي شيء لكنها لم تقتنع ، لم تكن أبدا بالساذجة أو الغراء كانت شخصية ذكية و متفتحة العقل و لما شرحت لها سر اهتمامي بالأبراج و ما الذي أفكر فيه بدا القلق في عينيها الجميلتين و كادت أن تبكي لولا أنها تماسكت فوجدت في الأمر فرصة لي لن تعوض لأتشجع و اسألها عن حقيقة مشاعرهما تجاهي لكنني لم أقدر علي التصريح و جل ما استطعت قوله لها :
" ليل . . . أنت خوفت لا داع للقلق المسالة بسيطة "

احمرت وجنتيها و تشاغلت بحقيبتها ثم ردت علي برقة بالغة بأنها عليها مراجعة بضعة أمور و الأعداد للغد لأن أبيها يدعو أشخاص مهمين في المنزل و انصرفت و هي تكاد تتعثر في خطواتها و تركت لي قلبي يدق في تسارع و الدماء تتدفق إلى وجنتاي ، سرت على الأرض لكنها لم تكن مثل كل مرة أمشي فيها فلا أشعر بأحد من البشر الذين حولي كانت روعي تهيم بعيدا مع السحاب و القمر

و النجوم يا له من شعور رائع لا يقدر علي وصفه أحدا
من البشر ، لكن كالعادة يرن هاتفني دوما ليقطع علي
تأملاتي و كأنه مسلط علي . . . و يأتيني صوت حميد
مشاكسا لي كعاداته : " روميو . . . ما الأخبار . . . سبع
أم ضبع " و يستمر في ضحكه الاستفزازي . . .

فأخبرته بقدومي ، و جلسنا نتداول في الأمر و قال
لي حميد بعفويته يبدو أننا متفقين علي أن الأبراج تحمل سرا
كبيرا لكن أنت بنفسك قمت بفحص البرج و لم تجد أي
شائبة تشوبه !!!

ثم عاد للتساؤل فقلت له يا حميد إنها اللمبات
المسئولة عن الوميض هي حل اللغز نظر نحوي حميد بدهشة
و قال لي إذا الحل كان أمام أعيننا طوال الوقت و نحن لا
نعرف هذا إنها كارثة بل مصيبة إذا كان ما توصلنا إليه هذا
حقيقيا فهي كارثة بكل المقاييس فكم من أسرار يتم
إرسالها ليلا عبر تلك الومضات الخفية .

ثم تراجع حميد في جلسته و قال لي : " يا مراد دعنا لا نستعجل الأمر لعل كل هذا مجرد تخمين و الحكاية محض صدفة نحن نحتاج إلى تأكيد . . . أقوي "

فقلت له : " تأكيد أقوي من هذا يا حميد "
فرد علي حميد علي الفور و قال لي نعم تأكيد أقوي و أنا و أنت قد قمنا قبل سابق بعمل حصر لبعض المباني السكنية التي تقع ضمن محيط الفندق و شاهدنا بها نفس الظاهرة و كل ما علينا هو أن نتحقق مما قد ساقته لنا الأقدار .

في اليوم التالي ذهبت إلى أحد العمارات السكنية و دخلت بمنتهي الثقة و أنا أحمل في يدي حقيبة ولما استوقفتني حارس العقار ليسألني فأخبرته بأنني من الشركة المسؤولة عن صيانة البرج و أخرجت له هويتي الشخصية و صعدت إلى الأعلى لأتم مهمتي لكنني هذه المرة كان يحدوني أمل كبير بأن أجد ضالتي .

الفصل الثامن

كان ترقب قدوم المساء هو اللحظة الأصعب في حياتي لأنه الدليل الوحيد علي صحة نظريتي حول فكرة الأبراج و فجأة صرخ حميد قائلاً بغیظ شديد : " اللعنة كم أكره أن تكون محقاً يا مراد " لأنه في المساء عاد نفس البرج ليومض مرة أخرى الرغم من أنني قد قمت بفصل اللبنة المستولة عن إرسال الومضات !!!

قلت في نفسي وقتها يبدو أننا أماننا مساء حافل بالمفاجآت التي لن تنتهي ، فأی شركة صيانة تلك التي تقوم بتعقب الأعطال و في مرتين متتاليتين و يتم الإصلاح بهذه الدرجة من السرعة و معلوم أنه مثل تلك اللبمات متواجدة فقط للتنبيه لوجود أبراج التقوية لشبكات الهواتف المحمولة وأن التفاعل الفوري مع عطل هذه اللبمات يكون في المباني السكنية التي تكون بالقرب من

المطارات حسب قوانين الطيران المدني الدولية و ذلك لتنبيه الطائرات القادمة التي تبدأ في الانخفاض في مستوى طيرانها استعدادا للهبوط خشية حدوث تشويش من أبراج التقوية علي الإشارة الصادرة عن الطائرات لأبراج المراقبة بالمطار . . . إذن فهي الأبراج يستخدمها الأعداء المتربصين بالبلاد فمن بإمكانه توقع مثل هذه الفكرة الجهنمية و أن هذه الأبراج يتم من خلالها إرسال رسائل شفرية لأخرين من المستحيل لنا حصرهم ربما هم في نطاق رؤية البرج لرصد الإشارات الخفية الصادرة عنه و ربما في أبعد من ذلك و نحن لن نعلم في أي اتجاه نبحت و من الصعب جدا حصر كل من قام بشراء نظارة مُعظمة ربما يستخدم جهاز تلسكوب صغير يتيح له ما هو أبعد مما نتخيل و من الصعب حصر بيانات واضحة لمثل هذه المعلومات مع ضالة مواردنا .

بدأت لي الفكرة محكمة بل هي متقنة و بالغة الدقة
و السرية و من دون أي ضجة فلن يشتبه بها أبدا و مع كل
ومضة تبوح الأبراج بسر خطير و تمرر معلومة بالغة
الخطورة مهددة أمن وطن بأكمله بفكرة جهنمية لا تخطر
في عقل الشيطان نفسه .

لكنها طريقة بدائية و محدودة بل هي بلهاء و كأننا
نشاهد فيلما من أفلام الأبيض و الأسود حول تهريب
المخدرات فليس من الممكن إرسال أسرار حربية أو أيا كان
نوع المعلومة فقط من خلال تلك الإشارات الضوئية التي
لن يمكن رصدها سوى مساءا مثلما فعلنا " جاءني صوت
حميد قاطعا على أفكارى "

كيف لم أنتبه إلى هذا؟! لقد لفت حميد نظري إلى
هذه النقطة الخطيرة و أنه لكل فكرة إنسانية عيب فكل
شيء خلق و معه سر فنائه ، لا بد من أنه هذه الطريقة
مخصصة لنقل نوع معين من المعلومات و يستخدم فيه شفرة

بسيطة لأنها لو تم حتى الإمساك بهذه المعلومات لن يتم التوصل منها إلى شيء محدد لكن المعلومة الحقيقية لا بد من أنها يتم إرسالها بطريقة أخرى حديثة لا تثير الشكوك لأنه لن يكون من الممكن أن يتم إرسال كل هذا الكم من المعلومات عبر إشارات ضوئية بطريقة إشارات موريس كأنهم يقومون بإرسال تلغراف عزاء أو تهنئة فهي تقنية محدودة للغاية في عدد الكلمات فكيف تجرى الأمور لو تضمن الأمر صوراً فوتوغرافية أو فيديو هات و لن تتوافر لها عوامل النجاح سوى في الليل حتى يمكن رصد الإشارات الضوئية فما الذي يحدث لو كان هناك حاجة ماسة لتوصيل معلومات مهمة فالمعلومة قد تفقد أهميتها إذا لم تصل في الوقت المناسب و حركة العالم لم تعد بطيئة مثل سابق فكلما زاد التقدم التكنولوجي كلما صارت حركته جنونية و الحاجة ماسة لنقل المعلومات بنفس السرعة ، أما طرح فكرة استخدام جهاز إرسال شفري

قوي الإشارة فهي شديدة الصعوبة و تمثل مخاطر عديدة في ظل إمكانية رصده بسهولة و لا أظن أن من يفكر في كل هذه الترتيبات المعقدة أن يقع ببساطة في هذه الغلطة ، إذا فلابد أن هناك جزء آخر يكمل الصورة لنصل لحل الأحجية الذي لم يتم التوصل له بعد . . .

كان الملفت في الأمر هو أنه عند رصد هذه الومضات كانت عبارة عن إشارات ضوئية بشفرة موريس أي أنه من الممكن لأي شخص يجيد شفرة موريس حلها بمتهي سهولة لكنها في الحقيقة لم تكن سوى مجرد مفتاح يساعدك في حل الشفرة لكنها ليست الحل .

فرد علي حميد : " المفتاح لحل الأحجية الأخرى التي هي الشفرة التي يتم بها نقل الأسرار و المعلومات ، إذا فالومضات هي المفتاح الذي يفتح باب غرفة الأسرار فمن ذا الذي يمكن أن يتصور أمرا كهذا "

هذه هي الحيلة حيث وضعوا المفتاح أمام كل العيون فكل من سيجد المفتاح سوف يظن أنه وصل إلى نهاية المطاف في حين أن هذه هي مجرد البداية ، فهو ليس إلا طعم لحماية أمر أكبر و هو غرفة الأسرار التي لن تفلح في الولوج إليها من دون مفتاحها المتمثل في مفتاح الشفرة و إن ظل أمامك المفتاح فلن تعرف هو مخصص لأي باب ، لأن كل شفرة يكون لها مفتاح حلها و إلا ظلت مستعصية أو سوف تتطلب منك وقت كبير جدا لحلها و عامل الوقت أمر في غاية الخطورة و علينا أن نقوم بربط الأجزاء ببعضها البعض للوصول إلى الصورة كاملة حتى أتمكن من إقناع معارفي في الأجهزة الأمنية بصحة نظرياتنا .

اتضح لي صدق حدسي بعدما قمنا برصد الرسالة و حلها كانت كالآتي : " الساعة الثالثة ، جريدة الأفق ، ثم ترددت كلمة نسر الشرق الآتي ثلاث مرات "

الوسيلة الوحيدة لتداول المعلومات عبر العالم كله هي الشبكة العنكبوتية " الانترنت " التي تربط العالم أجمع لكن هناك بضعة أمور لم أقدر على فهمها و هي أول ما لفت نظري أولها هذه الكلمة التي ترددت عدة مرات و الساعة الثالثة صباحا أم مساء لكن كيف اكتشف هذا السر و كيف أصل إلى الحقيقة الأمر يحتاج إلى الكثير من الوقت الذي أحس أنه صار ضيقا جدا فلا أحد يعلم ما هو عدد هذه الشبكة في مصر و لا المستوى الذي تمكنت من التغلغل إليه في المجتمع و لن أقدر علي الإبلاغ عن شيء أو حتى إقناع الأجهزة الأمنية دون أن أملك دليل مادي قاطع فالشكوك وحدها لن تكفى و مثل هذا النوع من القضايا لا بد و أن نوعية الأشخاص المتورطين فيه من ذوي الحشيات و لهم تأثير علي قرارات المجتمع و لن يكون الإيقاع بمثل هذا النوع من الشبكات سهلا في ظل ضالة مواردنا فأنا أعمل بشكل منفرد و أواجه مخاطرة رهيبة في

سبيل الوطن ولا يساعدني سوي صديقي العزيز حميد و لو
فشلت فسوف يكون مصيري ما بين أمرين إما الموت أو
السجن بتهمة إزعاج السلطات و ما سوف يستتبع هذا من
ضياح مستقبلتي المهني و ما سوف يقال عن أني شخص
لديه وساوس و يعاني من عقدة الاضطهاد و خلافه و
بعدها سيتم حفظ القضية علي أنها إزعاج للسلطات و
سيظل هؤلاء يعملون في الظل و الله أعلم ما الذي قد
يحدث .

لكن معني وصولهم إلى أبراج التقوية و شركات
الصيانة و استغلالها في أهدافهم أنهم يعملون علي مستوى
احترافي عالى المستوى ربما لم نشهده من قبل فنحن أمام
خطر محقق بنا و هم لن يرحمونا لو توصلنا لهم .

بقي موقع جريدة الأفق وهي جريدة معروفة و
واسعة الانتشار ، في محاولتنا لجمع الأدلة مع بعضها
لنصل إلى أول الخيط لفهم كيف تجرى الأمور لربما اهتدينا

إلى أي أمر أو أي خيط يدلنا علي الخطوة التالية التي سوف نسير فيها مثلما وصلنا إلى الأبراج و سرها .

فأنا أمامي مهمة البحث في شركات الصيانة المسؤولة عن شبكات التقوية و هي معروفة و محددة و نطاق البحث فيها مهما كان متسعا لكن هناك إمكانية لحصره و الدخول إليه دون إثارة الشكوك لأنه مجالي بطبيعة الحال و لدي هاجس يؤرقني نحو بعض الأشخاص في شركتنا أتوقع أنه من الممكن إغرائهم بالمال بسهولة لعمل أي شيء .

موقع الجريدة التي أشارت لها الرسالة الشفوية لم يشر إلى شيء ذو بال ، بحثت أنا و حميد فيها صفحة ، صفحة و خبر ، خبر دون جدوى للوصول إلى أي إشارة إلى أمر قد يثير الريبة كلها أخبار عادية تتداولها كل الصحف اليومية حتى أننا لكي نتأكد قمنا باختيار عدة أسماء لصحف أخرى مثلها ما بين واسعة الانتشار أو

محدودة و وجدنا أنها تقريبا تتشاطر نفس الأخبار و
العناوين حتى تضجرنا من كثرة البحث خلا خبر صغير
عن زيارة غير رسمية لشخصية سياسية مرموقة من دولة
من الدول المهمة و الحيوية بالشرق الأقصى إنه السيد لي
بينج و لم يتم تحديد سبب الزيارة لكنها كانت الجريدة
الوحيدة التي أشارت لهذا الخبر . . . ولا بد إذا أن هذا هو
المقصود من كلمة " نسر الشرق الآتي " فقد قيل في الخبر
أنه سوف يصل إلى مطار الإسكندرية في الثالثة صباحا
بتوقيت مصر ثم بعدها سيتوجه إلى القاهرة ، أي أنه معني
ذلك أننا ما زلنا نملك الوقت الكافي للوصول إلى القاهرة
لمتابعة تحركاته .

ظل سؤال واحد يتردد في نفسي هل من الممكن أن
يكون الوصول إلى الإجابة بهذه السهولة رسالة شفرية من
كلمات متقطعة تقودني إلى خبر في جريدة الكترونية

مشهورة لقد بدا الأمر أشبه بلعبة الكلمات المتقاطعة لكن هل الوصول إلى الحل يبدو بمثل هذه السهولة !

ربما كان الطريق السهل هو الطريق الوحيد الذي لم يجرب أحد أن يسلكه لكن تبقى التجربة خير دليل و سوف نعلم أكثر أو ربما هو طريق يؤدي إلى طريق أخرى ، لكن هذه الرسالة فتحت أمامي أكثر من طريق للبحث فيه فهذه الجريدة لها توزيع واسع الانتشار فما هي حاجة القارئ إلى التسجيل إلكترونيا عليها ؟ ، لكن حميد أخبرني بأنها خدمة صارت متوافرة لكي يتم موافاتك بالأخبار لحظة بلحظة من دون توقف . . . إذا فمن هنا سوف نحاول أن نبدأ بحثنا .

هذا السياسي القادم إلى بلادنا في زيارة غير رسمية؟ أين سينزل؟ و هل من الممكن متابعة تحركاته ؟ و هل خبر مجيئه إلى مصر هو مجرد مصادفة ما بين الرسالة

التي قمنا بفكها و الخبر الوارد بجريدة الأفق فهي الوحيدة
التي صرحت بهذا؟!!

غالبا هذه ستكون مهمة حميد وهو الخبير في شئون
الشرق الأقصى و دائم السفر إلى هذه البلاد أما شركات
الصيانة و الأبراج فهي طريقي ، و الضيف الزائر فلنا
صديق مشترك أنا و حميد في جهاز الشرطة من الممكن
بمكالمة هاتفية أن نعرف مكان نزوله و موعد وصوله و
بعض المعلومات التي سوف تفيدنا في بحثنا .

لقد صار أمامنا أكثر من طريق لنبحث فيه و وقت
ضئيل لنصل إلى خيط يقودنا إلى هذه الشبكة حتى يكون
من الممكن الأجهزة الأمنية فكل دقيقة تمر تعمل ضدنا
فالوقت هو العدو الأكبر لنا والشعور بالذنب لا يرحم
لأننا صرنا مسئولين عن حماية الوطن و كل دقيقة تمر بدون
التحرك هي جريمة بحق الوطن لأنه في المقابل العدو لا يكف
عن الحركة في كل اتجاه و هو يعمل ضمن خطة محكمة وقد

صار واضحا أنهم سيطروا على مواقع حساسة بـأماكن مختلفة بالدولة و لن يكون من السهل الإيقاع بهم .

بدأ إيقاع حياتي في التسارع بشكل غير عادي منذ أن دخلنا في هذه الدوامة و لم يعد أمامي وقتا لأي شيء آخر ، كنت أحلم بشيء من الحركة بدلا من ذلك الروتين اليومي القاتل لكن أن يتسارع إيقاع حياتي بهذا الشكل الجنوني . . . لم يكن أمرا متوقعا بالمرّة ، و بحركة رياضية سريعة قام حميد من مكانه لينزل إلى الاستقبال في الفندق لينهي إقامتنا و نستعد للسفر إلى القاهرة مرة أخرى و هذه المرة لن ننتظر الحافلة فكان عليه أن يتعاقد مع أحد السيارات فالوقت لا يسعفنا و أنا قمت علي الفور بأعداد الحقائق للتحرك .

في غمرة هذه الجلبة ونحن نجرى بالحقائب لم أُنْبِه أنني لم اتصل بـليل ليوم بأكمله و ها هو اليوم التالي فأصابها القلق على و جاءت إلينا إلى الفندق لتستطلع

أخباري ففوجئت أننا نسرع لاستقلال سيارة أجرة متجهة نحو القاهرة و نحن نحمل حقائبنا دون أي كلمة وداع أو وعد بقاء آخر و يبدو أن الصدمة كانت قوية عليها و لم تكن تعلم أنني لم أقصد أبدا بالمرة تجاهلها لكن حبي لوطني هو ما شغلني عنها ، فهذا الكم من الحقائق و الأدلة التي وصلنا إليها أصابني بالصدمة و شغلني عن أي شيء حتى ليل نفسها ، و عادت هي إلى بيتها محملة بخيبات الأمل الثقيلة و حزن عميق فالحب الوحيد في حياتها تركها بدون حتى كلمة وداع واحدة .

الفصل التاسع

لم تهدأ نفسي و أشعر بالتوازن و أن الارتباك و العجلة التي كنت فيها من أمري انتهت إلا حين قمنا باستقلال سيارة الأجرة متجهين إلى المطار لأخذ أول طائرة إلى القاهرة لنكسب الوقت لتتابع السيد لي بينج من اللحظة الأولى و من هنا من الممكن أن نتابع حركته بهدوء ولن يكون هناك أفضل من حميد لهذه المهمة و هو الخبير بشئون بلاد الشرق الأقصى و قد سافر إلى عدة دول هناك بحكم عمله و دراسته ، وقتها تذكرت ليل و أنني لم أخطرها برحيلي المفاجئ عن مرسى مطروح و قد تلعب بها الظنون و قد أفقدها للأبد فأخرجت هاتفني و اتصلت عليها لكنها لأول مرة لا ترد علي هاتفها ، فأعدت الاتصال لكنها لم ترد فأعدت الكرة مرة أخرى و فوجئت بها تغلق الخط أي أنها تسمع رنين هاتفها و ترفض الرد

أوجعني ضميري بشكل رهيب و أخذ قلبي يخفق فهل
بعدها وجدت الحب أيمن أن أفقده بهذه السهولة في هذه
اللحظة كنت علي وشك أن أعود أدراجي فقط لأشرح لها
حقيقة الموقف ، كنت بين قلبي و وطني .

هي بالتأكيد غاضبة من غيابي و رحيلي المفاجئ
بدون أن أخطر لها لو حتى تليفونيا كان دوما عيبي هو أنني
حين أستغرق في عمل ما أنسي كل ما حولي لكن عاطفتها
غلبت كبريائها و لم تمر بضع دقائق إلا و رن هاتفها
وجاءني صوتها محتقنا لكنها مهما جاهدت لتخفي عني
قلقها و حبها فهو لا يخفى على قلبي وسرعان ما تهدج
صوتها و ارتعش و خرجت كلماتها غاضبة معاتبة
جاهدت لتبدو طبيعية لكن صوت العبرات التي خنقت
صوتها فضحها فخرج صوتها مبحوحا لم أمهلها لتكمل
وطمأنتها أنني بخير و سأرجع لها سالما بأمر الله و شرحت

لها بشكل مبسط و سريع أنه قد طرأ أمر ما و أنه علي
العودة فورا و لن يتسع الوقت لأي شرح أكثر من ذلك
لأنني الآن في طريقي إلى المطار بدا لي من نبرة صوتها أنها
بدأت تتفهم حقيقة الوضع أو حاولت أن أطمئن نفسي
لكن سرعان ما انفجر الموقف مرة أخرى كانت تخاف على
و تعلم أن الباب الذي أقدمت على فتحه هو أحد أبواب
الجحيم و سوف تنقلب حياتي رأسا علي عقب بسببه فلم
يكن الأمر بمثل هذه السهولة و لن ينتهي الطريق بالإبلاغ
عن شكوكي إلى الأجهزة الأمنية ثم أرجع إلى حياتي و قد
أديت واجبي الوطني كمواطن شريف فحتى الأجهزة
الأمنية نفسها سوف تشك و تحقق و تتحري و لن يشفع لي
سجل خدمتي العسكرية ، ربما هي كانت أكثر تبصرا
بالعواقب لكن بالنسبة لي لم يكن يشغلني كل هذا الكم
من الحسابات فالأمر أبسط عندي من هذه الجلبة فلا
صوت يعلو فوق نداء الوطن حتى لو كان هذا الصوت هو

ضجيج قلبي الذي استراح لها و تعلق بها دون أي سابق إنذار ، و أخيرا استطعت أن أهدئ من روعها و وعدتها بالتواصل معها و أن الحديث بيننا لن ينقطع و سأوافيها بخطواتي . . . و بالطبع حرصا عليها لم أكن لأعطيها أي تفاصيل مهمة .

مكالمتي مع الضابط حسام شوقي صديقي الحميم أفادتني للغاية و بعد التحيات و السؤال عن الصحة و الجديد في شؤون الحياة ، داعبته و أخبرته بأني علمت من مصدر موثق فيه بأن هناك شخص هام من دول الشرق الأقصى سوف يأتي إلى المطار و لكن الصحف لم تذكر عن اسمه شيء فضحك و قال لي : " يبدو أن المكالمة هذه المرة لم تكن لله ، و ظاهر الأمر أنك يا باشمهندس تركت الهندسة و اتجهت للصحافة " و أخذنا نضحك و عدنا للثرثرة و لما أفهمته أن لي قريبة صحفية و قد علمت بالخبر

و تشك في أنه شخص معين و لعلمها بأن لي معارف كثيرة
و أصدقاء فطلبت أن أساعدها و لم يفوت حسام فرصته
في الغمز و اللمز عن كونها عروس مناسبة لي ثم حكي لي
أن القادم إلى مصر هو السيد لي بينج الملحق الثقافي السابق
لبلاده في سفارتهم بمصر العائد إلى بلاده ليتقلد منصبا أعلى
و لكنه شخصية غير عادي فهو له شبكة علاقات في بلادنا
و في الدول العربية الأخرى و يحفظ الكثير من معالم
القاهرة و يحب الأماكن الأثرية و كان بطلا قوميا لبلاده في
أيام شبابه في إحدى الرياضات القتالية بخلاف أنه حاصل
علي الدكتوراه في علم الجيولوجيا و كتب العديد من
الكتب في مجاله و عن الطاقة و بخلاف هذا له مقالات
سياسية مهمة حول علاقة دول الشرق الأقصى بدول
الشرق الأوسط و له وساطات في عدة مباحثات سرية و بدا
لحسام أنه قدومه إلى مصر ليس أمرا عاديا لأنه قادم في
إجازة لمدة حوالي أسبوعين أو ربما عشرة أيام لكن هذه المرة

بصفة شخصية كأني سائح عادى يأتي لزيارة دولة أخرى و
ليس بصفته الدبلوماسية !

بطبيعة الحال حسام قد علم كل هذا بحكم عمله
من خلال رؤسائه الذين أخبروه بأهمية هذا الوافد إلى
المطار وحدسي ينبئني أن هذا هو نسر الشرق الآتي
. . . . و أول قواعد علم المخابرات والجاسوسية تقول أن
الجاسوس الأول لدولته هو سفيرها و معني المجيء إلى
بلادنا من دون أي حراسات أو ضجة أي أنه يريد أن
يتحرك بسلاسة دون قيد أو رقيب وأظن أن السيد لي بينج
ليس شخصا عاديا قدم إلينا من أجل أنه أحب هذا البلد و
تعلق به و يريد قضاء أجازة سعيدة بل هناك أمر جلل أتى
به إلى بلادنا و ظل عقلي تائها في دوامات لا
تنتهي حتى أنني انتبهت لصوتي المرتفع أثناء
التفكير ، جريدة الأفق وقد وجدتها لكن ما هو المغزى من

كلمة الساعة الثالثة هذا ما لم أفلح في فهمه أنا و حميد و ما هي علاقتها بالأحداث الجارية الآن و هل السيد لي بينج النسر المقصود أم أن هناك شخص غيره و هذا الرجل أتى كمجرد غطاء للتمويه أحتاج إلى دليل قطعي علي صحة الأمور فمثل هذه الأمور لا تبنى على التخمينات و الفروض و ليس أمامي سوى إرسال حميد في أثره ليعلم لي أخباره و من يكون خيراً من حميد فهو أيضاً بطل في الرياضات القتالية و سافر إلى بلادهم و دول أخرى في منطقة الشرق الأقصى بحكم طبيعة عمله و عمل خاله الذي يستورد بضائع من هذه البلاد حتى أن حميد لديه فكرة طيبة عن عاداتهم و تقاليدهم و أساليب معيشتهم .

تركت حميد ليتابع حركة السيد لي بينج و عدت أنا محملاً بالحقائب إلى البيت و بدأت في الاشتراك في موقع الجريدة و لم يحدث أي شيء أو يطرأ أي تغيير فاتصلت علي حميد لاستعلم منه عن سير الأمور لكنه لم يقل لي

شيئا ذو أهمية فقط أن السيد المحترم يستقبل شخصيات مهمة في الفندق و يتحدث و يضحك و لا يرتدي ملابس رسمية بالمرّة بل هو يشعر بالراحة كأنه في بيته و هو الآن يستعد لمغادرة الفندق بصحبة أحد أصدقائه و لا أعلم إلى أين لكنني سوف أتابعه وأعّاد الاتصال بك لم يذهب بعيدا السيد بينج لقد جلس على أحد المقاهي الشعبية و نظرا لأنه يتكلم العربية بشكل متكسر بعض الشيء لكنه يفهمها فالأمور سهلة و لن يكون بحاجة إلى سائق أو مرشد له في طرق القاهرة ، عدت أنا إلى حاسوبي و فتحت موقع الجريدة لكنني لم أجد شيئا يلفت نظري أو قد يثير ريبتي مجرد أخبار و عناوين و المزيد من الأخبار ، فأخرج إلى شرفتي لأري الأبراج و هي تذيع نفس الرسالة بمعدل كل نصف ساعة ، أي أنه لم يجد جديد ثم يرجع إلى حميد و قد بدا عليه التعب الشديد و لم نتوصل لأي شيء و أنا فشلت ، و بدأ اليأس يتسلل إلى قلوبنا فقد استمرت الحال

هكذا لعدة أيام و غدا سيكون علي النزول إلى العمل مرة أخرى فقال لي حميد بلهجة يائسة : " لماذا لا نكتفي بهذا القدر من البحث و ندع الأجهزة الأمنية المعنية بالأمر تؤدي واجبها "

فقلت له علي الفور نحن الآن في منتصف الطريق ولا يمكن أن نرجع فلو تم إسنادها إلى الأجهزة الأمنية فالأسلوب البيروقراطي الذي تدار به سوف يكتفي بالبحث و المراقبة ولو لم يتم التوصل إلى شيء فلن يعاود المحاولة و يتم حفظ القضية أو ربما أن بعض الذين تسللوا إلى مواقع حساسة في الدولة يقومون بالضغط لأقفال باب التحقيقات و أنا و أنت نعلم من داخلنا بأن هناك أمر يدبر بليل و واجبنا كشفه أو علي الأقل الوقوف علي دليل قاطع يجعل أجهزة الأمن تتحرك .

هكذا الحال عدة أيام و لم يسقط أي صيد ثمين في
شباكنا بعد ولا زال حميد يتابع تحركات الرجل . . .
مسكين حميد فهو لم يتوصل إلى شيء بعد لكنه يجتهد كثيرا
من أجل الوصول إلى أي شيء مفيد .

لم أجد شيئا قد اشتبه فيه بالموقع الخاص بالجريدة
بعد اشتراكي فيه لكن و كأن الأحداث كانت في انتظار
كلماتي فلم أكد أنهى كلامي إلا و برق برنامج حماية
الفيروسات للحظة ثم عاود العمل في هدوء لكنني لم أفتح
أي موقع علي الإنترنت سوى صفحة الجريدة التي
اشتركت فيها أي معني هذا أن هناك محاولة لاختراق إلى
حاسوبي بأسلوب الهاكرز و هم قراصنة الإنترنت و يتم
ذلك عن طريق إرسال مجموعة ملفات علي حاسوب
الضحية أشبه ما تكون بحصان طروادة وهي عبارة عن
حزمة ملفات تدخل إلى الحاسب ثم فجأة تنشط و تقوم

بعمليات التجسس و التخريب بل ربما إرسال بياناتك إلى
جهة ما تقوم بالتجسس عليك من خلال مراقبة عمليات
حاسوبك و بدأت رحلة البحث عن ذلك الملف المتسلل
الذي يحاول اختراق حاسبي ، و بدأت في تجربة كل ما
تعلمته من خلال البرمجة حتى اهتديت إلى مكان ملفات
التجسس التي دخلت إلى و لم أجد سوى مجموعة ملفات
مضغوطة تحوى رابط نشط بمجرد الضغط علي الرابط
ينقلك لموقع آخر ، لكن كيف يمكن أن يكون هناك مثل
هذا النوع من الملفات علي موقع مؤمن لجريدة كبري كهذه
و ما الداع له إلا إذا !!!

إلا إذا ماذا يا مراد . . . كان سؤال حميد لي ، إلا
إذا كانت الجريدة بها شخص هو المسئول عن ذلك و ربما
عدة أشخاص من يدري لأن أمرا كهذا لا يتم إلا عن عمد
يستخدم الموقع في التمويه و هذا هو حل الأحجية و لن
يكون أفضل من موقع جريدة مشهورة يشارك الكل فيه

بكتابة التعليقات و مشاركة الأخبار و مقاطع الفيديو و من خلال ذلك تقوم الشبكة بإرسال ملف مضغوط إلى كل المشتركين الذي غالبا برنامج مقاومة الفيروسات لن يلتفت له و الشخص الوحيد القادر علي التوصل إلى الملف هو الفرد الذي تلقى تدريبا أما من لا يعرف بأمر الملف فلن ينتبه إلى وجوده أصلا على حاسوبه أو ربما توصل إليه و قام بحذفه دون أن يداخله أي شك و عندما يتم التوصل إلى الملف لن تجده يشمل أكثر من رابط نشط ينقلك إلى قناة آمنة مثلما فعلت ، هذه القناة عبارة عن موقع مؤمن بشكل كامل يتم من خلاله نقل و مشاركة المعلومات عبر الإنترنت لكن لكي يكون هناك إمكانية إلى الولوج فأنت بحاجة إلى كلمة سر .

كان الحظ يلعب دورا كبيرا في قصتنا لكن يبدو أنه تحلى عنا هذه المرة فلقد حاولت أن أصل إلى أي معلومة تدلني على كلمة السر بدأت أجرب حظي و لكن يبدو

أنني استنفذت مراته قلت لأجرب كلمة النسر أو الشرق
... ما من إحداها أفلحت و كل مرة كان الموقع يحتاج
لوقت بسيط للتحميل فأكتم أنفاسي علي أمل أن تضبط
معي لكن مع الأسف لم أفلح فصرخت بعصبية شديدة
"من أين لي بكلمة سر" احتقن وجهي و زادت عصبيتي
و استمر صراخي في شاشة الحاسوب و أخذت ألعنّها و
ألعن اليوم الذي اكتشفنا فيه هذه الومضات و أخذت
أطرق علي لوحة المفاتيح بشكل عصبي و عشوائي كأحد
الأطفال الصغار الذي غضب لأنه خسر في لعبته المفضلة .
كان صبري قد نفذ و تعبت فكان صراخي أشبه ما
يكون بتوجيه اللوم لنفسي علي فشلي ، عبثا حاول حميد
من أن يهدأ من روعي فانفعلت عليه و قلت له أن كل بحثنا
بلا جدوى و أننا كلما وصلنا إلى شيء نصطدم بشيء
جديد يفتح بابا جديدا من الفروض التي لا تنتهي و يبدو
أننا سوف نظل ندور في هذه الحلقات المفرغة بلا طائل

..... ثم خرجت إلى شرفة حجرتي في حركة لا إرادية
ربما كنت بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء فقد تعرضنا إلى
ضغوط عصبية كثيرة خلال الأيام الماضية بما يكفي ،
لكنني وجدت نفس الرسالة يتم تكرارها من خلال الأبراج
ربما هذا جعلني أهدأ قليلا أنه لم يجد جديد على الأمور و
بدأت في استعادة توازني ثم لم نلبث إلا و سمعنا صوت
أبي ينادينا بأن الساعة أصبحت العاشرة و أنهم بانتظارنا
علي العشاء و سمعت صوت معدة حميد تزجر معلنة
الثورة فنظرت إلى حميد و قلت له " الساعة الثالثة
. . . إنها هي . . . "

فنظر لي حميد بدهشة شديدة و أشفق علي حالتي و
كأنني قد أصابتني لوثة من الجنون ، هذه هي كلمة السر
المطلوبة للولوج إلى الموقع . . . هذا هو حل الأحجية
الومضات تبث كلمة سر معينة لفترة ما للدخول و يتم

تغيرها كل فترة حتى لا يتوصل أحد إلى كيفية الدخول إلى الموقع المؤمن بشكل كامل حيث يمكن لأفراد الشبكة تلقي الأوامر الجديدة أو إرسال المعلومات التي وصلوا إليها بدون إثارة الشكوك و بهذا الشكل من يصل إلى الموقع لن يفلح في الدخول إليه بدون الشفرة و لو فرض أنه اخترقه مرة فسيكون الاختراق في المرة التي تليها أصعب و أصعب إن لم يكن مستحيلا و من يتوصل إلى الشفرة لن يفلح في التوصل إلى الموقع فيكون كل ما توصل إليه بلا فائدة حقا إنها طريقة جهنمية لا يفكر الشيطان فيها فمثل هذه الطرق في الشفرة يصعب حلها و بنفس الوقت يتم إرسال بضعة رسائل من حين لآخر عبر الومضات ، رسائل بسيطة و لن تجد أن أي فرد من المجموعة التي تم تجنيدها يعرف البقية أو ربما يعرف فقط شخص أو شخصين علي الأكثر و هي خلايا نائمة تنتظر الأوامر للتنفيذ و حتى لو تم الإيقاع بأحدها فلن توقع ببقية أفراد الشبكة في ما يسمى

بتنظيمات الخلايا العنقودية لكن بقي سؤال أخير لماذا تم
إخطار كل الخلايا بزيارة السيد لي بينج إلى القاهرة ؟!

الفصل العاشر

بدأت خطوات البحث تتضح أكثر مما سبق الآن
البداية مع التعرف علي معدل تغير الرسائل الشفرية التي
تتم عبر الومضات و هل هو أسبوعي أم شهري؟ و ربما
يكون عشوائي حسب متطلبات الظروف و الأمر الثاني
متابعة حركة السيد لي بينج لعلني أعرف سبب الاهتمام
الشديد للشبكة بزيارته لبلادنا و أظنني سوف أحصل
علي إجابة شافية بعدما أتمكن من دخول غرفة الأسرار
لكن لا شيء مؤكد في هذا العالم .

هذا الكم الرائع من الاكتشافات فتح شهيتي
للعمل برغم الشعور بالإرهاق و النعاس الذي يغالبني ولم
يخرجني من استغراقي سوي صوت غطيظ حميد في نومه .
" لن يكون الأمر سهلا " محدثا نفسي كنت أتوقع
بأنني بمجرد التعرف علي كلمة السر أكون قد حللت جزءا

من الأحجية و تنتهي المسألة لأن الحقل المخصص لكتابة كلمة السر بالموقع لم يقبل أي حروف أو أرقام ، أجريت عدة محاولات و قمت بتنشيط الصفحة لكنها بلا جدوى حتى أنني تشككت أن كلمة الساعة الثالثة ليست الكلمة المطلوبة و كدت أفقد الأمل و عدت إلى عصيتي و قلت أترك الأمر للصباح لكن دون قصد أصبت الهدف بضغطة عشوائية على لوحة المفاتيح جعلت الحقل المخصص يستجيب و كتب الرقم واحد .

فقلت لنفسي " اااه يا أولاد الـ . . . إنها حليلة متقنة لا يقدر عليها الشيطان نفسه "

الحقل المخصص لإدخال كلمة السر لا يقبل أي قيم تزيد عن الصفر والواحد بنفس طريقة النظام الثنائي الخاص بالبرمجة لذا يجب تحويل كلمة السر إلى لغة الواحد و الصفر و لحسن الحظ أنني امتلك تطبيقا كهذا يقوم

بالتحويل من أحرف و أرقام إلى النظام الثنائي فكان الناتج
كالآتي " ٠١١٠٠١١ "

بالرغم من بدائية الأساليب المتبعة لكي تخدمك
فتحس أنها كأساليب الهواة لكن كل هذا أحد أساليب
التمويه المتعمدة ليدو الصيد سهلا في اقتناصه إلا أن
سهولته ممتنعة و تكمن فيها صعوبته و هنا تكمن الحرفية
الحقيقية لأن الأمر غير متوقع والمعتاد استخدام شبكات
التجسس لأحدث تقنيات تفتت عنها أذهان علماء بلادها
لكن أن يكون الحل أمام عينيك طوال الوقت فهو
الاحتمال الوحيد الذي لا يجربه أحد .

لم أنتبه لقيام حميد من نومه في هذه اللحظة من نومه
و هو بالكاد يفتح عينيه ليقول لي بغیظ : " الحيل لا تنتهي
يا صديق "

أصابتنى الصدمة بالوجوم أبعد كل هذا الجهد
المبذول يتم الدخول إلى الموقع لأجد نفسي مشترك في
مجموعة بريدية يتم من خلالها تلقي الأوامر المطلوبة إلى
أفراد الخلايا أو إرسال الرسائل أما الدخول إلى المستوى
الأعلى يحتاج كلمة سر أخرى لمستوى إداري أعلي و أظنها
خاصة بقيادة المجموعات و بالتأكيد أن محاولة اختراق
حصن رقمي كهذا تعد حلما مستحيلا ، فعللت نفسي بأن
شيء أفضل من لا شيء و أخلدت إلى النوم بعدما تهاوت
أحلامي لكن مشكلتي مع النوم تبدأ مع ذلك الحلم المتكرر
الذي يراودني مؤخرا منذ زيارتنا إلى مطروح و هذه المرة
كان أوضح مما سبق . . . " اجلس هادئا حزينا في غرفة
ضيقة جدرانها سوداء حالكة و قدرة و تنبعث من المكان
روائح نتنة و ينسال دمعي في الظلام بشدة و اشعر بضيق
رهيب في صدري و الغرفة و كأنها تتهاوي أو أن جدرانها
تضيق علي جسدي آخذا في الضيق و الاقتراب من بعضها

و يضيق صدري و ينعقد لساني فلا أقدر علي الصراخ كل
ما اقدر عليه هو البكاء و دعاء خافت يتردد في داخل نفسي
ثم تنفتح طاقة من النور و تتسع شيئاً فشيئاً ليدخل منها
شخص بهي الطلعة ليكفكف دمعي و يفتح لي باب الغرفة
الضيقة فيتسع المكان و تزداد رحابته و أخرج منه " ثم أفيق
كما المرات الماضية علي صوت آذان الفجر .

بعدما انتهيت من كلامي وضع الشيخ عبد السلام
كفه علي كتفي ثم سكت الشيخ هنيهة و نظر نحوي بحب و
أبوة و بدا أنه ينوي الكلام ثم سكت .

لم يكن الشيخ عبد السلام شخصاً غريباً عني فهو
صديق قديم لوالدي و إمام المسجد وهو رجل يتسم بالعلم
و الصلاح و الفراسة في الناس ، عاود صمته مرة أخرى ثم
خرجت كلماته هادئة و واثقة و قال لي بنبرة متهدجة
مشفقة : " الرؤية يا مراد يا ابني هي فتح من ربك و هي

ومضة تسرى في ظلمات الليل لتنير لك سبل الحق ، نور
برغم ضعفه يقيق شر عثرات الطريق "

تأثرت كثيرا بنبرة صوته لكنه لم يزد عن تلك
العبارات الغامضة و شعرت بأن هناك كلاما أكثر يدور في
داخله يشي به اتقاد عينيه لكن كلمة " ومضة " أخذت ترن
في أذني أكثر من مرة و كأنني أول مرة اسمعها في حياتي .
ظلت تتردد في نفسي . . . فالأمر بدأ بومضة
اكتشفتها فتغيرت حياتي و العدو المتربص بنا يستخدم
الومضات و الرؤية ما هي ومضة إلا ومضة في الظلام و
أي مجهول سوف أواجه . . .

تظل نفسي تحدثني و يدور هذا الصراع عند كل
مرة أتمني فيها سماع صوت ليل و يظل صوتا يتردد في
نفسي " إلى أين سوف ينتهي بك طريق الحباقة يا مراد هل
هي ستظل معلقة بك و أنت في حلمك الرومانسي بأنك

ستصل إلى هذه الشبكة الرهيبة و هو طريق وعر و خطير
قد لا تعود منه .

لا شيء اسمه حباقة بل هذه محض سخافة لم يكن
أمر حبها شيء بيدي هي قسمتي و نصيبي و ما أكنه لها
هو حب طاهر نقى أما كيف السبيل إليها و قد عقلت في
ذلك الأمر و حب الوطن مقدم علي كل شيء لكن قلبي
يطمئنني دوما بالخير و أن الأعمار و الأقدار بيد خالقنا و أن
لكل شخص قسمته و نصيبه من هذه الدنيا لكن أعود و
أذكر كيف سيكون حالها إن لم أرجع لها و يشتد وجيب
القلب .

أخرجني صوت هاتفي من تأملاتي و صراعاتي و
دوما يفعلها فأجدها هي من تتصل بي كان الاتصال لأنها
لم تقدر علي كبح الفضول الأثوي و تنتظر إلى أين وصل
بنا البحث فلم نكد ننتهي من السؤال الشخصي إلا و
دخلت إلى صلب الموضوع و أدهشني ذكائها فهي تقريبا

توصلت إلى الكثير من النتائج التي سبق إلى أن وصلنا إليها
أنا وحميد فسكت برهة لعلها تنسى الأمر لكنها
أعادت السؤال فالفضول النسائي لا حد له وقالت لي أنني
أن هناك ما قد استعصي على فطالما أنا مستغرق في شيء
فلم أكن لأتصل بها أمس و أرد من أول اتصال . . .
ضحكت بشدة و قلت لنفسي " آه من تلك الحاسة الأنثوية
الرهيبة "

واستمرت في انتزاع الكلمات من فمي انتزاعا إلى
أن وصلنا إلى جزئية اختراق الموقع فسكت طويلا
!

فقلت لها : " خير يا ليل ما سر سكوتك "
تلجلجت في الكلام ثم قالت لي : " لا أعرف ماذا
ستقول عني ربما هذا السر لم أخبر به شخصا من قبل
لكنني تم القبض علي و كنت سأعرض للمحاكمة لكن
علاقات أبي خلصتني من هذا المأزق لو علمت أنني تم

القبض علي من قبل و كنت سأحاكم بسبب هذا الأمر
لولا علاقات أبي التي خلصتني "

اندهشت كثيرا من كلامها تلك الفتاة الرقيقة
الحاملة هل من الممكن أن تكون قامت بجرمة رهيبة و هي في
الخارج ، أسمع كثيرا عن استهتار أبناء الطبقة الغنية لكن
ليل أبعد ما تكون عن مثل تلك الأمور ولعل جريمتها أنها
فكرت في جرح مشاعر أحدهم !

لكنني لم أقدر علي إمساك الضحكة التي ندت
عني عندما أخبرتني أن جريمتها كانت القرصنة عبر
الإنترنت مما أثار حفيظتها و هددت بأنها لن تحك لي شيئا
فطلبت منها بتدلل أن تحكي لي و بدأت في السرد :

" مراد ما قبل موت أمي كنت في حال و بعد
موتها تحولت لشخص آخر قبل موتها كنت مستهترة و كل
شيء متوافر عندي حرية بلا رقابة و حرية في طلب المال و
الشيء الوحيد الذي لم أجده هو مراجعة أبي و أمي

لتصرفاتي لأن كلا منهما منشغل بعالمه ، كنت أتمني أن يسمعونني أن يسألوا عن أحوالي ، ما فعلته لم يكن إلا تعبير عن التمرد و الاحتجاج لكي يشعروا بوجودي و لم أجد ضالتي إلا في عالم القرصنة علي الإنترنت فأنت تدخل إليه وقتما تشاء و تخرج منه وقت ما تحب كذلك كنت أظن لكن تحول الأمر إلى إدمان ، في البداية كانت أمور تافهة و بسيطة أن ترسل إلى شخص ضايقتك فيروس لإفساد حاسوبه أو العبث بنتائج الطلاب للانتقام من إدارة المدرسة و لما وجدنا الأمر مسليا تطور الأمر مع الوقت و عدم اكتشاف أمرنا ساعد على التحول إلى قرصنة محترفين و اختراق أهداف أكثر تحدي فلم تعد أعمال الهواة تروي تعطينا و لم يكن الهدف هو السرقة لكن فقط إثبات الذات حتى صار بإمكاننا الدخول إلى مواقع هامة و حساسة مثل شركات الأوراق المالية و البنوك و . . إلخ "

" أثار نشاطنا هذا نظر السلطات إلى حدوث عدة جرائم بنفس الأسلوب و نشطت التحريات إلى أن تم الإيقاع بنا بسبب وشاية أحد الأصدقاء الذي تشاجر مع أحد أفراد المجموعة بسبب المنافسة بينهما و كنا سنتعرض للمحاكمة و كان من الممكن أن نخضع لأحكام مشددة لولا تدخل آبائنا لأنهم ذوي حيثة و تم تدارك الموقف ، لكن بعد علم أبي بنشاطي لم تكن العواقب طيبة فقد منعني من الخروج والرحلات و عزلني عن أصحابي و عن الإنترنت كانت أيام صعبة للغاية عليها لكن كل هذا نسيته بعد موت أمي "

ثم أجهشت في بكاء مرير ، و كم هي رقيقة مثل الورد لكن لكل وردة شوكة ، و بقية القصة أنهم بعد موت أمها كان أبيها منشغل بصفقاته كالعادة و وجد فرصة جيدة للاستثمار في الوطن فكان عليه العودة لإتمام الأمر فاضطر إلى أن يرجع إلى البلاد و معه أبنائه جميعا فلم

يكن من الممكن تركهم وحدهم في بلد أجنبي غريب و
اختار السكني في محافظة مرسى مطروح بعيدا زحام
العاصمة و من يومها يعيشون في عزلة .

هذه القصة الحزينة قادتنا نحو شجار محترم لأن ليل
أصرت أن أعطيها رابط الموقع الذي توصلت إليه لكنني
رفضت بشدة خشية اكتشاف أمرها و أن تتطور الأمور
فبدأت بإقناعي بمدى مهارتها و أن السلطات الأجنبية لم
تصل إليهم إلا من خلال وشاية لكن كل أساليبها في
إقناعي فشلت و تحول النقاش إلى حالة من الغضب لأنها
اعتبرت هذا عدم ثقة كافية نظرا إلى أنها مزدوجة الجنسية و
لم يفسر على أنه نوع من الحب و الخوف الشديد
واضطرت لسماع محاضرة عن الانتماء و حب الوطن و
أنها ليست أقل وطنية من أي شخص عاش على أرض
الوطن و أن هذه هي فرصتها للتعبير بها عن حب وطنها
طالما أنها قادرة على هذا الأمر و تحت الإلحاح والضغط و

الحاجة إلى شخص أثق به للقيام بهذه المهمة الخطيرة اضطررت إلى وعدها بإرسال رابط الموقع لها لعلها تتوصل إلى حل .

بقي أمامي طريق واحد فقط هو متابعة خطة الصيانة و فيها يتم توزيع أماكن الأبراج إلى مناطق و كل منطقة يكون مسئول عنها مهندس صيانة و يقع تحت إشرافه مجموعة من الفنيين ، كان الأمر سيستغرق وقتا كبيرا لكن على الأقل يجب البدء فيه أولا بمنطقتي لكشف عملاء الشبكة ثم المناطق المجاورة لمنطقتي و هم غالبا لن يتعدوا عن قلب الأحداث العاصمة ، و لحسن الحظ أننا أكبر شركة تقوم بالصيانة لذا فلنا النصيب الأكبر من السوق و الأغلب أنه سيتم تجنيد أفراد من شركتنا لأنه في ظل الأعداد الكبيرة من السهل أن تفقد الأثر و لا تعرف الطريق لكن في الشركات الأصغر حجما سيبدو الأمر ظاهرا و ربما يثير الشكوك في هذه المرحلة سوف أحتاج إلى

استخدام حدسي في التخمين فربما ليست كل الأبراج يتم استغلالها في بث رسائلهم لأن القاهرة محافظة كبيرة و الكثافة السكانية فيها تختلف و جغرافيا القاهرة مختلفة تماما عن مرسى مطروح لأن المساحات في مرسى مطروح منبسطة و المباني غير مرتفعة و الرؤية الليلية واضحة لأن الجو غير ملوث مثل جو القاهرة و الأغلب أنه يتم استخدام الأبراج التي تقع علي أطراف المحافظة في المناطق الجديدة نظرا لانخفاض الكثافة السكانية و إمكانية الرؤيا الليلية و لكن تبقي الحاجة لوجود عملاء قرب قلب المدينة و بالتأكيد في منطقة وسط البلد يستخدمون الأبراج التي تقع على المباني المرتفعة التي يصعب ملاحظتها ، لكن يبقى السؤال ما هو الأجراء التالي إذا قمت باكتشاف أن أحد زملائي بالعمل أحد عملاء الشبكة دون أن يدري أحتاج إلى مشورة من أحد قادتي القدامى في فترة الخدمة الوطنية ؟ !

حتى هذه اللحظة لم أبلغ السلطات عن اشتباهي في نشاط تجسس يتم إجرائه لأنني أريد دليلا ماديا قاطعا لأنه لو تم الإبلاغ ونحن لا نملك الأدلة الكافية فسوف يتم إجراء تحريات روتينية وينتهي الأمر وخصوصا في ظل شبكة محترفة ولها المقدرة على الوصول إلى أماكن حساسة في مفاصل الدولة ، عندها خطر في بالي السيد / رأفت موافي فهو كان الأقرب لي وقد تقاعد مؤخرا لكن لا زال له علاقات وطيدة و عديدة فوجدت أنها فرصة مناسبة لكي أقوم بزيارته و استنير بمشورته لكن قبلها كانت هناك مهمة صغيرة تنتظرني فقد كانت كل لحظة تمر علي أشعر بأن عقارب الساعة تلدغني لذا في عجلة من أمري صعدت إلى عدة أبراج تقع ضمن نطاق عملي و قمت بتعطيل لمبات الإشارة كانت العجلة تسيطر علي المشهد و دوما في العجلة الندامة و لم أعني تلك الكلمة إلا بعد انتهائي من البرج الأخير كان الوقت بدأ يقترب من أذان المغرب

ويدخل الليل علي مهل و شعرت وقتها بأن هناك عيون ما
ترقبني من مكان ما أحس بها تخترق جسدي . . .
تتلصص و ترصد بي و حدسي في أمر كهذا لا يخطئ أبدا
لكني لا أقدر علي تحديد مكانها و لا أريد أن الفتهم إلى
أنني متتبه إلى أن هناك من يراقبني فكان علي أن أتصرف
بشكل طبيعي .

كنت في طريقي إلى السيد / رأفت موافي و في
عجلة من أمري و أريد أن أدخل إلى أي مكان زحام
لأذوب فيه لكن هيهات لم أفلح من التخلص من الرقيب
الذي يعد علي أنفاسي و تسرب القلق إلى نفسي و
الهواجس و هل من الممكن أن يكونوا انتبهوا إلى ما قمت
به في الأبراج في مرسي مطروح و كانوا يتابعون حركتي في
هدوء و صمت و هل من الممكن أن يصلوا إلى مجرد
الفكرة ترعبني أنهم قد يصلوا إلى ليل و حميد .

يتزعني الهاتف برنينه المزعج دوما من دوامة
أفكاري " إنها ليل . . . حمدا لك يا ربي "

قالت لي بصوت مرح : " تم يا قائد أول محاولات
اختراق الموقع و تم رصد رسالتين الأولى من منطقة
القاهرة و الثانية من الإسكندرية "

لمن أكن أدرك مقدار الحب الذي في قلبي لليل إلا
حين دق الهاتف و ظهر اسمها و قلت لها و أنا أغالب
لهفتي " يعني أنت بخير يا ليل "

فتغيرت نبرتها علي الفور : " نعم بخير . . . و
صحة . . . خيرا هل هناك شيء " يبدو أنها اندهشت
لقلقي عليها أو كانت تنتظر شيء ما .

فقلت لها : " عظيم . . . اعتني بنفسك واضح
انه في شخص يراقبني لكن ما هو نص الرسائل "

فقلت لي بصوت كله تأثر : " مراد أنت بخير "

فقلت لها : " لا تقلقي من فضلك قولي لي نص
الرسائل " .

بدت اللهفة في صوتها أكثر وضوحا من قبل لم
يكن هناك بد من إخفاء مشاعرنا أكثر من ذلك لكن
المشكلة كلها تكمن في الظروف الصعبة التي بدأت فيها
قصتنا و أنا مشئت ما بين خوفي و حبي لوطني و خوفي و
حبي لليل و ما باليد حيلة .

ثم قلت لها بحزم : " ليل الرسائل من فضلك
... لا يوجد عندي متسع من الوقت "

فقلت لي : " حاضر ... حاضر ، الأولى أوامر
خاصة بعمل فوضي مروية سوف تتم بالقاهرة و عن
تعطلات مروية في المحاور الرئيسية ، الرسالة الأخرى
عن حدوث إضراب عام لعمال ميناء الإسكندرية ...
لكني حتى الآن لم أتمكن من اختراق الموقع لأنه يستخدم
أكثر من أسلوب للتأمين حتى لا يسمح بمرور أي شاردة

أو واردة لذا سوف يستغرق الأمر وقتا ، وخصوصا أن
الدخول لابد أن يحدث بدون أن يشعر القائمين علي الموقع
بهذا "

فقلت لها بحزم واضح : " حسنا ربنا يوفقك . . "

ثم سكت لحظة غالبتي فيها لهفتي و نفسي و قلت
لها " ليل من فضلك . . . انتبهى لأمرك فالأمر ليس
بسيطا كما كنت أظن هم ينسجون خيوطهم في كل مكان
مثل شبكة العنكبوت "

الفصل الحادي عشر

بصعوبة شديدة أمكنني التخلص من الرقابة التي كانت تحاصرني بأحدي الحيل فدخلت إلى احدي البنايات السكنية التي أعرف أن لها مدخلين فدخلت من أحدهما و خرجت من الآخر دون أن يلحظوني ثم قفزت في أحد حافلات النقل العام التي أوصلتني لأقرب نقطة إلى منزل السيد / رأفت موافي في حي مصر الجديدة حيث يقطن في بيت عائلته ، منزل تحس فيه عبق التاريخ و العراقة ، للأسف المنزل الوحيد القديم القائم في الشارع بعدما تم هدم معظم البيوت القديمة في المنطقة و تحويلها لغابات خرسانية صماء تخلو من الجمال و الفن بالرغم من أن هدم هذه البيوت قبل سابق كان جريمة بحكم القانون لأنها تمثل قيمة تاريخية لكن المال دوما يقول كلمته في وجه كل شيء وبقي هذا المنزل صامدا كشاهد أخير علي الزمن الجميل .

حرارة الشمس و قسوة الصحراء صاغت ملامح
المحارب و برغم كل ذلك يخلو هذا الوجه بابتسامة طيبة
تستقبل أي ضيف و بترحاب شديد أخذ يداعبني و
يخبرني بأنني أنهيت خدمتي و لم أعد أسأل عنه ابتسمت في
حرج و لم أجد إجابة فبادر هو و قادني إلى حجرة
الضيوف و هو يسرد الذكريات الجميلة حين كنت أخدم
تحت أمرته أثناء تأديتي للواجب الوطني و فوجئ بصمتي
فنظر إلى نظرة ذات مغزى ثم لم يتمالك نفسه من الضحك
في البداية ارتسمت على شفثيه ابتسامة خفيفة سرعان ما
تحولت إلى ضحكة ملء فيه ثم قال لي : " مراد . . .
شكلك ورائه مصيبة "

فلم أقدر علي إمساك الضحكة التي ندت عني و
قلت له : " هل شكلي واضح لهذه الدرجة " فكان الرد :
" بالطبع . . . وضوح الشمس ، يا ابني شكلك أشبه
بالمطارد " .

سكتت هنيهة و لم أجد ما يقال سوي الدخول إلى
صلب الموضوع و قلت له : " يا فندم حضرتك تعرف تمام
المعرفة حجم ثقتي فيك و ما سأحكيه لحضرتك علي
جانب هام من الخطورة و لم أحب أن أذهب بشكل مباشر
لإخطار السلطات قبل مشاورتك لذا جئت إليك اليوم
لمساعدتي "

فهب علي الفور من مكانه و أغلق الباب و أشعل
سيجارة و كأنها طقوس يستعد بها لاستقبال حدث جلل
و كأنه قرأ وجهي و استمر في الاستماع لي و كلما مرت
علينا لحظة شعرت بأن شيئاً آخر بخلاف سيجارته يشتعل
في الحجرة ثم أخذت حدقتيه تتسعان بشدة كأن عيونه
سوف تخرج من محجريهما حين علم بأمر الأبراج و
الطريقة الجهنمية لعمل شفرات الدخول للموقع
الإلكتروني و ضرب كفا علي كف في تغيط شديد ثم نظر
نحوي و قال لي : " مراد الموضوع خطير و فيه أمور من

الصعب أنني اشرحها لخطورتها علي حياتك لذلك عدني بعدم التدخل " .

أيقنت بأنه الوحيد الذي سيفهم القصة و أنني اخترت الشخص المناسب لمساعدتي في حمل هذا العبء واصلت كلامي و ظل هو يتابع في صمت و يسحب الأنفاس الملهته بعصبية شديدة إلى أن وصلت إلى جزئية الرسالتين الأخيرتين الأولى عن إحداث فوضي مرورية متعمدة في شوارع العاصمة في صباح اليوم التالي لحديثنا وعن إضراب عام في ميناء الإسكندرية و تعطل لحركة الملاحة فيه أخذ السيد/ رأفت يحك رأسه و أخذ يتطلع إلى سقف الحجرة ثم سعل في غيظ شديد و بعدها سألني مرة أخرى : " يا مراد الأمر خطير و أشبه باللعب بالنار ، أنت قلت لي تعطل لحركة المرور لكن متي ؟ " سكت على غضاضة و اكتفيت بالرد علي سؤاله و قلت له : " غدا "

ثم اندفعت ألقى على مسامعه الإحصائيات التي قام بها البنك الدولي عن حجم الخسائر التي يتعرض لها اقتصاد بلدنا النامي بسبب الفوضى المرورية و ضياع الوقت و الجهد و هدر من المواد البترولية التي نستورد معظمها مما يؤدي لإرهاق الموازنة العامة للدولة بدون أي داع و التلوث البيئي و اعتلال صحة المواطن مما يكلفنا بأعباء أكثر .

فرد علي بشكل قاطع وقال : " لا يا مراد . . . بالتأكيد في هدف أكبر . . . إحداث فوضى مرورية لن يكون ممكنا بشكل يومي و إلا سيلفت أنظار السلطات و هم في اشد الحاجة للخفاء "

فقلت له : " صحيح . . . لكن لماذا؟! " فجأة اختطف الجريدة من علي المنضدة بطريقة أفزعني و لمحته يقرأ خبرا عن أحد المؤتمرات التي تعقدها وزارة السياحة لتنشيط السياحة و الصناعة بالمناطق الصحراوية في

الصحراء الغربية ويبدو أن ذهنه أومض بفكرة ما لكنه لن يفصح أبدا .

فردد بصوت واضح : " لا شيء يجري مصادفة لكن ما هي علاقة الإضراب في ميناء الإسكندرية بمحاولة إفساد المؤتمر !!! " .

قاطع كلامنا أذان العشاء فقمنا للصلاة و عدنا للتباحث في أمر الشبكة و بدا على السيد / رأفت الهم و ران صمت غريب علي المكان وسرت كالعادة رنة هاتفي في المكان لتقطع الصمت و جاءني صوت حميد الدين وهو يتكلم مثل المحموم ليبلغني أمرا جديدا لأنه كان في المطار يستعد للسفر بشكل مفاجئ بسبب ظروف عمله كانت هذه مفاجأة لم أكن مستعدا لها بالمرّة ثم قال لي : " مراد هناك جديد يا صاحبي ، الإشارات تغيرت و هذه هي الرسالة الجديدة : ترقبوا مجيء الطائر الأبيض إلى الأرض الدافئة ، جريدة النهار ، الساعة الثالثة "

ارتسمت الدهشة علي وجهي و قلت له : " فقط
هذا كل شيء ، و أين كلمة السر؟ "

فرد : " لا يوجد ، و الجديد أنني علمت بأن السيد
/ لي بينج مسافر إلى مطروح يبدو أنه قادم ليستجم و لعلنا
أخطأنا بالتخمين هذه المرة يا صديقي "

كانت إجابات حميد نخبة لأمالي و هؤلاء
الجواسيس كأنهم يريدون إغاطتي أكثر أفلم تكن جريدة
واحدة تكفى بل عمدوا إلى اختيار جريدة أخرى ذائعة
الصيت تشبه جريدة الأفق ، لكن هل هذا فقط بسبب
اكتشافهم أن هناك من يعبث بالأبراج أم أنه إجراء
مُسبق؟! !!

فرد السيد رأفت على الفور : " لا يا مراد . . . لا
أظن لأنه لم يتم تغيير شفرة الدخول و من الصعب
للمعلومة أن تنتقل بهذه السرعة في تنظيم عنقودي شديد
التعقيد كهذا لأن البعض يخشي نقل مثل هذه الأخبار إلا

بعد التدقيق خشية البلبلة ، أضف إلى هذا أنهم إلى الآن لا يعرفون ما توصلت إليه لكن إن آجلا أم عاجلا سوف يحاولون الاحتكاك بك فكن حذرا "

فقلت له : " حسنا . . . لكن ما السر في تغيير اسم الصحيفة و من هو الطائر الذي سيحط في الأرض الدافئة ! "

فقال لي : " لا يوجد هنا مجال للخطأ استخدام اسم جريدة واحدة قد يجعل المسألة يسهل كشفها كم أن سبق و فعلت أنت لكن لو اعتمدوا علي جريدتين فهذا التشيت يسمح بالمزيد من التضليل هذا إذا فرض أن هناك من يخطر بباله فكرة و سيظن أن المسألة مصادفة ليس أكثر ، ثم دعنا نتعرف على صديقنا الجديد "

سكت لأنني لم أكن أتوقع هذا بالمرّة فالأمور تمشي بسلاسة و وجدنا خبرا صغيرا عن وصول أحد نوابغ علم الجيولوجيا و كان مرشحا لجائزة نوبل جاء إلى بلادنا لإلقاء

محاضرات عن علم طبقات الأرض ولأجراء أبحاث هامة
عن طبيعة الأرض في الصحراء الغربية لأن أحد الشركات
الكبرى في مجالات التنقيب انتدبته لمساعدتها!

توقعت بعد هذا الخبر أن ترسم علي وجهه
الدهشة لكن لم أكد أتكلم و ألفت نظره إلى أن السيد/ لي
بينج تخصصه مشابه لتخصص العالم الروسي إلا و
فوجئت به بتر عباراتي بشكل حاسم ليسكتني و يبدو أنه
قد شعر بأنه تمادي بالكلام في أمر كهذا فقال لي : "
مراد . . . الحكاية أكبر منا و أنت تعرف الإجراءات و
الوقت تأخر و من الأفضل أن أوصلك "

شعرت بالخرج من أسلوبه و التغير المفاجئ الذي
حل عليه و حاولت أن أثنيه عن فكرة النزول معي لكنه
كان قاطعا ، وأصبح عندي يقين بأنه استنتج شيئا ما
يرفض الإفصاح عنه خشية أن يصيبني مكروه و نحن لا
نعلم إلى الآن ما هي نتيجة العبث بالأبراج و هل سيتم

اللجوء إلى الاحتكاك المباشر بشكل عنيف أم أن الأمر سيقصر علي المراقبة الدائبة لمعرفة ما ورائي أن المسألة لا تعدو مجرد عداوة مع الشركة؟

طوال طريق العودة إلى البيت لم أ همس حتى بحرف و قد شعر السيد رأفت بأنني ضقت من أسلوب معاملته لي كطفل صغير ، و قد استأثت فعلا من هذا لذا ابتدرني بالحديث و قال لي : " مراد أنت تعرف حجم تقديري لك و أنا أعرف والدك و هو أستاذي و أنت بمثابة ابن لي و ربنا يعلم ، إن كنت قاسي بعض الشيء فهذا لمصلحتك . . . لكن الأمر انتهى أنت لم تعد ضابط احتياط و أنا صرت متقاعدا ، دورنا الآن يتلخص في إبلاغ القيادة فالأمر ليس لعبة للهواة نحن نتعامل مع محترفين حقيقيين و خطرين و أقل خطأ لو كلفك فقط حياتك فستكون وقتها المسألة بسيطة لكنه سيكلفنا الوطن بأكمله ، نحن في حرب شرسة مع عدو لا يرحم وهذه الشبكة

تسربت و تشعبت بمفاصل الدولة المختلفة في صورة أشبه
بمخيوط العنكبوت "

عندما بدأنا نقرب من بيتي في حي المعادي فوجئنا
بأن الحي الهادئ يموج بحركة غير عادية و يعج بالكثير من
رجال الشرطة و تم استيقافنا أكثر من مرة كلما اقتربنا من
موقع الحدث فتوقف السيد/ رأفت ليستفسر عن سر
الجمهرة فقيل له أحد الفنيين كان يقوم بعمل صيانة لبرج
التقوية و سقط عنه و الطبيب الشرعي قادم في الطريق
لمعرفة سبب الوفاة فنظرنا إلى بعضنا .

هبت نسمة من الهواء أطارت أوراق الصحف التي
غطوا بها الجثة المسجاة علي الأرض و لمحت وجه الضحية
إنه " جابر " أيمن أن يكون متورطا في هذا الأمر؟
فقلت للسيد/ رأفت بتأثر : " جابر أنا أعرفه
... و كل هذا بسببي "

لم يسمح لي السيد / رأفت بأن أكمل كلامي و رد
بلهجة قاطعة : " مراد أظن إنه كلامي واضح ، متورط أو
غير متورط هذا قدره و يكفي لهذا الحد نحن لا نعرف ما
هو التحرك القادم لهم ، حاول تكون طبيعي و في أقرب
فرصة خذ أجازة حتى ما تهدأ الأمور "

فقلت له : " يا فندم لكن هذا لا يعفيني من
المسئولية "

فرد علي : " مراد الحكاية لا تحمل المزيد من
المناقشات اعتبر كلامي أمر "

لم أقدر علي تحمل المزيد من الأوامر و التحكمات
فقلت له : " يا فندم لقد خرجنا من الخدمة " ابتسم
السيد / رأفت بهدوء و حكمة الأب و ربت علي كتفي
بهدوء و لم يناقشني كثيرا كنا وصلنا إلى منزلي و لم يكن
هناك ما يقال فسلمت عليه سريعا كأني اهرب من شيء
ما ، ربما شعوري بالذنب لأنني قد أكون السبب في موت

شخص أظنه بريء و مسألة أنه قد يكون متورطا أراها حجة لأخفف وطأة شعوري بالذنب ، انعكست هذه الأفكار علي تصرفاتي بشكل واضح فحين ألقيت التحية على أهل البيت بشكل بارد و مقتضب و صعدت بعدها سريعا إلى غرفتي و سمعت الهمهمات المتسائلة أثناء صعودي إلى حجرتي .

أغلقت باب الحجرة بعنف دون قصد و كأنه هو الملام علي ما جري لجابر و ظلت الأسئلة اللعينة تطرق رأسي كأن لا نهاية لها ، ربما كان السيد / رأفت محقا في كلامه و قد قمت بما يلزم للتأكد من صحة افتراضاتي و جابر متورط بالفعل معهم و الأمر الآن بين أيد أمينة و لم يعد يعنيني بالمرّة و تعطشى لمعرفة الحقائق هو الذي دائما ما يوقعني في المشاكل لكنني لا أعلم أبدا " كنت أرددها علي نفسي بصوت واضح " .

العلاقات تشابكت و تداخلت بشدة و صار صعبا
فك الاشتباك بين كل هذه الأمور فما هي علاقة
الإضرابات التي تحدث في ميناء الإسكندرية بالشلل
المروري الذي يصيب شرايين العاصمة بزيارة السيد/ لي
بينج المفاجئة لمرسي مطروح ثم الرسالة الجديدة عن وصول
عالم آخر من المرشحين للحصول علي نوبل إلى وطننا
بحجة إلقاء محاضرات و عمل أبحاث له تخصص تقريبا يبدو
مشابها للسيد/ لي بينج أيعقل أنهم قاموا بتجنيد السيد/
لي بينج و كذلك قاموا بتجنيد هذا العالم ؟ . . . و إن كان
هذا هو مصير جابر فكيف سيكون مصيري إن علموا بما
وصلت إليه وخصوصا بعدما علموا بوجودي و بدأوا في
رصد تحركاتي ؟ و من هو الذي يحرك اللمبات في كل مرة
بالرسائل المطلوبة ؟

اللعة عليك أيتها الأسئلة التي لا تسكت و تظل
تعبث بعقلي و أدور معها في دوامات لا تنتهي حتى

استسلم للنوم فتعاودني تلك الرؤيا التي أصبحت كثيرة التكرار و كلمات الشيخ عبد السلام التي تلازمني و أتفكر فيها و أشعر بأن قصة الومضات تسوقني نحو قدري الذي ارتبط بها و منذ اكتشافها و تحول يتحول إيقاع حياتي من الهدوء إلى التسارع في حالة أشبه باللهاث .

بعد صلاة الفجر لم أقدر على النوم مرة أخرى و وجدت في نفسي نشاط غير عادي و عاودني الشعور المقيت مرة أخرى بأن قبضة حديدية تغوص في معدتي و تعتصر قلبي بقسوة و برودة الحديد أحاول التشاغل عن هواجسي بعدة أمور إلى أن يقترب موعد الخروج للعمل و أفضل فأقرر الخروج مبكرا للعمل و وصلت قبل مواعيدي بجوالي نصف ساعة .

كأنني ذهبت هناك إلى قدري لأسمع الهمسات التي تدور بين موظفي الأمن و العمال عن أخبار بيع شركتنا خلال أيام لمستثمر مجهول و المهندس / عوض يقف

خلف الصفة و أغلب الناس تخاف علي مصيرها فهل
سيتم الإبقاء عليهم أم الاستغناء عنهم كحال معظم
شركات القطاع الخاص .

وصل مدير عام الصيانة المهندس / عوض
، حدسي دوما ينبئني بأن هناك أمرا ما يقلقني من هذا
الرجل و أنه يخفي خلفه أسراراً كثيرة فقد فوجئت بأنه
أيضا قد حضر مبكرا بعدي بوقت بسيط و كأنه كان
يتحضر لأمر ما و اندهش لوجودي فابتدرني بالتحية و
الكلام قائلا : " صباح الخير مراد . . . جميل إنك هنا قبل
الزملاء من فضلك أنهي ما بيدك و الحق بي إلى مكتي "

ليس من عادته أن يأتي إلى مكتي خصيصا لإلقاء
التحية فيا تُرى ما هو السر في ذلك و عاودني الشعور بأن
القبضة الحديدية تزداد قسوة كنت أحس كأنه سيقول لي
أنه يعلم بكل شيء مثلا لكنني شعرت بسخافة الفكرة
وتقدمت إلى حجرته لأطرق الباب ، بدا أنه ينتظرني لأنه

ردي علي باسمي واستقبلني بابتسامة هادئة لكنني شعرت بأن عينيه تتابعان حركتي بفضول واضح و كأنه فيهما الكثير من الأسئلة لكنني تجنبت كل هذا حتى لا أشتت ذهني وتصرفت بشكل طبيعي لكيلا ألفت نظره و أفهم بدقة ما الذي يريدني فيه خصوصا أن علاقتي به سطحية للغاية نظرا لأن تواجدي معظم الوقت بالخارج بعيدا عن المبني الإداري للشركة بسبب طبيعة العمل و برغم اسمه الذي يوحي بأنه رجل كبير في السن إلا أنه على الأكثر في منتصف الثلاثينات له عيانان قلقتان تلمعان دوما و رأس لا يثبت أبدا دائم الحركة ، شخصية طموحة للغاية لا شيء يقف أمامه وقد علمت أنه في فترة بسيطة أمكنه الترقى في الشركة لكفاءته و قوة علاقاته بالإدارة العليا و صار له كلمة مسموعة عند مجلس إدارة الشركة لذا فالكل يحسب حسابه و ضالع في صفقة بيع الشركة و ليس له أصدقاء من العمل و لا أحد يعلم أي شيء عن داخلياته .

بدأ كلامه بالثناء علي أدائي الوظيفي و أن الشركة
دوما بحاجة إلى الخبرات الشابة و أصحاب المواهب ثم
عاجلني و قال لي : " مراد سوف يتم نقلك إلى لعمل مقر
دائم للشركة بمحافظة مرسى مطروح لتأسيس إدارة ثابتة
لصيانة الأبراج لتغطية كل هذا النطاق الجغرافي "

في البداية تلجلجت و حاولت التملص و رفض
العرض المقدم لي و تعللت بأن هناك زملاء لهم أقدميه و
كفاءة عني لكنه أصر بشدة علي إرسالني إلى هناك
خصوصا لأنني أعزب و لا تثقلني المسؤوليات مثلهم و لن
يكون هناك ما يشغل بالي لم اعرف كيف أرفض أمام
حججه ثم تذكرت وصية السيد / رأفت لي بالابتعاد قليلا
عن بؤرة الأحداث حتى تهدأ الأمور لنعرف ما الذي يُدبر
لكن شيئا ما أنبأني من داخلي بأن هناك شر ما يحيق بي و
هذه الترقية ورائها شيء ما و لم أكد أخرج من عنده إلا و
وجدت ليل تتصل بي لتخبرني بأنها أيضا مضطرة للسفر

المفاجئ لزيارة أقرباء أمها و كأن كل الأحبة تركوني فجأة وحدي ثم أخذت تعتذر لي بشدة عن عدم تمكنها خلال الفترة الماضية من اختراق الموقع الخاص بالشبكة بسبب صعوبة اختراقه و أنها تخشى أن يعرف والدها بأنها عادت مرة أخرى إلى أمور القرصنة .

فأخبرتها بما دار في الأمس بيني و بين السيد / رأفت و أن الأمر الآن أصبح في يد الأمن و أي تدخل قد يفسد الأمور و أنني لم أجِد الوقت أمس مناسبا لإخطارها به لأنني عدت متأخرا لا أدري ما الذي أصابني سيطرت البرودة علي المكالمة من أولها إلى آخرها حتى أنها لم تدم إلا لدقائق معدودة فمن الطبيعي أن أسعد لأنني ألقيت عن كاهلي عبء المسؤولية و انتقالي إلى مرسى مطروح سوف يُحسن فرص التقارب بيني و بين ليل و أسرتها و يزيد دخلي من بعد هذه الترقية ربما لم أكن مستعد لهذه المفاجأة

أو أن شعوري بالذنب لازال يسيطر علي لكنني أظنه
حدسي الذي لا يخطئ.

الفصل الثاني عشر

اللحظات الفارقة هي الثوان القليلة المعدودة التي قد تغير شكل الحدث و قد تقلب حياتك رأسا علي عقب ، في البداية كنت أظنها فقط في الدراما كنوع من الجذب والإثارة للمشاهد لكنني لم أكن أوّمن بها في الحقيقة لكن بعد الاطلاع علي حوادث التاريخ أيقنت لحظة أن واحدة قد تكون هي الفارقة في حياتك .

انطلقت الصافرة مُعلنة قيام القطار و رغم أن السفر بالطائرة أكثر راحة و رفاة إلا أن القطار تجربة لها مذاق خاص و خاصة أنها قادتني للحظات الفارقة ، أخذ القطار يتحرك و كل شيء يمر بجواري مثل شريط سينمائي وبدأت استعيد الأحداث لحظة بلحظة حتى وقتنا هذا لربط الأمور والبداية كانت قدرا ثم قادني حدسي ، ظننت

أول الأمر أنهم استطاعوا العبث بأبراج التقوية للتجسس علي الهواتف لكن وجدت أن الفكرة معقدة و بها قدر كبير من المخاطرة و التكاليف أما الذي لم يكن من الممكن أن يخطر بعقل هو المزج ما بين فكرة بدائية و مقتضيات العصر ولن تكلفهم شيئاً عن طريق التحكم في لمبات التنبيه الحمراء الخاصة بأبراج التقوية لبث رسائل بطريقة شفرة موريس تحوى كلمة سر لأحد المواقع السرية على شبكة الإنترنت يتيح هذا الموقع للشبكة أن يتصل أفرادها ببعضهم البعض دون أن يعرف أحد أفراد التنظيم بقية زملائه بما يسمى بالتنظيمات العنقودية فيظل التنظيم مُحكم السرية و إمعانا في الأمر ، الموقع ليس متاحا للجميع بل لكي تصل إليه تحتاج للاشتراك بموقع إحدى الصحف المعروفة المحددة سلفا التي يقوم القارئون علي الموقع فيها باختراق أجهزة جميع المشتركين بإرسال حزمة من الملفات التي نادرا ما تتعرف عليها برامج الحماية من الفيروسات

علي أنها خطر قادم من الانترنت ، تحتوي هذه الحزمة علي رابط نشط ينقلك إلى موقع آخر خلاف موقع الجريدة ، الفرد المدرب يمكنه بسهولة التوصل للحزمة و استخدام الرابط بمجرد الضغط عليه ينقله تلقائيا إلى الموقع المطلوب فيتم الولوج بكلمة السر التي تُبث عبر الومضات الخفية ، تنظيم متكامل و فكرة شيطانية تخدم أهدافهم فإن سقط الموقع تحت يد السلطات بأي حال سيحتاجون وقتا للدخول إليه بدون كلمة السر ، قد يكون هذا الوقت كافيا لتفقد المعلومات أهميتها فعامل الوقت هو الأخطر ، أما إن تم التوصل للرسائل التي يتم إرسالها عبر الومضات فلن يخطر ببال أحد أن أمرا كهذا يجري على أرض الواقع و خاصة أنه يتم التبديل ما بين صحفتين معروفتين ، بدت المسألة أشبه بمشاهدة أحد سلسلة أفلام جيمس بوند التي لطالما أبهرتنا و نحن صغارا لكنني اكتشفت أن الحقيقة قد تكون أغرب من الخيال . . . يتوه الأثر و تصعب الملاحقة

ويبقى السؤال كيف يمكن تنفيذ الفكرة من دون وجود
"عوض" مدير عام الصيانة بشركتي الذي أقلقني خروجه
من حجرتي وانشغل بمحادثته التليفونية فلم ينتبه لوجودي
وسمعه يقول : " يا فندم كل شيء تحت السيطرة وتم
نقله لمطروح ليكون تحت السيطرة " فهل أنا المقصود !!!
أبعد الهاتف عن أذنه بضيق و بدا واضحا صوت
الطرف الآخر الذي أخذ يزجر وهو يوجهه فانتبه وقتها
لحضورى المفاجئ و حاول إخفاء ارتبائه بأسلوب
السخرية قائلا : " مراد بهذه السرعة ذهبت و رجعت "
فبادلته الابتسام وقلت بهدوء : " سأحضر بعض
أغراض شخصية لي هنا وسألق بالقطار "
فرد بدهشة أكبر : " قطار . . . ! و ماذا عن رحلة
الطيران "
فقلت له : " متشكر أفضل أن تكون رحلتي
بالقطار " مط شفتيه مستنكرا وقال :

" الأسرع دوما هو الأفضل لكن يبدو لي أنك
تفضل الطريق الصعب "

ثم تنحي جانبا عن باب الحجرة و هو متأكد بأنني
سمعت طرفا من المكالمة و شاهدته و هو خارجا من
حجرتي ، محا ابتسامته السخيفة و تركني تتلاعب بي
الظنون التي اشعر بأنها تأكدت بان قرار نقلى إلى مطروح
مُتعمد و ورائه يد خفية تعبث بالأمور و الأغلب أنها هي
المشتري الغامض لشركتنا و من له مصلحة السيطرة علي
الأمور غيرهم لكن يبدو أن قواعد اللعبة بدأت تتغير و
تختلف لأنهم بدأوا بالظهور إلى النور بدلا من الاكتفاء
بالمراقبة في الظل فهل أخبر السيد / رأفت بشكوكي و
مخاوفي أم أنتظر إلى حين . . . " لقد كانت لحظة فارقة "

.....
.....
.....

اقتربت الشمس من المغيب و أخيرا سيرتاح القطار
من رحلته الطويلة التي قطعها من القاهرة إلى محافظة
مطروح لكن عقلي هو الذي لم ينعم بالراحة بعد و كنت
أتمنى أن أصل إلى أقرب سرير لأنال قسطا من الراحة
لأعاود نشاطي و لم يكن في الحسبان أن أمامي رحلة أخرى
بالسيارة عبر محافظة مرسى مطروح لمنطقة سيدي برانى
حيث توجد استراحة الشركة التي تم شرائها منذ قريب
لتكون النواة لتأسيس فرع ثابت للشركة في هذا الموقع
النائي .

تأففت كثيرا بعد المكالمة التي وصلتني لما علمت
أنني علي انتظار مُختار السائق لأنه عادة ما يتأخر علي
مواعيده فجلست باستسلام علي أحد مقاعد المحطة
فخيب ظني هذه المرة و حضر سريعا علي غير عادته لكن
كان هذا لغرض في نفسه فهو لم يكن يفضل أبدا زيارات
القادمين من العاصمة لأنها غالبا ما تكون تفتيش .

استقبلني بالترحاب و البشر و أثنى علي كثيرا و بمجرد ما دارت السيارة علمت السر في قدومه مبكرا بدون أي تلكأ بعدما علم بأن فرعا جديدا للشركة سيؤسس هنا و أنني سوف أتولي الإشراف على الفرع و كانت هذه فرصته الوحيدة ليغير مساره و يعمل في مجال الصيانة و خصوصا أنه لديه خبرة كبيرة بالمجال من خلال دراسته و الاحتكاك المباشر مع الفنيين طيلة الوقت الماضي لكنه عندما تقدم للعمل بالشركة لم تكن الشركة بحاجة وقتها لفنيين و احتاجت إلى سائقين فتقدم للوظيفة آملا في تغيير مساره فيما بعد و تقدم بأكثر من مرة بطلبه لإدارة الشركة لكن المهندس عوض لطالما كان يرفض طلبه و أخذ يثرثر كثيرا عن الفنيين الذين معظمهم لا يعلمون شيئا و يرجعون له لمشاورته في بعض الأعطال التي قد تواجههم و لا أنكر أنه لا بأس بخبراته و قد شاهدته بنفسه أكثر من مرة يبدي رأيه في بعض الأمور الفنية لكن يبدو أن عوض

ربما رفض ذلك لأنه ثرثار و بالتأكيد خاف من ثرثرته تلك
لكنني وعدته بمساعدته و التوسط لدي الإدارة ففرح كثيرا
بهذا لكن حواسي الحذرة كانت في اشد حالات الاستنفار
و أطارت النوم من عيني و ظل يقود بعدها مختار في صمت
و الصحراء تحيط بنا من كل جانب خلا الطريق الأسفلتي
يشق قلب الصحراء و كل ما حولنا خلاء و أخذت أفكر
في كل هذه المساحات الشاسعة و هذا المكان البكر الذي
يحتاج إلى التعمير حتى مررنا أمام منطقة جميلة أمامها
مساحات مزروعة بالورود و الزهور عبارة عن فيلات و
شاليهات و بعض القصور على البحر و أظن أن منزل
أسرة ليل يقع في هذا المكان ، كان المكان أشبه بواحة
صغيرة انبعثت من قلب الصحراء .

فسألت مختار عن هذا المكان فقال لي : " المنطقة
كانت قبل سابق خرائب و لا يوجد بها سوى بعض
العشش المتفرقة للصيادين أو خيام للرعاة و العفاريت "

فضحكت كثيرا علي كلمته و قلت له : " عفاريت
... ما عفريت إلا بني آدم يا مُختار "

فأخذ يقسم لي بأغلظ الأيمان بأن عفاريت العسكر
الألمان والطيالان والإنجليز تجوس في المكان و قد اختطففت
العفاريت الكثير من الناس و أن هذه الصحراء تعج
بالكثير من الأسرار و أخبرني بأنني إن لم أكن مصدقا
لكلامه فسويلم هو الفصل بيننا فأبأته و أجداده من البدو
عاشوا في هذا المكان و عاصروا كل هذا ، فقلت له " إذا
كيف تم بناء هذه المنطقة الراقية و لماذا لم تزعجهم
العفاريت ما دامت هي التي تسكن المكان "

فرد على علي الفور و قال لي : " جاءوا بالشيخ
مصيلحي لطرده العفاريت من المكان "

فقلت له : " يا مُختار أنت راجل مؤمن و متعلم
لا تردد هذه الخزعبلات فأنا جدي عمل ضابطا بهذا المكان
وقت الحرب العالمية الثانية و لم يخبرني بأي شيء كهذا و

عموما أنا أيضا أدت الخدمة الوطنية و كنت ضابط احتياط وكنت في حرس الحدود و سمعت مثلك الكثير و الكثير من القصص عن أرواح الإسرائيليين التي تهيم في الصحراء لتنتقم من جنودنا لكن كل هذه مجرد خرافات و الخوف في داخلنا نحن فقط "

لم يقتنع مختار بكلامي أبدا و أصر على وجهة نظره و أنه طوال عمره يعيش هنا في محافظة مطروح لأن أباه كان سائق بهيئة السكك الحديدية و استقر الحال بهم هنا و هو كبر و تربى في هذه المحافظة و هو أدري عني بما فيها ظلت هذه الحال إلى أن وصلنا إلى مقر الاستراحة و وقف سويلم في استقبالي كان الحارس المسئول عن المكان و أحيانا يعمل أيضا سائقا فمكان ناء كهذا لم يكن يحتاج إلى الكثير من العمالة .

بمجرد أن رأي مُختار وجه سويلم حتى صاح به :

" سويلم احكم بينا "

فاندهش سويلم من طريقة مُختار و لم أقدر علي
أن أتمالك نفسي من الضحك فرد سويلم على الفور بهدوء
: " مُختار . . . الباشمهندس حالا وصل و الطريق متعب
ليس هذا وقت مناقشة "

فقال له مُختار بحدة " لا أحكم بيننا . . . هنا في
سيدي براني يوجد عفاريت أم لا "

فضحك سويلم و قال له : " اهدأ يا مُختار . . .
العفاريت في كل مكان لكنهم لا يقدرُوا علي إيذاء
الآدميين نحن العفاريت يا زين ، و أنت يا مهندس لا تهتم
بكلامه هو مُختار أحيانا عقله يخرف و يقول كلام غريب ،
يا مُختار العفاريت نخوف بقصصهم العيال الصغار "

أثارت كلمة يُخرف و هدوء سويلم غضب مُختار
الذي انطلق مثل العاصفة الرملية فقد كان بحاجة إلى أبسط
الأسباب لينفجر فقال لسويلم بغيط شديد : " طيب . . .
بماذا تفسر رحلات الأجانب التي تضع في الصحراء و

تقيد دوما الجرائم ضد مجهول أو أنهم ماتوا تحت الكشبان
الرملية رغم أننا متأكدين أن المسألة لم تكن قضاء و قدر
بل هي العفاريت اختطفتهم لأنهم أزعجوها بسبب أعمال
الحفر "

تغير وجه سويلم و لم يخف على التغير البادي علي
وجهه فحول وجهه ناحيتي و قال لي : " لا تهتم يا
باشمهندس بمُختار ، هو كما تراه طيب جدا لكن
العفاريت عفرتوه " و أخذ يضحك لإنهاء الموقف .

فقلت له : " لا تقلق يا سويلم ما عفريت إلا بني
آدم . . . أنا اشتغلت في الصحراء وخبرت عفاريتها
وأنسها " ثم ابتسمت له وانصرفت لأنني كنت بحاجة
إلى الراحة .

.....

.....

.....

المكان الذي توجد فيه الاستراحة خلاب لأننا
بقرب البحر و تحيط الصحراء بنا من كل جانب خلا بعض
الرعاة من البدو يملكون بنا لإلقاء السلام علينا و جميعهم
يعرفون سويلم و يقدرونه لكن ما خفف عنى قسوة
الصحراء و المنفى أنني اعلم بأنني قريب للغاية من بيت
ليل و هي تبعد عنى بضعة كيلومترات لكنها الآن في أوربا
عند أقرباء أمها و تتصل بي من حين لآخر .

كان تأسيس فرع أمر شاق للغاية و لم تكن مهمة
سهلة رغم انه فرع صغير و عدد العمالة قليل حتى الآن
لكن كان هناك حاجة ماسة إلى الكثير من العدد و الأدوات
وبعض المعدات ليكون فرعا قائما بذاته و نكون مستعدين
لأي أعطال مفاجئة و لا نتعطل إلى أن تأتي المعدات من
العاصمة من المقر الرئيسي للشركة لذلك فقد تم الاتصال

بالشركة لتتصل بموردين من الإسكندرية لإرسال المعدات من هناك لأنها أقرب بكثير من العاصمة و انشغلت لمدة يومين بهذه التجهيزات و إثبات كل ما تم صرفه لأنها مسئولية و كنت أراقب في هذه الأثناء حركة سويلم لأن قلبي لم يطمئن له ، أنا أعرفه جيدا منذ أن كنا نؤسس الأبراج كان يعمل دليلا للشركة في الأماكن الصحراوية و ساعدنا كثيرا و هو شخص أمين لكن تغير وجهه يوم المناقشة أقلقني كثيرا منه و ساورني الشك تجاهه بشكل كبير و زاد الأمر عندما جاء خبر في التلفاز عن ميناء الإسكندرية و أن الاعتصام الذي فيه قد تم إنهائه و تحقيق مطالب العمال و وجدت بعدها أن سويلم انسل من بينا و قام بعمل مكاملة لأحد أقربائه و سمعت طرفا من كلامه و هو يقول له : " زين . . . زين ، متي تخرج الشاحنة من الميناء "

كلمة الميناء كان لها فعل السحر فأبي ميناء يوجد
بقربنا سوي ميناء الإسكندرية الذي تم إنهاء الإضراب
الحادث فيه منذ قليل لكن ما علاقة سويلم بهذا و أبي
شاحنة تلك التي ستأتي إلى هنا و أهمه أمرها ولماذا تغير
وجهه لما أتى ذكر الأجانب الذين جاءوا في رحلات إلى
هذه البقعة المجهولة ثم اختفوا في ظروف غامضة . . . ثم
ندت عنى ضحكة لم أقدر علي كتمانها فقد أيقنت أن لعنة
الومضات قد أصابتني و أن وعدي للسيد/ رأفت ذهب
أدراج الرياح و لأول مرة في حياتي أكسر وعدا .

انسللت خلف سويلم لأعرف إلى أين سيذهب
فأحس بأن هناك من يتبعه و ظن في البداية أن مختار هو
الذي ذهب ورائه لكنه فوجئ بوجودي و قال لي : "
المهندس "

قلت له : " نعم . . . خير يا سويلم إلى أين "
فرد علي بجفاء : " و ما شأنك أنت "

فقلت له : " يا تري شحنة الميناء وصلت و لا
بالطريق "

فرد علي : " شحنة . . . أنت شكلك فهمت غلط
يا مهندس ، هذه تجهيزات لزواج ابنتي "

فابتسمت له بهدوء و قلت له : " مبروك ، عظيم
سوف أبقي لأساعدك في إنزال شوار العروس "

فقال لي : " لا . . . لا ما أحب أتعبك يا
مهندس ، أولاد العم كافيين "

فقلت له : " سويلم . . . عملك مع الأجانب قد
يُعرض حياتك للخطر و لن تكون العقوبة الحبس بل
ستكون هذه المرة الإعدام "

قلت الكلمة كمن يلقي حجرا فوجدتها صادفت
منه موضعا فبحظت عينيه بشدة بعدما سمع كلمتي و
أصابته حالة من الذهول و تلعثم بالكلام بعدما شلت
المفاجأة ذهنه عن التفكير لما فوجئ بأنني أعلم بأن هناك

أجانب في المسألة وحاول أن يتماسك قليلا لكنه سرعان ما
انهار وقعد في موضعه ثم أخذ يقسم لي بأغلظ الأيمان أنه
برئ و أنه وجد أن الأجانب هم مجموعة من المهاويس
يبحثون عن مقبرة الإسكندر و التنقيب عن كنوزه فلم ير
ضررا لأنه يعلم أن قبر الإسكندر هو درب من دروب
الخيال و قد حاول الكثير من المكتشفين و المغامرين
الوصول إلى قبر الإسكندر و لم يفلحوا لكن طالما يجزلون
له العطاء و يدفعون في كل مرة فما الضرر من المسألة ،
إنهم يأتون لينفقوا ببذخ شديد و المسألة و ما فيها مجرد
مصدر رزق له و لأولاده ليساعده علي المعاش و
خصوصا أن الأولاد كبروا و أصبحوا في الجامعات ، لم
أكن أظن بالمرّة أن ينهار سويلم و يستجيب لي ليخبرني
بالحقيقة لكن يبدو أنه شعر بأنه تورط بشكل أو بآخر لذا
وجد أنه من الأسلم أن يخبرني ليتخلص من عبء
المسئولية و روي لي عن زيارات الأجانب للاستراحة و أنه

في البداية تعرف علي شاب مصري طلب منه المساعدة في البحث عن دليل للصحراء و يكون أمينا و لا يثرثر كثيرا و أنه علم من أهل سيدي براني أنه هو بوابة الصحراء و سوف يُجزل للدليل في العطاء ، بدا له أن هذا الشاب يبدو عاديا جدا مثله مثل هؤلاء المغامرين الذين يبحثون عن الكسب السريع و الشهرة و لا يوجد منه أي ضرر و من يومها و هو يعرف بأن هناك مجموعة من الأجانب قادمة إلى الصحراء و يقيمون معسكرهم فيخبرهم عن أفضل مكان يُمكن نصب الخيام فيه لتجنب الكشبان الرملية التي من الممكن أن تدفن معسكرهم بأكملها و يمدّهم بالطعام و الشراب اللازم .

توالت رحلات الأجانب الذين يأتون بصحبة هذا الشاب و لم يكن هناك ما يثير الشك فيهم ، يأتون لقضاء أوقاتهم في الصحراء و يبحثون ثم لا يصادفهم الحظ فيرجعون كما جاءوا و يأتي غيرهم و هكذا . . . حتى

اختفت إحدى هذه المجموعات في الصحراء و قيل أنهم
دفنوا تحت أحد الكثبان الرملية و أجرت السلطات
تحقيقاتها في الأمر و أرسلت أفرادا لموقع الحادث للبحث و
للتحقيق على أمل الوصول إلى أي ناجين لكن بلا فائدة
ثم تم تقييد الحادث ضد مجهول ثم جاءت مجموعة أخرى
عاد بعض أفرادها و البقية قيل أنهم اختفوا في الصحراء و
لم تهتم هذه المرة السلطات مثل أول مرة حتى أصبح الأمر
اعتاديا اختفاء بعض الأجانب في الصحراء و أخذ الناس
يقولون أن العفاريت اختطفتهم و لا أحد يعلم ماذا تخفى
الصحراء تحت رمالها التي بلا نهاية ، و ظل هكذا الحال
أما أغلب البدو يكرهون السلطات لأنها لم تفعل لهم
شيء و لا تقدم أي خدمات و كل ما سوف تفعله هو
تشديد إجراءات الإقامة و التنقل و هذا سوف يؤثر علي
الدخل الذي يأتيهم من الأجانب السائحين ، لكن سويلم
يعلم جيدا أن كل من يأتي إلى إقامة المعسكرات بهذه

الأماكن النائية بالصحراء يأتي بحشا عن كنوز الفراعنة و الإسكندر و الحفائر لكنه كان متأكدا بأن هؤلاء الأجانب مختلفين بعيدا عن الأنظار وقد أوهموا الجميع بقصة موتهم أو اختفائهم في الصحراء أو دفنهم أحياء تحت أحد الكثبان الرملية .

بدا سويلم متأكدا من معلوماته عن اختفاء الأجانب و أنه أمر متعمد وهو يعلم ذلك رغم أن ذلك الشخص الذي تعرف عليه لم يخبره بكل هذا لكنه استطاع أن يتأكد من هذا من خلال كمية المؤن المطلوبة منه في كل مرة فهو يعلم العدد القادم فلمن تكون المؤن الزيادة . . . إلا لزملائهم الذين لم يرجعوا لأنه كان أحيانا يأتي وحده و معه الكثير من المؤن . . و خمن تقريبا عددهم لكنه لم يحاول أن يتدخل فيما لا يعنيه فكل ما يعنيه الدولارات وطالما يجزلون له العطاء و لا يناقشوه في أي مبالغ يطلبها فسيظل علي عهده معهم .

علم سويلم منهم بأنهم بحاجة لمعدات حفر و تنقيب فعرض خدماته لكنهم أخبروه بأنهم في انتظار معدات خاصة لتساعدهم في مهمتهم سوف تأتي من الميناء فخمن أن مسألة الإضراب هذه لم تكن سوى أمر مُدبر لدخول المعدات الميناء و خروجها بعيدا عن أعين السلطات و شدد على بعدم إخبار أحد بهذا و أن يظل السر قائما بيننا لأنه أخبرهم بأن هذه هي آخر مرة سوف يساعدهم فيها . . . فقد بدأ يشعر بالتشكك في نواياهم .

فلما سألته عن السبب قال لي : " آخر مرة جاء الأجانب إلى الصحراء و كان معهم مجموعة من الرجال الأشداء هذه المرة فقط رجال و قبل سابق كانوا يأتون مجموعة مختلطة لكن هذه المرة بدا لي أن هؤلاء الأجانب أشبه ما يكونوا بمجموعة من الجنود قادمين لتنفيذ مهمة معينة فهم منظمين للغاية و وجههم صارمة و لا يتكلمون

إلا في أقل الحدود و لم يرجع منهم أحد و قيل لي أنهم جميعا دفنوا تحت رمال الصحراء أثناء عمليات التنقيب "

" المرة التي تليها جاء معي يا مهندس ، رجل روسي طويل و شعره أبيض و عصبي المزاج و معه رجل آخر آسيوي حاد الملامح قاسى الوجه و ثالثهم شخص مصري تبدو عليه علائم الهيبة و النفوذ و أخرجوا خرائط تفصييلة لكل نقطة في الصحراء لم يتركوا شيئا في الصحراء حتى أماكن حقول الألغام المذكورة ضمن الخرائط أو التي لا يعلمها سوي أهل الصحراء لكن هؤلاء لم تطل رحلتهم أخذوا بعض العينات من الأرض و تناقشوا ثم انصرفوا "

فسألته : " و ما العيب في هذا "

فقال لي بطريقة ذات مغزى : " هذه خرائط لا يمكن الحصول عليها إلا مكانها . . . من وقتها يا مهندس . . . عرفت انه سويلم المسكين ضاع بعد ما تورط في أمر

أكبر من قدراته و لا يمكن إخبار السلطات لأنها راح تقلب
الصحراء "

لقد علم سويلم بفطرته أن المسألة ليست سهلة و
أنه هؤلاء ليسوا مجموعة من الهواة و المغامرين بل أن
ورائهم هدف أكبر مما كان يظنه و مسألة اختفاء الأجانب
هذه حادثة مُدبرة من أجل هدف كبير يخططون له و لابد أن
هذا الروسي و الآسيوي هما الصيد المطلوب الذي وصل
التنبية بوصلهما إلى أرض الوطن . . . لكن كيف استطاعا
تحديد أماكن حقول الألغام بهذه الدقة المتناهية التي يرويها
سويلم و من أين حصلوا علي الخرائط ؟؟؟

ثم عاد سويلم ليشدد على نقطة معينة وقال : "
خصوصا الرجل المصري ذو العيون الزرق الصغار ، تحسه
صاحب النفوذ و أنه الأمر الناهي ، وقتها يا مهندس
علمت أن الأمر لن يمر علي خير "

قام مُختار علي أصوات الحركة التي حدثت بجوار
الاستراحة و خرج حاملا بندقيته ظنا منه أن هناك لصوص
وسمع كل ما دار بيننا ثم أخذ يصيح بحماسة : " أنا كنت
متأكد ، كنت متأكد انه لا يوجد أي عفاريت "

فضحكنا أنا و سويلم من طيبة قلبه لأنه لم ينس
بعد قصة العفاريت لكنه رد علينا بلهجة حاسمة و قد كسا
الجد وجهه وقال : " هذه الصحراء فيها فعلا عفاريت
لكن الأجانب أخطر من العفاريت أنتم لا تفهمون شيء "
أخذ سويلم يغمغم بضيق من كلام مُختار و قال
له : " إيش هذا الخرف الذي تقوله ، كيف يكون الأجانب
أخطر من العفاريت "

فرد عليه مُختار بصوت ملئ أشبه بالولولة و
قال : " الأجانب جاؤوا للبحث عن شيء أغلي من كنز
الإسكندر . . . جاءوا للبحث عن اليونيون .
" عارف ماذا يعنى اليونيون "

" اليونيون يا سويلم . . . "

obeikandi.com

الفصل الثالث عشر

بدا الأمر مثل كابوس فظيع يهاجمني بشراسة و
خدر رهيب في جسدي وبرودة في أطرافي و الم بمؤخر
رأسي يصب جام غضبه علي عيناى فأحاول أن أفتحهما
فلا أقدر أمام نور الحجرة و تظل الرؤية غائمة و مشوشة
بضع ثوان ثم أغمض عيناى لأنصت فسمعت لذلك
الصوت الخافت الحثيث فيبدو لي كشخص يستغيث :

" ماء . . . ماء " و تدريجيا
بدأت استعيد الإدراك و الرؤية و اتضح لي سر شعوري
بالبرودة هو أنني ممد علي أرضية الحجرة و أنا لا أذكر أي
شيء و لم أفهم كيف حدث ذلك استندت على أرضية
الغرفة لأحاول القيام من مكاني فشعرت برطوبة و بلل و
سائل لزج التصق بيدي أخذت أدقق فيه و انتفضت ،
لأجد سويلم غارقا في دمائه و بجواره عوض في الرmq

الأخير يطلب شربة ماء لكنني عجزت عن الحركة ،
أصابني شلل مؤقت بسبب المفاجأة فقد فتحت عياني علي
جشتين ممددتين بجواري عبثا حاولت المقاومة لكنني فشلت
ولم يخرجني من هذه الحالة سوى صوت حشرات
عوض المستنجدة فخشيت أن يموت قبل أن أأوله شربة
ماء الأخيرة و فوراً أحضرت له الماء و أسندت رأسه و
ساعدته ليشرب شربته الأخيرة وبدأ يلتقط أنفاسه ثم أخذ
يشير إلى جيبه و ظننت أنه يريد أن يوصيني بأمر ما ثم
حاول أن يتكلم لكن أنفاسه لم تسعفه فأخذ يشير إلى
جيبه و لم أكن أفقت من المفاجأة بعد فلم أستوعب فعاد
الكرة ففهمت أن هناك شيء ما بجيبه و بدأت بإخراج
الأشياء التي بجيبه فوجدت نقود ورقية و معدنية و حافظة
بلاستيكية فأشار إلى الحافظة فوجدتها تحوى عدة بطاقات
ائتمانية و في داخلها لفافة ورق قديمة و متعركة و يبدو أن
لها زمن في الحافظة ولم اعرها اهتماما و تركتها لحالها

فأشار نحوها بعصبية ففضضتها فوجدت فيها ثلاثة كروت
ذاكرة فابتسم بامتعاض ثم قال لي : " سر الصنعة . . .
حافظ عليهم مثل عيونك "

أتم كلماته و أسلم الروح و جحظت عيناه و لم
أفق من ذهولي إلا علي صوت خطوات ثقيلة تزدرع المكان
بالخارج فجلست أنصت في ترقب فقد كانت أعصابي
خائرة ولا أقدر على الحركة ، قرعوا الباب قرعا عنيفا
متواليا وتوالت النداءات تأمرني بفتح الباب للشرطة
لكنني لم أبالي فقد فهمت أنني سقطت ضحية مؤامرة و
قد سبق السيف العزل فأسلمت أمري لما سيحدث و
تركتها على خالقي .

بعد عدة ضربات تهاوي الباب محدثا دويا و قرقة
ولم أكن بحالة تسمح لي بالقيام من موضعي و جثة عوض
ترقد بين يداي لكنني تمكنت من إخفاء كروت الذاكرة
بنفس حيلته و وضعت الحافظة البلاستيكية في جيبتي و

دخل الجنود و أحاطوا بي من كل ناحية وجزء آخر أخذ
يفتش و أخذ الضابط يصيح فيهم ليتنبهوا حتى لا يفسدوا
مسرح الجريمة لأن الطبيب الشرعي قادم ، لكن من ذا الذي
أبلغ الشرطة !!!

أحاول في الطريق استيعاب الموقف لكن بدون
فائدة و الصداع يكسر عظام رأسي إلى هذه اللحظة لا أفهم
كيف حدث هذا كل ما أذكره هو حوارنا في المساء مع
سويلم و مختار عن العفاريت و اليورانيوم و هذا كان
مساء الاثنين فمتي حضر عوض و كيف يشير هاتفي إلى
أن اليوم الخميس فهل نمت كل هذه الفترة أم ما الذي
جرى؟!

أنزلوني من سيارة الترحيلات و تم اقتيادي إلى
الضابط المناوب الذي أخذ يسألني عدة أسئلة فقال لي : "
اسمك و سنك و عنوانك "

فقلت له : " أريد محام لن أتكلم إلا أمام محام "

الضابط : " هذه مجرد بيانات نحتاج إليها ، ليس أكثر و لن يتم التحقيق معك إلا من خلال ضابط المباحث ، لكن ما الذي دفعك لقتل مديرك و الحارس و السائق ، بالمناسبة السائق هو الوحيد الذي نجا ، تكلم من الممكن أن نساعدك ؟ "

" واضح أنك لا تنوى علي الكلام عموما غدا يتصرف في أمرك حسام بيك لكن يبدو لي انك ابن ناس و لست من الأشكال التي نراها يوميا "

كانت حالة الذهول لا تزال تسيطر علي و أشعر أنني في كابوس رهيب ولا بد أن أفيق منه في أي لحظة و تعود حياتي لسابقها لكن هيهات . . . فقد أفقت علي يد قوية تسحبني ولم يكن سوي أحد الجنود يقودني إلى الحجز فخطر ببالي وقتها أن أسأل الضابط كيف عرفوا بأمر الحادث ، فرد علي بنفاذ صبر قائلا : " هناك شخص اسمه مُختار هل الذي أبلغنا و هو الآن محجوز بالمستشفى

العام بسبب طلقة رصاص نافذة و هو بين الحياة و الموت و هو الشخص الوحيد الذي نجا إلى الآن ، أي أنه لا أمل لك "

أمسكت رأسي من شدة الصداع لكن الضابط أشار إلى العسكري ليسوقني نحو الحجز الذي وأخذ يدفعني بعنف وفُتح الباب فصدر عنه صرير مزعج أثار القشعريرة في نفسي و فاحت من الداخل روائح نتنة و بمجرد أن دخلت ذلك الجب العميق شعرت بجيوش من القمل تهاجمني بضراوة ثم نظرت إلى الوجوه البائسة التي يبدو عليها الإجرام تتأملني بشراسة و قسوة كأنها تستعد لالتهامي فانتحيت في جانب و جلست في هدوء و ترقب لأنني مستعد لأي سوء يصدر عنهم ، لكنهم لم يهتموا لأمرى بادئ الأمر و دون قصد منى لم أقدر أن امنع دمعين نزلتا بحرقة على وجهي ، أجلس في ظلمة الحبس و تحيط بي تلك الوجوه الكالحة و أشعر بأن تلك الجدران

الأربعة تطبق علي صدري . . . أحاول أن أفهم كيف جري هذا و كيف قتلوا عوض و كيف اهتمدوا إلي و حتى الشاهد الوحيد على براءتي بين الحياة و الموت ولو حتى عاش فلن تتركه الشبكة ليعيش أخذت أقول لنفسي ها أنت هنا يا مراد في هذه الشدة تبكي وحدك و تتألم وحدك لا أحد بجوارك و عليك الآن أن تخرج من هذا المأزق وحدك ، و كل هذا سببه فضولك الزائد لولا زيارتك لمطروح ما كنت لاقيت كل هذا النصب و الآن عليك أن تخرج من هذا المأزق وحدك و شعرت بجدران الحجز تضيق علي تخنقني و بات الوضع معقدا ثم ذكرت كلمات الشيخ عبد السلام و المنام الذي لطالما تكرر كثيرا و كأنها رسالة إلهية بأن من بعد الضيق فرج و من بعد العسر يسرا و أن العسر واليسر متلازمان هذا هو تأويل الرؤيا أجلس وحيدا في مكان مظلم ضيق حرج و تنزل دموعي في صمت من شدة الألم الذي أقاسى ثم يأتي بعدها الفرج

لكن من اقترّب مني جذبني من ملابسي بشدة وقال لي
بعنف : " أخرج ما معك "

فدفعته بخشونة و رددت عليه بصبر نافذ : " إليك

عنى "

فاغتاظ من أسلوبى وأمسك بتلابيبي مرة أخرى
فقد أهنته أمام المحبوسين الآخرين و بهذا سوف يفقد
هيئته و السيطرة علي الحجز ، و إما أن أهزمه أو يهزمنى و
أضطر لدفع الإتاوة مثل الآخرين و أحتمل سخافاتهم
هكذا كانت الحال في الحبس البقاء للأقوى و إما أن تثبت
قوتك و أو تقبل بالذل ، كان خصمي يفوقني جسمانيا
بالإضافة إلى أنه فارع الطول لكنه لا يعلم أن حميد علمني
الكثير من حيل الايكيدو و بركة سريعة أطحت بذراعه و
أمسكت برقبته فحاول أن يوقعني أرضا بضغط وزنه
لكنني عاجلته بضربة خلف ركبته أفقدته التوازن فلم
تحمله قدميه فسقط بين يداي وتمكنت من إحكام قبضتي

علي فمه فقد توقعت أن يُخرج شفرة من فمه و قد كان لما استمررت بالضغط صرخ بسبب الشفرة التي كان يحتفظ بها في فمه حاول أحد المحبوسين التدخل لمساعدته فركلته بقدمي فأطحت به فاصطدم بالحائط و لم يقم من مكانه ثم أمسكت بتلابيب خصمي و رفعتة ثم ضربته ضربه أطاحت به فأخذ البقية يضحكوا عليه فارتفع صوت خشن مُنكر في الحجز و قال " سمع . . . هس ، ثابت يا محبوس منك له " فسكت الجميع و كفوا عن الضحك

اقترب صاحب هذا الصوت النكير و أخذ يدقق في ثم تراجع بدهشة وأشار لزميله ثم اقتربوا و دقوا الأرض لأداء التحية العسكرية فاستشطت غضبا من تصرفهم لأنني شعرت وقتها أنهم يهزؤون بي ثم قال لي أحدهم بلهجة ودودة : " سبحانك يا ربي مصر غرفتين و صالة ، أهكذا تنسي أخوتك الصغار يا ريس مراد . . . ، فرقة الأشقياء يا ريس "

إنها أغرب مصادفة قد تحدث لإنسان و تجمععه بمن
فرقتهم الأيام أخرى فقد افترقنا لنا زمن منذ أن انهينا
الخدمة الوطنية و صار الاتصال تليفونيا ثم ضعفت الصلة
تدريجيا و لم أسمع عنهم شيئا لكن لا أقدر علي نسيانهم
أبدا فقد كانوا من أفضل الرفاق ، ثلاثتهم كانوا من منطقة
واحدة اجتمعوا علي الحلو و المر و ربطتهم صداقة العمر و
الكثير من أمور البلطجة حتى انتهى بهم الطريق إلى قسم
الشرطة و علم الضابط بأنهم متهربين من أداء الخدمة فتم
ترحيلهم علي الفور و هناك بدأت رحلتي معهم ، كانوا
مجموعة مميزة بالبرغم من كل هذا الشر إلا أن البذرة طيبة
كانت موجودة بداخلهم و تحتاج إلى من ينميها و الظروف
القاسية التي عاشوا فيها هي التي دفعتهم إلى طريق الجريمة
سواء البطالة أو استغلال أصحاب العمل فقد تنقلوا في
أكثر من مهنة و أغلب الوقت كانوا يعملون سائقين لكن
مع الانتخابات يتحولوا إلى بلطجية انتخابات و استحبوا

هذا الطريق السهل للكسب ورغم ذلك كان هناك بهم شيء من الشهامة فلم يعتدوا علي ضعيف أو يسلبوا محتاج لكن الحياة العسكرية تختلف عما كانوا فيه لما فيها من انضباط لم يعتادوه من قبل لكن الأمر لم يدم طويلا و بعد فترة تأقلموا مع الوضع و استفادوا منه أيما استفادة و لأنهم مجموعة مترابطة فكان المجندين يحسبون لهم حسابا و أصبح لهم علاقات تربطهم ببعض صف الضباط و الضباط و يقدمون لهم الكثير من الخدمات و كل هذا بمقابل مادي أو الحصول على بعض الامتيازات و أطلق عليهم اسم فرقة الأشقياء و كنت لا أزال جديدا بالوحدة ليس لدي علم بكل هذا و بدأ الصراع معهم و في كل مرة يفلحوا في الإفلات بفعلتهم و لأنني كنت ضابط احتياط فنظرة المجندين دوما لضابط الاحتياط على أنه مجند مثلهم لكن برتبة أعلي و سرعان ما ستمر الأيام ويعود مدنيا مثل باقي المجندين لذا كانوا فقط يخشون الضباط العاملين و

معظم ضباط الاحتياط يفضل قضاء فترة تجنيده بهدوء بعيدا عن أية مشاكل خشية التأخر في الخروج لكنني لم أقدر علي السكوت عن الأمور الخاطئة و حدثت عدة مشكلات كانوا طرفا فيها و كل مرة كان يفلتون من العقاب بسبب علاقاتهم بالكل حتى أمكنني الإيقاع بهم و كان بإمكانني تقديمهم للمحاكمة لقضاء مدة بالسجن خاصة أنهم حاولوا ضربي لكنهم تلقوا درسا قاسيا و رفضت تقديمهم للمحاكمة و تم حل المسألة بشكل ودي بعيدا عن القيادة فلم ينسوا لي هذا الجميل و تحولت العداوة إلى رابط ثقة و احترام و حكوا لي عن ظروفهم التي دفعتهم لهذا الطريق و استعنت بهم في أحد المهام لشجاعتهم التي تم ترقيتي فيها ترقية استثنائية و أمكنني بعد انتهاء خدمتهم التوسط لإلحاقهم كسائقين بهيئة النقل العام و ما ساعد في ذلك عدم وجود سجل إجرامي لهم ثم

تاھت بنا دروب الحیاة و أصبح الاتصال بیننا ضعيفا حتى
انقطع و قد جمعتنا الدنیا هنا مرة أخرى .

بعد ترحیب حار لم یکن هناك ما یقال فوجھت
لكن جمعة مال علی وقال : " ما الأمر یا ریس مراد . . .
لقد عرفنا من الشاویش أنك قتلت شخصین و الثالث فی
المستشفی وبصراحة المسألة غریبة علینا بعض الشیء . . .
نحن نعرفك عز المعرفة "

زمت شفٹای و تنهدت بحرقة و قلت له : " یا
جمعة الحکایة کبیرة أكبر مما تتخیل و لیست معركة فی حارة
أو شجار "

فرد علی المطرود بحماسة شدیدة : " یا ریس نحن
معك فی أي شیء ، العشرة لا تهون إلا علی ابن الحرام و
أنت تعلم تماما أننا أولاد بلد و الشهامة طبعنا "

ترددت فی البداية أن أقص علیهم القصة فالأمر
لیس هینا فأمن الوطن كله یتعلق بحکایتی لكننی أعلم أنهم

برغم كل أمور الشقاوة أنهم وطنيين و قد اجتزنا مع بعضنا
العديد من الأمور الصعبة لكن اليأس الذي اجتاح نفسي
وحالة الضياع دفعتني للفضفضة و علمي أن رفاق الجندية
هم أفضل رفاق فقلت لهم علي مضض : " هذا ما أعرفه
عنكم لكن يكفي شئ شخص واحد ثم كيف و نحن هنا
بالحبس لا نعلم ما هو مصيرنا "

فقال الثلاثة بحماسة شديدة: " نحن معك مثل
الأيام الخوالي ، هل نسيت وقتما قبضنا علي أحد المهربين
و أصيب المطرود و أنت تبرعت له بدمك نحن يا ريس علي
الحلوة و المرة "

كلماتهم أعادت الحياة لنفسي و شجعتني بأن
أقص عليهم قصتي مع الومضات الخفية و كيف وصل بي
الطريق إلى هنا و حوارى الأخير مع مختار و سويلم و
كيف ضحكنا علي كلمة مختار اليونيون " و أننا لم نفهمها
حتى شرح لنا أنه إن كانت الحكومة بصدد إنشاء محطة

نووية بالضيعة فهي تحتاج لمصدر قريب لإمداد المحطة بالطاقة التي بالتأكيد هي هنا في هذه الصحراء وهذا هو سر مجيء الأجانب إلى بلدنا فاعتدل جمعة من موضعه ثم قال لي بنبرة جادة : " و بعدها يا ريس مراد ماذا حدث " فقلت له : " بعدها لا أعرف بعدها ذهبت لأنام و في صباح اليوم التالي اتصلت بالسيد/ رأفت " فقال لي كمال : " يا ريس مراد للأسف أنت التقطت الطعم و مُختار هو الخائن " فرد عليه المطرود : " يا بني . . . أنت غبي . . . إنه يرقد بين الحياة و الموت " فاستطرد كمال قائلاً : " بالعكس . . . شخص مثل مختار ما هي فكرته عن اليورانيوم و الطاقة النووية ، مُختار الخائن لأنه الناجي الوحيد هؤلاء محترفين لا مجال للخطأ في عملهم "

فقال له المطرود " و المستشفى العام . . . و حالته
الصحية "

فقال له جمعة " ما حكايتك يا مطرود اليوم الطبيب
وغيره يمكن رشوتهم بسهولة ولا أنت نسيت أيام
الانتخابات "

فضحك المطرود و قال : " كانت أيام حلوة . . .
والآن شهادة مختار تعني إعدام الرئيس مراد و أنه مجنون و
لن يصدق أحد قصته عن الجواسيس . . . آه يا أولاد
العفاريت "

فقلت لهم بمرارة : " كيف غاب هذا كله عن
ذهني . . . نعم سويلم أخبرني أن خرائطهم أدق من أي
خرائط شاهدها قبل ذلك ، لكن من هو الثالث الذي كان
برفقتهم "

فقال لي كمال : " و يبدو أن عوض أصبح يعرف
الكثير لذا تم قتله فقد كانت آخر كلماته عن سر الصنعة و

أعطاك كروت الذاكرة التي أخفاها مثلما أخفى الشبكة
ويبدو أنه تم تخديرك ليومين حتى يصل عوض لمقر
الشركة ويتم التجهيز للأمر وأظن انه عند عرضك علي
النيابة و إجراء التحاليل لك بالمستشفى سوف يجدوا أثر
لمواد مهدئة ولا تستبعد أن يشهد أحد الأطباء النفسيين و
يقول أنك كنت أحد مرضاه "

أخذت أضرب رأسي بجائط الحجز ثم سقط بين
ركبتاي لقد اكتملت كل خيوط المؤامرة و لا مجال للهرب
و شعرت بالأسى علي حالي والعجز وكم كنت مغفلا و
بعد اقترابي من الحل و الإمساك بالخيوط دارت الخيوط
حول رقبتى لكن الأشقياء لم يسمحوا للأفكار السوداء
بأن تستمر و نظروا لي و ابتسموا بمكر فأننا إلى الآن لم
اسألهم عن سر مجيئهم إلى مطروح و لا كيف تم القبض
عليهم و إجاباتهم كانت غامضة و جمعة قطع الكلام

بوقوفه المفاجئ ثم أنشد بصوته الجمهوري مثل أيام الخدمة :
" رسمنا علي القلب وجه الوطن "

لم أملك سوي أن ابتسم لرفاق الجندية المخلصين
ولحديث الذكريات و أشرق أمل في روعي في حين اندهش
بقية المحبوسين و نظروا له بغرابة فركلهم كمال بازدراء و
قال لهم : " غني يا جحش منك له . . . شيء من الوطنية
يا بهائم " و عاد جمعة و المحبوسين يرددوا خلفه : " رسمنا
على القلب وجه الوطن ، نخيلا ونيلا وشعبا أصيلا ،
وصناك يا مصر طول الزمن ، ليبقى شبابك جيلا فجيلا ،
على كل أرض تركنا علامة ، قلاعا من النور تحمى
الكرامة "

كان للنشيد الوطني فعل السحر و سرت حالة
جميلة من الحماسة في الحجز لكن لم يكن الكل يحفظه فقط
الذين أدوا الخدمة الوطنية و البقية كانت تردد علي نغمتهم
لكنهم كانوا سعداء ربما ذكرهم بإنسانيتهم التي فقدوها و

أهدرها الحجز لكن كل المحبوسين كانوا يرتبون على
كتفي بود و عادت لذاكرتي وقتها دروس السيد / رأفت
في التاريخ العسكري أيام الخدمة عن حب الوطن بأنه أمر
فطري في كل فرد و حب مصر هو أمر غريب فما من
شخص عاش بهذه الأرض الطيبة إلا أصبح جزءا لا
يتجزأ منها و هي في كل قلب كل مصري ، حتى بقلوب
هؤلاء الأشقياء المجرمين فهم ليسوا إلا أفراد ضلوا الطريق
السليم لكن حين عرفوه و أصبح عندهم هدف واضح لم
يحدوا عنه و التاريخ العسكري يُخلد استبسال فرقة
الأشقياء في حرب التحرير في أكتوبر ٧٣ و التي كان
قوامها من البلطجية والأشقياء الذين تم تجنيدهم وقت
الحرب ثم تحولوا لمقاتلين حقيقيين عندما وجدوا هدفهم
فاستبسلوا في الدفاع عن تراب الوطن و استشهد الكثير
منهم و أثبتوا أنفسهم ، هزت الأنشودة قلوبنا و أنفسنا و
اندفعنا ننشد بحماسة وضج الحجز بصوت المحبوسين و

نسيت تماما أمر جبل المشنقة أو مستشفى الأمراض النفسية
والعصبية بالعكس لقد ارتفعت روعي المعنوية و تيقنت أن
شدتي ستنفرج قريباً . . . و لم ننتبه إلا علي صوت
الشاويش قادم لفتح باب الحجز ثم صاح فينا " إنتبأاااااااااااه
، يا محبوس منك له ، يا سلام عليكم أصبحتم وطنيين "
فضحك الجميع ثم قال له جمعة : " ما المشكلة يا
شاويش . . . هذا نشيد الجيش "

فدخل على أثره ضابط المباحث الذي يحسب الكل
حسابه رغم أنه أتي حديثا إلى محافظة مرسى مطروح و ذاع
صيته بعدما أستطاع الإيقاع بأحد تجار المخدرات الخطرين
، فوقف الجميع له و اخذ يتفقد وجوه المحبوسين و
يدفعهم بشراسة و عنف ليدقق في الوجوه و يعرف من هو
الشخص الجديد الذي خلق هذه الجلبة و أوعز لهم القيام
بهذا فإن بدأ الأمر بالإنشاد فسوف يتحول بعدها إلى ثورة
وشغب قد لا يقدر أن يُسيطر عليه .

لم أتبين ملاحه جيدا في هذا الظلام الذي يحيط بنا و
الإضاءة الضعيفة لكن بدا أنه هو الذي يدقق في ملاحي و
هو الذي عرفني عندما اقترب أكثر و تراجع ملدوغا و هو
يقول: " مراد !!! "

الفصل الرابع عشر

يأبي اليوم الرحيل و لا يكتف بما قاسيته ليعث لي
بمفاجأة أكثر قسوة مما مررت به فضابط المباحث الشرس
المنقول حديثا هو صديقي حسام شوقي ، كم تمنيت وقتها
أن تنشق الأرض و تبتلعني و لا أواجه موقفا كهذا لكنها
الحياة التي تجمعنا بدون مواعيد فأنا تم نقلى بشكل مفاجئ
و انشغلت في إجراءات تأسيس الفرع و لم يعرف أحدا
بنقلي سوي حميد لأنه كان يرافقني طوال الوقت كذلك
حسام ترقى وفوجئ بقرار نقله ثم جمعنا الحياة هنا مرة
أخرى .

جلس و الدهشة ملء عينيه و طلب لنا فنجانين من
القهوة و أخذ يضرب كفا علي كف متعجبا من حال الدنيا
التي جمعنا بلا ميعاد و هذه الحالة من الوطنية التي انتابت
المشبهين كيف كفوا عن الشغب بفضلى و استشعرت

بشيء من نبرة السخرية في كلامه و بدأ التغير علي وجهي
فلما أحس بذلك كف عن ذلك وقال لي بحنو : " صديقي
ما الذي ورطت نفسك به أيها الأحمق فأنا أعرفك جيدا "

تملكتني رغبة شديدة في البكاء و أن أصرخ بأعلى
صوت فقد سقطت في فخ نصب لي و لا أعرف كيف أنجو
منه ، غالبت الدمع و سيطرت على نفسي لكن نبرة صوتي
خرجت متهدجة و مرتعشة و قلت له : " حسام أرجوك لا
تسألني عن أي تفاصيل المسألة أعقد مما تظن و من تورطت
في عداوتهم لا يعرفون التردد في سحق أي شخص قد يقف
في طريقهم "

حاول حسام أن يعترض بحكم أنه رجل قانون و
قال لي : " لا أحد أعلي من القانون يا صديقي و إن كان
هناك بعض الأوضاع المعكوسة ، فصدقا لن تدوم "
فقاطعته بشيء من الجفاء و لم أسمح له بأي أسئلة
لكن ثقته بي التي لم تنزعزع للحظة هي ما طيب خاطري

و جعلتني استرد روعي مجددا فمن الطبيعي أن يتسرب
لنفسه الشك بحكم مهنته و خصوصا أن كل الأدلة تشير
نحوي .

ربت علي كفه بود ومسحت دمعة قد فرت من
عيني و قلت : " حسام من فضلك لا تعتبر المسألة
شخصية كل ما أحताجه هو أن أتصل بالسيد/ رأفت ، و
ابلق حميد بالورطة التي وقعت فيها ، و احرص على عدم
تسرب الخبر لوالدي "

أخذ حسام يعث بالأقلام التي أمامه في عصبية و
هو يستشعر حسام الحالة التي أمر بها لكنه لم يكف عن
محاصرتي بالأسئلة و لم أعطه جوابا شافيا لأي شيء لم
يكن يهدف من هذا سوي لإنقاذي من ورطتي التي أمر بها
، ثم استفسر عن السيد/ رأفت فأخبرته عنه و عن العلاقة
التي تربطني به من أيام الخدمة الوطنية و بحركة لا إرادية
تحسست مكان حافظتي التي تحوي كروت الذاكرة و قلت

في نفسي لحسن الحظ أنه لم يتم التحفظ على متعلقاتي الشخصية .

ثم دق الباب و أدخلوا لنا القهوة فشربنا و تحولنا للأحاديث الودية بعيدا عن أمر القضية ثم عاود الأسئلة مرة أخرى ثم انتفض غاضبا و قال : " الأوغاد ، قل لي من ضايقتك بالحجز "

فقلت له " اجلس يا حسام ، لقد نالوا كفايتهم لا تقلق علي ، و أرجوك تعامل معي بشكل طبيعي تماما كأني متهم عندك "

فقال : " لن تتغير أبدا ويبدو أنك كونت صداقة مع مجموعة العفاريت "

فقاطعته و قلت له : " بل الأشقياء . . . جمعة و المطرود و كمال "

فرد بشيء من المكر : " بهذه السرعة تعرفت علي أسمائهم . . . و صار بينكم صداقة بهذه السهولة !!! "

فابتسمت في نفسي و قلت له : " يبدو أن المهنة غلبت عليك يا صديقي ، اطمئن هم رفقاء الجندية " قلتها بحسن نية و لم أحسب لها حسابا لكنه همهم و قطب جبينه و قال لي :

" صديقي الغالي اعذرني في هذه الحالة سأضطر لفصلك عنهم و ستنام في مكتبي للصباح "

فابتسمت لأنني استوعبت ما دار بعقله كرجل أمن واستوضحته عن قصتهم فبدأ يسرد لي : " منذ فترة و هناك عملية تنسيق ما بين إدارة المباحث و حرس الحدود لملاحقة أنشطة التهريب المتزايدة عبر الحدود الغربية للبلاد و لوحظ أن النشاط التهريبي هذه الأيام لم يصبح مرتكزا علي السلع الاستهلاكية أو الكمالية التي يحتاج إليها المواطن بل تطورت المسألة إلى تهريب أجهزة تصنت و كاميرات يتم صنعها في دول جنوب شرق آسيا و تباع بأثمان رخيصة وهذا ما شجع علي رواجها ، و تدخل إلى

العاصمة عبر سيارات الأجرة القادمة من مركز السلوم و
من السلوم إلى مركز مطروح و من مطروح إلى العاصمة و
تحت هذا الستار الذي لن يتشكك فيه أحد و يصعب
إحكام السيطرة عليه لكن الإدارة اشبتت بهؤلاء الثلاثة و
كل مرة يتم إيقافهم لا أجد معهم شيئا فيبيتون الليلة في
الحجز ثم أطلق سراحهم و كما تري أصبحوا ضيوفا
مستدامين لكن هذه المرة أصبح عندي دليل قوي علي
تورطهم في تشكيل عصابي يحترف التهريب عبر الحدود و
خصوصا بعدما تم القبض علي أحد السائقين متلبسا و
اعترف عليهم بأنهم جزء من تشكيل عصابي كبير و
حدسى ينبئني أن ورائهم قصة كبيرة و أشخاص مهمين
متورطين بالأمر "

تذكرت وقتها إعجاب حميد الدين بهذه الأشياء
وأنه كان أحيانا يأتي بها مهربة ضمن ما يتم استيراده من
هناك ، لكنني لم أجد ما أدافع عنهم به أمام حسام و

شعرت بالحزن تجاههم لأنهم عادوا لنفس الطريق القديم ، و مهما كانت الأسباب فهذا لا يعفيهم من العقاب .

نمت كما لم انم من قبل و صحت علي نفس المنام الذي يتكرر معي و يقطعه أذان الفجر و أحيانا قبيله ، تحقق النصف الأول منه و ضاقت الجدران علي نفسي و حبست بزنازة قدرة ضيقة حرجة و هأنا بانتظار الفرج .

طلبت من الحارس المتواجد أمام الحجرة أن أذهب لدورة المياه لأتوضأ و صليت وقرأت بالمصحف قليلا و بدأت استعد للعرض علي النيابة للتحقيق معي وتأكدت مرة من وجود الكروت بجيبتي و جهزت كل ما سوف أقوله أمام النيابة .

كانت النيابة لا تبعد عنا كثيرا لكن كان هناك حاجة لعربة الترحيلات نظرا للعدد الكبير الذي سوف يعرض علي النيابة الصباحية و ركبنا بهدوء و كنت في هذه

الأثناء أقف متعلقا بقضبان عربة الترحيلات لأشاهد الطريق حتى وصلنا إلى تقاطع طريق فعبرت أمامنا مقطورة ضخمة مُحملة بمقاعد للمدارس و أحدثت ضجة هائلة و أخذ سائقها يصيح بغضب ويطلق آلة التنبيه لأنه يريد المرور بسرعة ولم يكد يمر إلا و انحل الرباط الذي يمسك بالمقاعد و تساقطت المقاعد و كادت أن تدمر السيارات التي حولها لولا أنهم تفادوا المقاعد المتساقطة لكن السيارات المركونة لم تسلم ، و حدثت بلبلة كبيرة في الشارع و تجمع الكثير من المارة و أصحاب المحال لحل المشكلة .

نزل قائد المقطورة مسرعا ليستعلم الأمر و يري ما هو حجم التلفيات و اخذ يسب و يلعن في مساعده و يضرب فيه لولا نزول الضابط المسئول عن نقلنا الذي أخذ يصيح بغضب هو الآخر بدوره في السائق الذي عطل الطريق خلفه و نزل أحد صف الضباط المتواجدين في

سيارة القوة المصاحبة ليقف مع الضابط وتأزم الموقف أكثر وأصر الضابط علي اصطحاب قائد المقطورة للقسم لتحرير محضر بالواقعة لأنه كاد أن يتسبب في موت المواطنين بسبب تهوره في القيادة وإهماله الجسيم و تسبب في تدمير ممتلكات بعض المواطنين و حاول بعض المارة حل المشكلة و إنهاء الأمر لكن الضابط رفض كافة الوساطات في ظل كل هذه البلبلة رأيت سيارة ميكرو باص تقف خلف سيارة الترحيلات و بجوار سيارة القوة المصاحبة و نزل منها بعض أشخاص لاستطلاع الأمر ثم أخرج احدهم سيجارة و أخذ يرددش مع صف الضابط الذي يقود سيارة القوة المصاحبة و فجأة شعرت بحركة غريبة بالخارج ثم فُتح باب العربة فأطل منه أشخاص مسلحون يبدوا علي ملاحهم الشر و الإجرام و دفعوا بالعسكري المسئول عن حراسة السيارة إلى الداخل وأشاروا للأشقياء فقاموا علي الفور و سحبوني معهم و

لم يجرؤ أحد علي النطق و هرب البعض و مكث البعض من المشتبه بهم ثم أغلقوا الباب مرة أخرى و ركبنا جميعا السيارة الميكروباص و فوجئت بصف الضابط الذي يقود السيارة بأنه مغمي عليه .

تركنا الميكروباص في ما بعد بأحد الأماكن الصحراوية و هناك كان بانتظارنا ثلاثة سيارات كل مجموعة ركبت واحدة أما نحن فركبنا بسيارة أجرة من الطراز العائلي المستخدم في نقل الركاب .

الدهشة عقدت لساني عن الكلام لكن عقلي لم يكف عن التفكير وكيف تتم العملية بهذه الدقة وكيف عرفوا بخط سير السيارة و متي تم الاتفاق علي كل هذا و هل سيقبل حسام بالهزيمة؟!

لما أفقت من اندهاشي بدأت أتساءل لكن جمعة غمز لي بطرف عينه ففهمت أنهم لا يريدون الكلام أمام السائق و لا أعلم ما السر في هذا .

في مقر مديرية الأمن ظل حسام يصرخ بغضب شديد و يوبخ الضابط المسئول عن حراسة سيارة الترحيلات لأنه ترك موقعه و انشغل بالمقطورة المحملة بمقاعد التلاميذ فلم يكن الهدف من هذه البلبلة سوي التشيت و التعطيل لسيارة الترحيلات حتى يهربوا بدون أي جلبة أو خسائر و توعده حسام الضابط بتقديمه لمحاكمة عسكرية لكن الأمر لم ينتهي فقد أصدر علي الفور حسام أوامره بنصب أكمنة للتفتيش علي كل الطرق و أغلق كل مخرج المحافظة و لم يسمح لبعوضة بالمرور دون تفتيش بخلاف الدوريات التي تطوف في أنحاء المحافظة وتعميم نشرة عمومية بأوصاف الهاربين والقبض علي كل أصحاب السجلات الإجرامية .

فكرة السير في الرمال حتى نصل إلى مدق صحراوي لتفادي المرور على الأكمنة و في وضح النهار هي محض انتحار فالحرارة شديدة و الدوريات لا تتوقف

فوجدت أن أسلم طريق هو العودة إلى سيدي براني حتى
ما تهدأ الأمور قليلا .

قرار العودة إلى سيدي براني كان مفاجأة لهم و
عارضوني في البداية لكنهم وجدا أنه أسلم مكان للاختباء
وتكون فرصة لالتقاط الأنفاس لأنه لن يتوقع أحد
رجوعي إلى مسرح الجريمة مرة أخرى فقال لنا السائق بلكنة
أهل الأسكندرية : " يا عم جمعة نرجع علي سيدي براني
ولا نهرب من الشرطة ونعود للأسكندرية كما كان
مخططا "

فرد عليه جمعة بصوته الأَجَش و بحسم شديد "
أرجع يا مصطفى علي سيدي براني ، حتى ما تهدأ الأمور
و ربك كريم "

لما وصلنا إلى هناك لحسن الحظ أن الحراسة لم تكن
متواجدة فدخلنا إلى المكان و لم يكن عندي صبر للانتظار
فطلبت منهم أن أعرف الحقيقة كاملة فبدأ جمعة بالكلام :

" كما تعلم يا ريس مراد أننا نعمل سائقين بهيئة النقل العام و كما تري الغلاء الذي يكوي الجميع و المرتبات هناك ضعيفة . . . و الكل يشكو فبدأنا بالبحث عن أي طريقة لزيادة دخلنا عن طريق العمل علي سيارة نقل أو ميكروباص في أوقات الراحة أو الأجازات و بدأ أصدقاء السوء يلحون علينا بأن نعمل مع أحد أصحاب سيارات النقل الجماعي و أنه رجل طيب لكنه أحيانا يحتاج نقل بعض السلع التجارية التي تأتي إليه من الحدود لكن المشكلة كلها في الجمارك التي أصبحت نار و لو أنه اعتمد علي نقلها بالطرق العادية فلن يبيع و لن يشتري و المسألة تحتاج لشخص ثقة و له قلب حديد ، و أننا أصلح الناس لهذا الأمر و هو لن يدقق معنا في مسألة الماديات "

و من هنا أكمل المطرود و قال بنبرته الخشنة : "

الصراحة كنا في البداية سعداء بالعمل معه و الرجل لم يكن يتأخر علي أحد منا لكن الشك داخل أنفسنا لأنه

يصرف ببذخ و لا يهتمه أمر الماديات بالمرة ، من هنا بدأت قصتنا مع التهريب يا ريس مراد بالتأكيد الضابط حسام حكى لحضرتك و قال لك أننا نقوم بتهريب أجهزة تنصت إلى س كذلك ، لكن صدقني يا ريس مراد لقد تغيرنا كثيرا و لم نرجع عن الوعد الذي قطعناه علي أنفسنا ، لكننا كنا هذه المرة نعمل لحساب الوطن "

فابتسمت له بسخافة و كأنني أقول له أنت كاذب لكنه فهمني سريعا و قال لي : " صدقا يا ريس نحن نعمل لحساب الحكومة " .

فسألته : " كيف هذا "

فقال لي : " هذا ما حدث فبعدها اتفقنا مع الحاج عبد الوهاب علي العمل معه و نقلنا له شحنتين من البضاعة التي تأتي في كرتونة مغلقة لا نعلم ما بداخلها قرر جمعة أن يبلغ السلطات عن الحاج عبد الوهاب "

فاعتدلت في جلستي لأسمع للبقية من القصة و بدون أي فرصة للتريث كنت أريد أن اسأل لكن جمعة عاود للكلام و قال : " هذه هي الحقيقة يا ريس أول ما قررنا إبلاغ السلطات فوجئنا أنهم عندهم علم بما يجري و فوجئنا بأن هناك يعرفنا بشكل شخصي و كان بانتظار مجيئنا " .

فتسائلت بدهشة : " و من هذا " فقال لي المطرود بصوت هامس : " السيد عاصم المنفلوطي "

تضاعفت وقتها دهشتي لأن عاصم كان ضابط بحرس الحدود عندما كنا جميعا في الخدمة الوطنية و كنا نخدم بالتبعية في سلاح حرس الحدود فما هي علاقته بجهاز المباحث و كيف علم بمجيء الأشقياء إليه ؟!!

ابتسم الثلاثة من علامات الدهشة و التعجب التي بدت علي وجهي ثم شرحوا لي أن عاصم تم ترقيته ترقية

استثنائية ثم بعدها انتقل إلى أحد الأجهزة السيادية الحساسة التي يتداخل عملها مع أكثر من جهة و هو الذي قام بتكليفنا بهذه المهمة و كل ما تم اليوم كان بعلمه لكي يقوم عمليات التهريب المستمرة ومن ساعدونا اليوم هم من ضمن أفراد عصابة التهريب .

بات الوضع أكثر تعقيدا مما سبق فأنا مهدد بالقتل من الشبكة و مطلوب للعدالة في جريمة قتل و بدلا من أن أهرب لإثبات براءتي أصبحت عالقا في منتصف عملية للكشف عن مهربين في منتهى الخطورة ، وكأن المصائب بجيأتي تأتي أن تأتي فرادى .

الفصل الخامس عشر

يبدو أن عليك أحيانا أن تثق قليلا حتى في أقرب الأشخاص و إلا ستدفع الثمن غاليا و هذا ما حدث فقد اندفع المطرود يتصرف بتلقائيته المعهودة و أبلغ عاصم بكافة تحركاتنا و أن معهم ضيف عزيز لكن عاصم لم يتفاجىء بل طلب على الفور محادثتي و رحب بي و تأسف على حالي و أنه لم يتصور أو حتى يصدق أن الشاب المجتهد المحترم الذي خدم معه في أحد الأيام يمكن أن يقال عنه أنه قاتل تخالف مع شركائه علي منهوبات أثرية ثمينة و أنه لا يصدق كل هذا الهراء ثم تحول إلى واعظ و أخذ يقول لي أن بعد شدتي تلك لا بد من يسر و أن الفرج قريب ، سايرته في الكلام و شرحت له أن عوض هو المسئول عن سرقة الآثار و لما علمت بأمرهم حاولت

الإبلاغ عنهم لكن للأسف تم الإيقاع بي و هروبي لم يكن
لشيء سوى إثبات براءتي .

بمجرد أن أغلقت الخط لم أشعر بنفسني واندفعت
الكلمات تخرج من فمي و سيل من الرذاذ و صبت جام
غضبي على المطرود و امتقع وجهه من التغير المفاجئ الذي
أصابني كان يظن أنه أحسن صنعا إلى و أن عاصم سوف
يساعد في إثبات براءتي و خصوصا بحكم نفوذه و علاقاته
المتداخلة و المتشابكة مع أجهزة الدولة السيادية المختلفة
حاول المطرود أن يبرر لي سر تصرفه لكنني قلت له بشكل
حاسم : " يا مطرود المسألة ليست سهلة أو هينة و عاصم
كما تعلم له حسابات كثيرة ، إنه من الممكن ببساطة
شديدة أن يضحى بالجميع من أجل الوصول إلى شبكة
التخريب ليحصل على ترقية أخرى "

أخذ كمال يهتمهم و يغمم لا يدري ماذا يقول و
يريد أن يعتذر لي عن تصرف المطرود الذي أحدث زوبعة

لا داع لها و خصوصا أننا الآن في مركب واحد و قد تورطت معهم في مسألة القبض علي شبكة المهربين و لا نعرف كيف سنصل إلى القاهرة ، لكنني كنت قد هدأت و بدأت أتذكر كروت الذاكرة التي بحوزتي فلا بد أن فيها دليل براءتي الأكيد أو علي الأقل سوف تكون وسيلة لإقناع السلطات بأنني تم الإيقاع بي عمدا لكن صادفتني مشكلة صغيرة و هي أنني لم أجد جهاز الحاسب الآلي الخاص بالفرع و لا أذكر أين وضعت حاسوبي الشخصي و انهمك الجميع في البحث عن حاسوبي الشخصي حتى وجده المطرود فوجد أنها فرصة سانحة لكي يعتذر لي و نتصالح و لكنني كنت قد نسيت الأمر كليا و أخذت منه الحاسوب بفرحة و تشوق و فضول رهيب لكي أعرف محتوى هذه الكروت لكن شخصا مثل عوض لم يكن يترك أي شيء لعامل الصدفة فقد كان شخصا منظما و لم يمر عليه أن مثل هذه الكروت قد يعرف بأمرها أي شخص و

يحاول عرض محتوياتها لذلك فقد قام بعمل حيلة ذكية فيها
فالكروت لا تفتح إلا بكلمة سر حاولت معها بشتى
الطرق و لم أفلق ثم أمسك المطرود بالورقة المطوية التي
كانت تحوي الكروت و قال لي : " اكتب يا ريس مراد
الومضات الخفية " .

لم أناقشه الصراحة و على الفور كتبت الكلمة
فانفتح كارت الذاكرة الأول و بدا على وجهي الدهشة
فقلت للمطرود : " كيف عرفت "

فشرح لي أنه وجد كلمات مكتوبة على الورقة
فعرضها علي لعلها تفيد و قد حدث ذلك فعلا ، عوض
لم يكن يترك أي أمر لعامل المصادفة و لكنه كعادته يضع
الحلول أمام عينيك و لن يفكر أحد في هذا بالمرّة .

لم أكن أدري أنني أمسك بثروة لا تقدر بمال من
المعلومات القيمة ، جزء من محتويات الكروت عبارة عن
يوميّات شخصية لعوض يدون فيها بأسلوب أدبي دقيق و

راق للغاية ولم يكن يخطر ببالي أن شخصا مثل عوض من الممكن أن يمتلك مثل هذه المهارات الأدبية وبدأت أتعرف علي روايته و هو يكتب قائلا : " بدأت من أسرة بسيطة و من الممكن أن تقول عنها متواضعة الحال ، عشت في حارة صغيرة من حواري منطقة مصر القديمة و برغم فقرنا المدقع و أبي الذي لم يكمل تعليمه لكنه كان يمتلك الإصرار علي أن أكمل تعليمي أنا و أخي الأكبر الذي ضاع مستقبله في ما بعد بسبب المظاهرات الطلابية . وضعت كل همي في أن أخرج و أبحث عن عمل لكي أريح أبي الذي تعب كثيرا في تربيتنا و قد لا قينا الكثير من الظلم و خيبات الأمل المتتالية لأننا لا نملك معارف من أصحاب النفوذ و أبي رجل بسيط و قد خاب أمله في أخي الأكبر الذي لم ينتهي بعد من دراسته و لحسن الحظ تمكن أبي من إلحاقني بهذه الشركة التي أعمل فيها حاليا وهناك أثبت كفاءتي و القدرة علي تنفيذ الأوامر بدقة و أصبحت محل ثقة رؤسائي

في العمل و تم ترقيتي و زيادة مرتبي لعدة مرات و أصبحت أموري المادية ميسرة و استطعت أن أساعد أبي ليرتاح قليلا من عناء السنين لكن يبدو أنني تطاولت في النظر بعض الشيء حين أعجبت بالآنسة رنا ابنة أحد الشركاء و كانت تعمل معنا بالشركة و لما عرضت الأمر علي أبيها قابل طلبتي باستنكار و دهشة مصحوبين بسخرية مبطنة في كلامه و قال لي أنها من عالم و أنا من عالم آخر لم تكن صدمتي بالرفض بقدر ما هي بسبب أسلوب الرفض و أسبابه ، كان يري أنه من المستحيل أن يتقابل عالمي مع عالمها ونصحني بإعادة تقييم أموري و البحث عن فتاة مناسبة و ذلك لمصلحتي فإننا الأفضل في مجال الشركة لا تريد خسارة أحد أفضل مهندسيها و وصلت الرسالة و من يومها أقسمت علي أن لا أسمح لأحد بأن يسخر من فقري " .

لم ينتظر عوض كثيرا أو ربما كان الشيطان ينتظره
ليعطيه فرصته الذهبية للانتقام و وجدها هناك في أول
احتفالية تقوم بها الشركة بمناسبة مرور خمسة أعوام من
النجاح و الاستحواذ علي أكبر حصة سوقية و تم دعوة
الكثير من الأشخاص ذوي الحيشة و في مثل هذه الحفلات
تجد هناك بعض الأشخاص أشبه بالقناصة كل مهمته هي
اصطياد فرصته المناسبة التي قد تكون هي فتاة جميلة أو
صفقة أو اتفاق لكن هذه المرة كان هناك من يتفرس في
الوجوه لأنه ينتظر أن يقع اختياره علي الشخص المناسب
ثم دخل و عرفه بنفسه و أنه مدير أعمال صاحب شركة "
كابيتال " و أن صاحب عمله هو صديق لأصحاب شركته
و أنه قد سمع عنه كثيرا و عن مهارته في العمل و أنه وفر
علي الشركة الكثير من التكاليف ثم بدأ يشكو من جشع
أصحاب العمل و أنهم لا يقدرّون أصحاب المواهب الذين
لهم الفضل في ما وصلوا إليه من ثراء و أن الغرب يقدر

أمثالهم بخلاف الحياة هنا في مصر ثم أثني علي صاحب عمله و أنه رجل عالم في مجاله و أيضا رجل أعمال لا يشق له غبار في اقتناص الصفقات ثم ترك له بطاقة التعريف الخاصة به علي وعد بلقاء آخر .

تجددت اللقاءات و المقابلات بين عوض و هذا الشاب الغامض الذي يعمل مدير أعمال لهذا الثري القادم من الخارج وتوطدت العلاقات بينهما و توالى الحفلات التي يدعي إليها الكبراء و لم يكف القناص عن عمله ، حتى حانت اللحظة المناسبة ليفصل كلا منهما للآخر عن نيته و أن صاحب عمله الثري يريد أن يستحوذ علي شركتهم بأي ثمن لكن أصحاب الشركة رفضوا ذلك و هو يريد إذلالهم بأي شكل لكي يشتري الشركة و أن هذه فرصة مناسبة للانتقام من هؤلاء الذين أذلوه "

المدهش في الأمر هو عوض الذي يكتب باعترافاته أنه هو صاحب فكرة " الومضات الخفية " و هو الذي

أشار عليهم بها و قام بنقض أي فكرة أخرى مثلما كنت أفكر أنا و حميد سويا لكن أي حقد هذا الذي كان يحمله في قلبه نحو الآخرين .

كنت مستمتع بالقراءة و أسلوب عوض الذي يتمتع بانسيابية في الشرح و الوصف ثم قاطعني صوت رنين الهاتف فنظرت في هاتفي و وجدت الرقم المتصل غير مسجل عندي لكنه رقم دولي و علي الفور فتحت الخط و خطوات بضعة خطوات إلى خارج الغرفة التي أتواجد فيها أنا و الأشقياء و أتاني صوتها منهارا باكيا و يقول : " مراد كان قلبي علي يقين بأنك سوف ترد علي أحمدك يا ربي "

لم أعرف ماذا أقول لها لكنني كنت أشعر بأنني اسمع دقات قلبي المرتجف و صوت ليل يقول لي بتهديد : " أحبك أيها الغبي . . . إلى متى كنا سنخفي مشاعرنا ، ألم يكن بإمكانك إبلاغ السلطات و كفانا ألما و عناء "

لم أجد ما يمكنني أن أقوله لها و لكنني قلت لها :
" أنا أيضا أحبك و أتمنى أن أكمل حياتي معك لكن
الظروف لم تكن مواتية و كنت أنتظر أن أمسك بكل
خيوط القصة لأبلغ السلطات و تنتهي القصة ثم كان
قدري أن أقع في شرك نُصب لي "

فقلت لي برقة : " مراد . . . بإمكان صديقتي
سارلا أن تقوم بتهريبك إلى الخارج فهي تعمل بالمجال
الدبلوماسي و لها علاقات كثيرة ما رأيك مراد "

فقلت لها : " و لمن أترك الوطن . . . ؟ "

فقلت لي : " حسنا . . . لن اقدر علي مواجهة
منطقك ، لكن لك خبر جميل عندي لقد تمكنت من
الحصول علي كلمة السر المناسبة لدخول الموقع لكن لا
يمكنني شرح الأمر عبر الهاتف لذا فلنا لقاء عند عودتي "
ودعتها بدمعة بعدما أفرغ كلا منا مكنونات قلبه ،
عدت و أنا لا أكاد اشعر بأعصابي بسبب حالة من الخدر

أصابتني و فوجئت بأن الأشقياء أثارت محتويات كروت
الذاكرة فضولهم فبدأوا بالعبث بها و نادوا علي لمشاهدة
فيلم تسجيلي و جلس الجميع أمام شاشة الحاسوب و
أغلق المطرود الأضواء حتى تتوافر لنا رؤية أفضل .

بدأ الفيلم بمشاهد من الحرب العالمية الثانية كان
الفيلم باللغة الألمانية و تظهر ترجمة باللغتين الإنجليزية
والروسية ، جلس المطرود و كمال و جمعة فاغرين
أفواههم لأنهم لم يستوعبوا كلمة واحدة لكنهم استمتعوا
بمشاهد الحرب الأبيض و أسود و كأنهم يشاهدون أحد
أفلام الحركة بدأ الفيلم يسرد كيف استطاع جيش دول
المحور و علي رأسها ألمانيا أن يسحق جيش الحلفاء في
الشمال الأفريقي و أنها كانت خطة طويلة معدة لغزو هذه
البلاد و السيطرة علي خيراتها و كان السبب هو قناة
السويس ثم علموا بعدها عن طريق الصدفة من خلال
الرحالة الذين كانوا يقومون برحلات كانت ظاهرها أنها

استكشافية في الصحراء الغربية لكنها كانت لمعرفة أفضل الطرق لدخول مصر عن طريق ليبيا و خلال هذه الرحلات اكتشفوا وجود اليورانيوم في الصحراء الغربية وكانت ألمانيا وقتها أسبق الدول لاكتشاف هذا العنصر الخطير و بدأت في استخدامه بشكل غير مخصص في إنتاج القذائف التي قاموا بتجربتها في حربهم ضد جيوش الحلفاء في شمال أفريقيا و كادوا أن يسحقوا الحلفاء لولا غرق السفينة التي كانت تحمل الإمدادات لجيش دول المحور و ظل سر الصحراء مدفونا في باطنها لا يعلم به أحد و ساعد علي إخفائه أكثر الألغام التي تركتها ألمانيا خلفها و لا يعرف بجرائدها سوي أحد رجال النظام النازي الذي كان لديه خطة للوصول إلى الحكم و استخراج هذا الكنز و سحق الحلفاء و يستعيد مجد ألمانيا لكن العمر لم يمهله فترك وصية لابنه ليشرح له الأمر .

الآن فهمت كيف أمكن لهذه الشبكة أن تخرق
الأوساط الراقية و تختلط بشخصيات مهمة و كيف أمكنهم
الوصول إلى أبراج التقوية بدون إثارة الشكوك ولماذا
الشبكة سعت لإفساد المؤتمر العالمي لتعمير أرض الصحراء
الغربية و فسر لي سر الزيارة لكل من السيد/ لي بينج و
العالم الروسي فلم تكن رحلتهم إلا للتأكد من صحة
المعلومات عن وجود يورانيوم بالصحراء الغربية و لا بد أنه
هذا هو السبب في إضراب الميناء ليتم تهريب معدات الحفر
الخاصة به ، لكن يا تري من هو ذلك المصري الذي كان
بصحبتهم و الكل يحسب حسابه ؟

فرد علي جمعة و قال : " المصري دوما معروف
بقوته و جبروته "

فغرق الجميع في حالة من الضحك الهستيري على
كلمة جمعة ، لكن لم نكد نكمل ضحكنا إلا و سمعنا
حركة و أصوات أشخاص بالخارج فجلس الجميع علي

رؤوسهم الطير ثم . . . سمع أزيزا و لم يكن سوى هاتف
المطروود ليتلقى الأوامر بأن نتحرك جميعا لملاقاة عصابة
التهريب لتسليم الشحنة وليس أماننا وقت فهم أمام
الاستراحة بانتظارنا و لو تخلفت عن المجموعة فسوف تثور
شكوك العصابة و إن تأخرنا لا نعرف ما هي ردة فعلهم ،
كان الوضع حرجا و لا توجد أمامي بدائل سوى أن أتحرك
معه المجموعة و ألاقي نصيبي المكتوب .

الفصل السادس عشر

مالت الشمس نحو المغيب و هي في حالة أشبه
بالاحتضار لتلفظ آخر أشعتها البرتقالية و هي تتوارى
خلف قمة المقطم لتخفي معها تلال القمامة المتراكمة و
الوجوه البائسة القائمة التي تحيا عيشة أقرب للبدائية ولم
تجد من يشعر بها رغم أنهم علي بعد أمتار من المدنية في
قلب العاصمة بمنطقة إسطنبول عنتر و رغم أن الشمس
كانت تلفظ آخر أشعتها لكنها شوشت على الدكتور
عاطف الذي اضطر أن يضيق حدقيه قليلا ليتبين مقدار
الجرعة التي عليه أن يحقن بها الشخص الذي أمامه و دون
أن يتكلم أشار إلى كمال ليمسك له بذراع الرجل حتى
يتمكن من حقنه لأنه أخذ يتملص في مكانه كثيرا و أخذت
أتأمل أناقته الواضحة التي لا تتناسب بالمرّة مع قذارة المكان
. . . حذاء من النوع المستورد أما الساعة التي في معصمه

أظنها أصلية الصنع لقد خالف كل توقعاتي ، توقعت رؤية ممرض بأناقته الرثة مقلدا الأطباء و يتكلم بأنفة شديدة لكن هذا بدا لي طبيبا حقيقيا فأثار فضولي فلم أجد طريقة لأعرف قصته سوى استفزازه بعدما أنتهي من عمله سريعا فمنحته ابتسامة عريضة ثم قلت له بتبجح و فجاجة : " متشكرين يا حاج ، نردها لك في الأفراح "

فتنحنح جمعة و أخذ المطرود ينظر في الأرض مخفيا ابتسامته و حدجني كمال بنظرة معاتبة ثم تدخل لإنهاء حالة الحرج بالتعريف به بنوع من الفخر : " هذا الدكتور عاطف البهنساوي الطبيب المعروف و صديق أبي وله أفضال كثيرة علي أهل المنطقة بعدما تركتنا الحكومة فريسة للفقر و الضياع "

تخرج الطبيب من هذا المدح و تنحنح ثم قال : " العفو يا كمال أنتم أصحاب الفضل الحقيقي و قد عشت في ضيافتكم مدة ليست بالقصيرة حتى ظهرت براءتي و

كل ما أقوم به هو رد بسيط للجميل و قد سعت مرارا و
تكرار لتحسين الظروف هنا لكن بلا طائل "

ابتسمت بمرارة بعدما سمعت قصة الطبيب الشهم
ثم همهمت بصوت مسموع قائلا يبدو أن التاريخ يعيد
نفسه مرة أخرى و أنا الآخر أتيت إلى هنا هاربا . . . و ها
هي بارقة أمل ، لم يغب عني الأمل لحظة لكنه الضعف
يعترينا أحيانا مثل فترة الحجز لكنني أشعر بقرب الفرج و
الفضل يرجع لفرقة الأشقياء فلولا فكرة المطرود عندما
قابلنا العصابة التي كانت تصر علي الانتقام بقتل صديقي
الضابط حسام و لكنه أثار مخاوفهم واقترح عليهم أن
يقوموا بمساعدتنا علي الهرب و اختطاف " مختار " فمثل
هذا الأمر سوف يعطيهم الوقت الكافي لتسوية أمورهم
العالقة و يشغل العيون لأنه كل فرد أمن سوف يبحث
عنهم و عن مختار الشاهد الوحيد في جريمة القتل أخذت
العصابة تتداول في أمرنا لبرهة ثم وجدوا أن هذا هو

أصوب قرار لكن ما أثار قلقي حقا هو عاصم وكيف
سيتصرف معنا عندما يعلم بأننا أفسدنا عليه عملية القبض
علي عصابة التهريب و في الغالب أنه كان يُجهز لعملية
مداهمة ليحصل بعدها علي ترقية كعادته لكن صمته هذا
بدا مقلقا ثم . . . إذا بمختار بدأ يهلوس كأنه مصاب
بالحمى و غالبا أن الجرح موضع الرصاصة قد تلوث و ردد
بضع كلمات : " شركة كابيتال ، القبضة الحديدية ، مراد
هو الخطر ، سوف نعود لنحكم العالم مرة أخرى ، أنتم
تواجهون أكثر أجهزة المخابرات شراسة في العالم "

بعدها سمع الدكتور عاطف كلمة " استخبارات
هب من مكانه كالملدوغ ثم قال : " أنا وافقت علي علاج
هذا المخطوف من أجل إثبات براءة شخص من الإعدام
لكن ما سمعته الآن لا يمكن السكوت عليه و أنا أحتاج
لتفسير حالا "

اضطرت علي مضض أن أقص عليه قصتي مع
الومضات الخفية فلم أكن أملك أي خيارات أخرى و هو
يصغي باهتمام شديد و لم يحاول الاستفسار عن أي شيء
أحكيه فقط اكتفي بمتابعة عيناى في صمت و لما انتهت قام
من مكانه و نظر في الأفق إلى أضواء القاهرة التي تظهر من
أسفل قمة المقطم و أطلال النظر ثم وضع كفه علي كاهلي
و قال بأسلوب درامي كأنه يقف علي خشبة المسرح : "
سيأتي ذلك اليوم حتما . . . و يستعيد فرس النهر الوحيد
درعه الحديدية التي صُنعت من حجارة النيازك ، لتعود
جيوش الشمس التي قفلت نحو الجنوب ، سوف يخرج
فرس النهر عن صمته و يملأ صوته الفضاء و يُسمع العالم
صيحاته بالحرب و سيرجع حين ينهى علي كل ضبع أسود
يحوم حول وادينا الآمن يريد أن يهتك حومتنا . . . سيعود
يوما مع الفجر الآتي "

بمجرد ما أنهى كلماته التفت ليجد ثلاثتهم ينظرون له و هم فاغري الأفواه و انخرطوا بحالة من الضحك الهستيري لأنهم لم يستوعبوا حرفا مما قاله حتى هو نفسه خرج عن وقاره و أخذ يمازحهم لكنني شعرت بغصة في قلبي و لم أكد أفتح شفتاي لأتكلم إلا و سبقني رنين الهاتف و كان المتصل هو عاصم الذي فوجئنا به ببارك خطواتهم و هناهم بما فعلوه فقد حازوا الثقة الكاملة لعصابة التهريب و شكر لهم مجهوداتهم و لم يلمح إلى قيامنا باختطاف مختار !!!

لا أدري لماذا أثار أسلوبه الريبة في قلبي بعد هذه المكالمة لكننا عدنا إلى مرحنا مرة أخرى لكن هاجس ما مر بنفسي و أوحى لي أن نفرق هذه الليلة فيبيت كمال و المطرود مع مختار و جمعة يبيت في أي مكان آخر و انتقل لقضاء ليلتي في منزل الدكتور عاطف في المقطم لأكون قريبا من مكان تواجدهم .

لكن يبدو أن الضبع الرابض خلف حدودنا الآمنة
كان يترصد بنا و يراقب عن كثب ففي هذا الوقت من
الليل سرى رنين الهاتف ليوقظه من نومه بعد يوم شاق من
العمل فرد بغضب شديد و هو يتثاءب: " من . . . ؟ "
المتصل : " سيد بن عوفاديا لقد تم اختطاف
مختار " .

فرد عليه بن عوفاديا : " و لماذا لم تتصل بـرجلنا في
مصر "

فقال له أنه حاول الاتصال به لكن لم يصل إليه
بعد فانهال بن عوفاديا علي المتصل بالسباب و عنفه ثم
سأله عن الذين اختطفوه فأبدى عدم معرفته بهم لكنهم
ليس لهم علاقة بصراع الأجهزة الاستخباراتية الدائر فكان
هذا سببا أدعي ليصب عليه جام غضبه .

في أثناء نزولنا من أعلى لاحظت سيارة دفع رباعي
تتابعنا من بداية الطريق وأخذت تقترب منا حتى وصلنا إلى

أحد المنحنيات ثم شعرت بنفسى أكاد أطير من مقعدي على إثر صدمة من الخلف و احتك جسم سيارتنا بالحاجز المعدني محدثا شرزا من أثر الاحتكاك و كدنا نكسر الحاجز و نسقط من أعلى لولا براعة الدكتور عاطف و تفاديه لها لكن سائقها المتهور لم ييأس بل عاود الكرة و كاد يطيح بنا هذه المرة و لحسن الحظ أننا بمجرد ما استقام الطريق تفادي الدكتور عاطف السيارة ثم قمت بسحب فرملة إلىد فاضطر سائق سيارة الدفع الرباعي إلى إكمال طريقه و كالعادة سيارة بدون لوحات تسجيل . . . توقفنا علي جانب الطريق لنستعيد أعصابنا مرة أخرى لأن الدكتور عاطف كانت كل مفاصله من اثر الصدمة التي لم يكن مؤهلا لها أو ربما لم يكن مستعدا لها نفسيا و ربما كثرة الخطوب التي مررت بها أصابتنى بحالة من التبلد لكن الخبر الذي سمعته أطار هذه الحالة فوجئت بكمال يتصل بي و يخبرني بأن مختار تم اختطافه منذ بضع دقائق بعدما

اقتحم عليهم العشة مجموعة من المثلثين المسلحين أتوا في ثلاث سيارات دفع رباعي لونها أسود و طلبوا منهم تسليم مختار بدون مقاومة . . . ولم يكن هناك إمكانية لذلك وبات وضعي أكثر تعقيدا مما قبل كنت امتلك دليل براءتي و الآن لقد ذهب إلى المجهول ولا أعرف من الذين اختطفوه ولا كيف عرفوا بمكاننا .

رد علي الدكتور عاطف بهدوء مصطنع : " و من أخبرك أن مختار كان مستعدا للاعتراف "

لم يكن عندي أي مقدرة على النقاش و كل ما يشغل بالي حاليا هو ليل فما أخشاه هو حماسها الزائدة في مساعدتي التي قد توقعنا في مشكلة أكبر .

دقت الساعة معلنة أنها التاسعة و نزلت من منزل الدكتور عاطف و لم يفلح في إثنائي عن ركوب الحافلة و في نفس الوقت في قصره بمرسي مطروح جلس الرجل الغامض علي رأس المائدة و دقت الكؤوس فرحة بعودة

مُختار و قال له الرجل الغامض : " ألم أقل لك لا تقلق
نحن لا نترك رجالنا أبدا "

فرد عليه مختار فرحا : " الصراحة . . . حضرتك
وعدت و صدقت "

توالت الأسئلة في رأسي كما كانت أسئلة الرجل
الغامض تتوالى علي مُختار كان كل ما يشغلني هو كيف
توصلوا إلى مكاننا و كيف تمكنوا من الدخول إلى إسطنبول
عنتر إلا إذا كان هناك . . . " خائن " هو الذي أرشدهم
إلى مكاننا لكن أيعقل أن يكون الطبيب ؟ !

لكن متى قام بإبلاغ الشبكة ، و كيف و قد كان
معي وكدنا نموت علي الطريق ، تضايقت من الفكرة و
حاولت تنفيذها فهي لا يمكن التفكير بها لكن و لما لا . . .
مجرد استدعائه بعد اختفاء مختار كاف جدا لأن يكون هو
الخبائن و هو الوقت معه يكفي لإبلاغ الشبكة . . . لكن

متي تم تجنيده ؟؟؟ ربما مثلما تم تجنيد مختار و
عوض و غيرهم .

انتفضت من موضعي على أثر ربة رقيقة علي
كتفي ، فاحمر وجهها خجلا و نظرت إلى بحنو شديد
وأخذت تعتذر لي قائلة : " متأسفة يا مراد لم أقصد أن
أخيفك "

فقلت لها علي الفور : " بل أنا من عليه أن يتأسف
أوقعتك في مشكلات ليس لك ذنب فيها "
فردت علي الفور : " ششش ، لا تقل هذا ، أم
تحب أن أسمعك محاضرة أخرى في الوطنية "

فابتسمت لكنني لاحظت الهالات السوداء أسفل
عينها من السهر و القلق و هي لاحظت نظراتي فأدارت
وجهها و لكي تصرف ناظري قالت لي بأسلوب طفولي و
عيناها تلمعان : " ألا تريد أن تعرف كيف قمت باختراق
الموقع "

فأبدت رغبتى الشديدة في معرفة الخدعة التي
أعيت الجميع فقالت لي أن الحل بسيط و الفضل يرجع لي
فانتبهت لها بكامل حواسي و هي تتكلم فقالت لي : "
بعدما أعتني المحاولات لاقتحام الموقع بشتى الطرق ،
فتذكرت كلماتك أي عمل بشرى هو ناقص و لا بد من
نقطة ضعف فيه و هذا ما عملت عليه ، والقائمون علي
الشبكة يبدو أن لهم وقت ليس بالقليل في الوطن و اطمأنوا
إلى أن معرفة خدعتهم بات أمرا من المستحيلات و نسوا أن
أعظم الاكتشافات نتجت علي المصادفة فتحلوا عن الحذر
المطلوب نوعا ما و ساعدني في ذلك سوء خدمة الإنترنت "
كانت الخدعة في منتهى البساطة قامت بعمل
واجهة مشابهة للصفحة الأصلية للولوج إلى الموقع و هي
لم تكن سوى فخ لكن كان عليها أن تنتظر طويلا لكي
يلتقط احدهم الطعم و هذا أمر شديد الصعوبة و معتمد
علي الحظ فعندما تقوم بكتابة كلمة السر تقوم هي بسرقتها

و لن تنقلك إلى الموقع المطلوب بل سوف تنقلك إلى الفراغ
السيبرانى وهو أشبه بالتقنية المستخدمة في سرقة بطاقات
الائتمانية ولحسن الحظ و أن خدمة الإنترنت تتمتع بحالة
من القلب فكان هذا هو أفضل تمويه و لم يحاول أحد أن
يبحث أو يتأكد من هذه المسألة لأنها قامت بها علي مرات
متفرقة و في أيام عديدة و لحسن الحظ حصلت على ثلاثة
أرقام سرية مختلفة .

كم المعلومات الذي توصلنا إليه لم يكن عاديا
تقريبا بمعدل كل ساعة كانت تصل معلومة جديدة أو يتم
تحديث معلومة قديمة حول كل شيء و أي شيء عن
الأسعار عن معدلات المعيشة بخلاف الصور و الفيديوهات
و الوثائق أخذنا نتصفح الموقع حتى ما يأتي إلينا حميد
الذي كالعادة لابد أن يأتي متأخرا بسبب البحث عن مكان
ليقوم بركن سيارته الأثرية ثم بعدها تخلق ثلاثتنا حول
الشاشة نتناقش إلى لفت نظري عدة مراسلات إلى شركة

عالمية معروفة اسمها كابيتال و تقريبا كان أحد الشركات التابعة لها هي التي سوف تقوم بشراء شركتي التي أعمل بها لكن حدثت بعض التعطيلات بعد موت عوض لأنه كان هو المسئول عن الصفقة و أخذت ليل تقرأ باهتمام زائد هذه المراسلات و شعرت أن شيئاً ما عكر مزاجها ثم فجأة جاءت إليها مكالمة من أحد أخوتها الصغار فقامت أنا بوضع ذاكرة خارجية لنقل بعض المراسلات فانزعجت ليل و ألقت بالهاتف من يدها و قامت بسحب قابس الكهرباء و قالت لي بلهجة غاضبة : " ماذا تفعل ؟ . . . أنت حمار " .

احمر وجهي كثيرا و اندهشت من هذا التحول المفاجئ في أسلوبها و لهجتها و العصبية التي ظهرت عليها و نظرات عينيها الزائغة و تهدج نبرة صوتها ، اعتذرت ثم توجهت إلى دورة المياه لتغسل وجهها و عادت و هي أكثر ارتباكاً و وجهها محتقن من البكاء و اعتذرت بشدة عن

تصرفها الغريب و شرحت لي أن هذه المواقع مؤمنة تأمين كامل و أي محاولة لنقل المعلومات التي عليها تعني أنهم يقومون بتتبع المكان الذي يوجد به الحاسوب الذي يقوم بالنقل من الموقع و هذا هو سر عصبيتها و خوفها على ، بدا كلامها مقنعا لي لكن ردة فعلها الزائدة عن حدها لم أجد لها تفسيراً و فجأة قام حميد من بيننا و ادعي أنه تذكر موعد مهم مع أحد عملائه ثم نظرت إلى ليل و سألتها : " ما الأمر ؟ !!! "

فقلت لي : " سلامتك . . . مراد لا شيء فقط الرعب الذي عشته في غيابك عني "

نظرت إلى عينيها لأفهم و لم ينقذني من كل هذا الموقف إلا اتصال السيد / رأفت ليخبرني بمكان التقائنا و شدد على أن أنتبه إن كان هناك من يراقبني و جاء إلى هذه المرة بسيارته فأشار لي بالركوب و ظل يقود بهدوء و لم يتكلم حتى اقتربنا من أحد مزارع جهاز القوات المسلحة و

لما اقترب بسيارته ليدخل طلب فرد الأمن الواقف علي
البوابة منه إبراز تصريح الدخول ثم ألقى عليه التحية
العسكرية لكنني لم أبد اهتمامي لأنه في الغالب ظنه أحد
الضباط .

بعدها قمنا بركن السيارة دخلنا إلى أحد المباني و
أخذنا نمشي في طرقة طويلة حتى وصلنا إلى باب حجرة
فدق الباب مرة ثم دخل و أنا ورائه فوجدنا أحد الأفراد
يجلس علي مكتب في استقبالنا و حياه هو الآخر و قال له :
" أتفضل يا فندم الجميع في انتظاركم " ثم قام بفتح الباب
المؤدى لغرفة الاجتماعات لنا فقام الجميع لتحيتنا و
فوجئت بصديقي حسام شوقي من ضمن الموجودين و
السيد/ عاصم المنفلوطى و بعض القيادات الأخرى من
عدة أجهزة أمنية سيادية تم تقديمي لهم لم أكن استوعبت
بعد الموقف و لا السر في اجتماع كل هؤلاء الأشخاص
دفعة واحدة ولا كيف اجتمعوا ولا ما هو الرابط بينهم و ما

سر التحية العسكرية رغم أن السيد / رأفت قد خرج من الخدمة أي أنه فرد مدني مثلي !

بدأ أكبر الموجودين رتبة بالكلام و أثنى علي مجهود الشرطة و التنسيق الكامل بينها و بين جهاز المخابرات و علي مجهود الضابط حسام شوقي ثم اثنى علي خيرا للمساعدة علي الكشف عن أكبر شبكة تجسس دخلت مصر فرفع عاصم يده ليقاطع المتحدث و هاجمني بشدة و قال أنني كدت أتسبب في تضييع مجهوداته في الكشف عن علاقة الشبكة بعصابات التهريب وتولي السيد / رأفت الرد علي عاصم في هذه النقطة .

كنت أجلس معهم و كأنني لست معهم لم يكن عقلي قادر علي استيعاب كل هذا الكم من المعلومات المتتالية و هناك أمر لم أقدر علي فهمه هو كيفية عودة السيد / رأفت للخدمة بعدما أحيل للتقاعد و ربما كانت الحقيقة أن عقلي كله كان مع ليل و ، لكن الذي أثار

انتباهي كلمة العميل الثلاثي و أغلب الظن أنه مختار الذي يعمل لحساب أكثر من جهة و المصيبة الأكبر أنه علي اتصال بمصدر لتسريب المعلومات داخل أحد الأجهزة السيادية عندنا فالتنظيم نواته تتكون من ثلاثة رجال هم الرجل الأول لم يتم التوصل إليه و إن كانت الشكوك تخوم حول بعض الشخصيات و هو الذي كون الشبكة ويقوم بكافة الأمور الخاصة بالتمويل و يعمل علي معاونته رجلين ، الرجل الثاني هو العميل الثلاثي " مختار " الذي له اتصال بشخص في جهة سيادية يسرب له المعلومات بشكل أو بآخر ثم عوض الرجل الثالث الذي سهل لهم استخدام الأبراج في التجسس بهذا تكتمل أركان المؤامرة . . . و الدليل علي هذا هو أنهم اهتموا بخطف مختار مرة أخرى هذا إن كان اسمه الحقيقي هو مختار ثم أنهى السيد / رأفت تحليلاته و هز الجميع رؤوسهم بالموافقة علي ما قاله .

تدخلت بالكلام و قلت لعاصم : " ماذا تعرف عن نشاط شركة كابيتال ؟ "

هنا سرت همهمة في الغرفة فقد كان هذه الشركة تتبرع لعدة جهات سيادية و تحظى بسمعة طيبة و ترتبط مصالحها بهذه الجهات من خلال عدة مشروعات مع أكثر من وزارة و لها العديد من النشاطات الخيرية فقاطعني عاصم مستفهما عن أدلتي عن هذا فشرحت له أن عوض كان يقوم بتسجيل يوميات له و يمتلك العديد من التسجيلات السرية تدين الكثير من الأشخاص و سجل يشتمل علي الرشاوي التي يتم دفعها لبعض المسؤولين "

فقال لي عاصم بتغيظ شديد : " و كيف يا مراد تخفي دليلا كهذا ، و لماذا لم تخبرني "

فقلت له : " كنت انتظر أن أقابلك لأشرح لك كل هذه المستجدات "

فقال لي بعصبية شديدة: " وهل هذا أمر يمكن أن ينتظر و أين هذه الكروت ؟ "

فقلت له أنها ليست معي لكن لا أعرف ما الذي دفعني للكذب وقتها، بعد عدة ساعات و خرجت منه مصاب بحالة من الدوار العنيف بسبب كم الحقائق الصادمة التي سمعتها فيه و كنت بحالة يرثى لها و ركبت السيارة مع السيد رأفت الذي كان مدينا لي بالكثير من التفسيرات و كيف عاد إلى الخدمة و ما السبب لدعوة حسام صديقي فشرح لي أنه يعمل كاستشاري يستعان به في بعض الأمور الدقيقة و هذا يتم ضمن أضيق الحدود و في برتوكول خاص ببعض من خدموا في جهاز المخابرات الحربية و عن السبب في التنسيق مع جهاز الشرطة و استدعاء حسام و ذلك لأنه شخصية عنيدة و هو يعلم ذلك تماما من خلال سجل خدمته و قد يفسد كل الترتيبات لذا وجب التنسيق لأنه لا يمكن ترك أي شيء للصدفة فنحن في مواجهة

مجموعة علي أعلي درجة من درجات الاحتراف و قد
اخترقت الدوائر المؤثرة في الدولة و لن تكون المسألة سهلة
فكثير من الرقاب سوف تطير في المرحلة القادمة و علي أن
أكون بجواره و ليس بعيدا عن عينيه .

بعدها أصابتنا حالة من الصمت أو تقريبا كنت
أعيد التفكير في ما قاله لي ثم سألته : " ما اسم رئيس
مجلس إدارة شركة كابيتال "

فقال لي : " فؤاد الصواف "

فقلت له : " ماذا . . . الذي كان بالخارج و عاد
مؤخرا و له قصر في محافظة مطروح "

فرد علي بالإيجاب ثم سألني لماذا كل هذه الأسئلة
و لم يكذب ينتهي من سؤاله إلا و فوجئنا بأحد حواجز
الطريق الحديدية المسننة التي توضع لإيقاف السيارات
تسقط أمام سيارتنا .

ناور السيد / رأفت لكي يفادى الحاجز حتى لا
تتضرر إطارات السيارة لكنه لم يكن هذا أكثر من كمين
وإذا بمجموعة من الملتحين المسلحين تخرج من جانبي
الطريق و أحاطوا بنا و طلبوا منا عدم المقاومة حتى لا
يضطروا إلى استخدام العنف ثم قام أحدهم برش رذاذ
مخدر في وجهي .

الفصل السابع عشر

بعيدا عن سجن القيود الوظيفية بحكم مناصبهم والياقات البيضاء و الجدران التي تتسمع و ترصد أقل هفوة لأن لها عيون و آذان لتسرب علي الفور للصحف و وكالات الأنباء اجتمعت الهيئة السرية بكامل هيئتها و جلس أعضائها في حالة من الاستجمام و الاسترخاء بملابس مريحة ، غير رسمية في مزرعة أحد أعضائها و قد كان على غير العادة اجتماعهم بهذا اليوم لان هذه الهيئة لا تجتمع إلا مرة واحدة في العام لمناقشة العمليات شديدة السرية بالموساد التي يتم تمويلها من صندوق خاص لكن هذه المرة كان الاجتماع استثنائيا و لم يتم الإفصاح عن أي بيانات للجنة و لا حتى رئيسها كل ما علموه أن هناك مفاجأة و هنا احتياج للتمويل وهذا ما اقتضي اجتماعهم .

" ما أجمل الحياة هكذا . . . بدون أي رسميات و بعيدا عن الوظيفة و متطلباتها " رئيس الوزراء مخاطبا أعضاء لجنته فرد عليه وزير المالية : " نعم سيادة الرئيس و بعيدا عن وكالات الأنباء و التسريبات " فغمغم رئيس الوزراء حين سمع كلمة التسريبات .

فلما وجد وزير المالية أنه أغضب رئيس الوزراء اتجه نحو ايشيل ليسأله عن المفاجأة التي بانتظارهم فابتسم ايشيل بظفر ولؤم شديدين ثم قال : " سوف يأتي حالا و يشرح لكم الأمر " .

فقالوا له بصوت واحد من هو . . . و في تلك اللحظة حضر زكريا بن عوفاديا أحد تلامذة ايشيل وحواريه ليلقى التحية علي الجميع و الكل يستعجلونه للحديث فاكست ملامحه بالجد والوقار وأخذ يتكلم بطريقة درامية مبالغ فيها و أسهب في الشرح عن الصراع الإسرائيلي مع جيرانهم العرب و بدأ وزير المالية يتململ

في مكانه فما كان منه إلا أن قاطعه بسخرية جارحة قائلاً :
" بن عوفاديا يا صبي ايشيل ما اجتمعنا هنا إلا لنعرف لما
كل هذا التمويل فتكلم "

ابتلع بن عوفاديا فجاجة الوزير و أهانته و لم
يلتفت و عاود الشرح : " و كما تعرفون أننا كنا ننظر دوما
إلى التدخل الأوروبي في شؤون الشرق الأوسط و
أفريقيا علي أنه خطر يهدد مصالحنا و دوما نسعي
لمكافحته أو تقليل أثره في مقابل التدخل الأنجلوأمريكي
الذي نعتبره في خدمة مصالحنا في أغلب الأوقات ، لكن
هذه المرة استطاع الموساد أن يستثمر الخطر الأوروبي
في خطوة غير مسبقة من خلال اختراق الدوائر المؤثرة
بالقرار و علمنا أنهم يقومون بعملية تسمي الومضات
الخفية تسعى في الأساس للاستيلاء على اليورانيوم الموجود
بباطن الصحراء الغربية بمصر "

هنا تدخل وزير المستوطنات مستفسرا : " بن عوفاديا درست الجيولوجيا و شاركت في حرب كيبور ولم اسمع عن هذا من قبل و ما هي تكلفة استخراجة ربما تكون التكلفة غير اقتصادية بالمرة فلا جدوى منه ؟ " فابتسم بن عوفاديا بمزيد من الثقة وقال : " هو هناك من قديم الأزل وبكميات لا تتخيلها و قد سبقنا الألمان و أنت تعرفهم أكثر منى و الآن نحن استطعنا اختراق العملية " .

أثارت الكلمات الأخيرة مخاوف رئيس الوزراء فتدخل علي الفور ليقاطع بن عوفاديا و توجه بكلامه إلى ايشيل ليلومه بعنف قائلا : " ايشيل الأوربيين و الآسيويين تجمعنا معهم المصالح ، لكن التسريب الأخير للصحف لم يكن سوى ردا قاسيا من الجانب المصري وأوقع حكومتنا في حرج شديد و أشعرنى بالذل أتمنى أن تعي عواقب ما تفعله ، هؤلاء المصريون أشبه بتماسيح

النيل الجائعة التي تتربص بطرائدها في صمت ايشيل
أتفهمني يا صديقي "

لمعت عينا ايشيل بحقد شديد ثم بثقة : " اطمئن
هذه المرة سألقنهم درسا قاسيا "

مر وقت لا أعلم مداه لكنني انتبهت عندما شعرت
ببرودة الأرضية و صداع رهيب في رأسي أعاد إلى نفس
الذكريات مقتل عوض و سويلم و الحبس ثم بدأت أتذكر
أنني هذه المرة مخطوف ولا أعلم من هم خاطفي و هذه المرة
تختلف عن سابقتها لأنني في ظلمات من فوقها ظلمات
فالغرفة تغرق في ظلام دامس و نفسي تغرق في ظلمات
الأحزان و ظلمة الليل تحيط بي فأغلب الظن أن الليل قد
حل و لم يعد هناك إضاءة سوى تلك التي تظهر من عقب
الباب لتبدو حركة الأرجل فقط ذهابا و إيابا .

ما عدت أثق بأحد الشك يمزقني ها هي ليل يبدو
أنها غيرت رأيها وغلبت عليها عاطفة البنوة والواجب نحو
أسرتها و ربما خافت الفضيحة وهي معذورة أما السيد/
رأفت لم أعد أدري هل من الممكن أن يكون هو الرجل
الثالث بعدما فوجئت أنه لا يزال علي اتصال بالسلطات
بشكل شبه رسمي أم أنه عاصم الذي ترقى في ظرف
غامض وعادوني الألم في قلبي و قلت لنفسي . . . وآه من
ليل التي صارت ويل .

الاحتمالات تملأ رأسي وتدور بي في دوامة لا
تنتهي . . . إلى أن سمعت صوت خطوات ثقيلة علي
الأرض وُفتح الباب الحديدي الثقيل فدخل بصيص من
النور أزعج عيني وظهر رجل ملثم يبدو عليه قوة البنيان
يحمل لي طبقا من الطعام وضعه بدون أي كلام ثم أغلق
الباب سريعا و لم يسمح لي بأي نوع من الحوار و كنت
أتصور جوعا ولم أتعرف علي محتويات الطبق بسبب

الظلام المطبق إلا بالتذوق و الشم فكان فيه قطعة من الجبن
و رغيف من الخبز لكنه طعام لا يُسمن ولا يُغنى من جوع
و يبدو أن هذا مقصود بوضعي في الظلام و إعطائي
وجبات صغيرة لإضعاف روحي المعنوية ليسهل عليهم
هذا مهمة استجوابي . . . ثم شعرت بصوت خشخشة و
أزيز و لم تكن سوى بضعة فئران جائعة ترغب بمشاركتي
وجبتي و كأن هذا ما كان ينقصني فقلت لو استسلمت
لليأس فسوف أموت و هذا ما يريدُه العدو فأخذت أفكر
بأمور جيدة لكيلا تتحطم معنوياتي فذكرني وضعي بفيلم
" الكونت مونت كريستو " فضحكت من حماقة أفكارني
و ارتفع صوت قهقهتي و شعرت بأن هناك من يتلصص
على فلم أعره اهتماما و عدت لوجبتي قبل أن تأكلها
الفئران ثم قررت أن أرتاح و في الصباح لها ألف حل ،
فوجدت حشية متواضعة ملئت بليف النخل فاستنتجت
أننا ربما نكون بمكان ما بالصحراء لكن أين و نحن في دولة

أغلب أرضها صحارى ، لكن ما الذي سوف أفعله في حبسي الانفرادي هذا و ما الذي سوف يفعله معي الخاطفون و هل سيستمر الوضع هكذا أم ماذا عاد سيل الأسئلة و الافتراضات يقلق بالي فوجدت أن أسلم طريق لأتخلص منه أن أخلد للنوم برغم أنهم بدأوا مضايقتي بصوت قطرات المياه و هي بداية الأساليب الكلاسيكية في التعذيب للأسير أو السجين .

على الجانب الآخر كانت الحركة لا تهدأ في مكتب مدير جهاز المخابرات بعدما علم من مدير شعبة مكافحة أنشطة التجسس بما حدث و ثار بشدة و استدعى السيد / رأفت لأنه كان آخر شخص خرج معي لكنه لم يعط له أي معلومة مفيدة لأن من قاموا بالأمر محترفين علي أعلى مستوى و لم يكن هناك مجال لأي نوع من الخطأ .

أما في بيت فؤاد الصواف صحت ليل من نومها و
هي تبكي بدموع حارة فقامت لتغتسل ثم جلست علي
البيانو الذي هجرته من زمن لتعزف عليه برقة و عذوبة
كانت كفت عن العزف لها سنوات من بعد موت أمها
. ظلت تعزف و اندمجت مع الموسيقى و لم تنتبه
لحضور أبيها و أخوتها و كل الخدم بالقصر كان الجميع
سعداء لعودتها للعزف مرة أخرى و لم تفق إلا علي
صوت تصفيق حار من أسرتها ثم اقترب منها أباه و
أعطاهما قبلة علي و جنتها فنظرت له بحزن فالشك يقتلها
لكنه لم ينتبه لذلك و انصرف مسرعا إلى عمله .

أما أنا كنت في محبسي الإنفرادي أبحث عن مخرج
كفأر صغير سقط في المصيدة ثم لمحت بصيص من النور
يتسلل من طاقة صغيرة مثبت عليها قطع من الخشب
فقممت و تعلقت بالقضبان الحديدية في محاولة لخلع الخشب

و لحسن الحظ لم يكن مثبتا بشكل قوي فدخل ضوء الشمس دفعة واحدة أضاءت القبو الكئيب و بدأت أري ما بداخله لكنني انتهزت الفرصة لأجد قطعة من الطباشور و بدأت أقوم بعمل علامات علي الأرض كل علامة منها كانت لمواقيت الصلاة ثم جئت بمسمار لكي يسمح بعمل علامة بارزة في الأرض و بهذا استطيع تحديد مواقيت الصلاة ، كل هذا و لم أنتبه لوجود عين سحرية في باب الغرفة و أنهم يتابعون كل ما أقوم بعمله لكنهم لم يستوعبوا ما أقوم به .

دخل أحدهم في وقت العشاء ليعطيني الوجبة الثانية من الجبن و كانت قد مر علي ثلاثة أيام على هذا الحال و قد سئمت من الجبن و كرهت الشعور بالوحدة لكن سيجاني اندهش كثيرا و بدأ يستوعب الأمر ففهم فكرتي فقد قمت بصناعة مزولة شمسية لتحديد مواعيد

الصلاة لذا فهو انتظر حين فراغي من الصلاة و قال لي
بالفصحى : " حرما إن شاء الله "

استشعرت أن محدثي المثلث ليس عربيا بالأساس
لكن لم أحاول أن استبق الأحداث فابتسمت له بهدوء و
قلت له بأسلوب فيه إيجاء : " هل أقول لك جميعا إن
شاء المولى أم أنك . . . "

فقهقه بوحشية مرعبة و بالرغم من رباطة الجأش
التي أتمتع بها إلا أن ضحكته جعلتني اشعر بقشعريرة في
جسدي و نظرات عينية العميقتين شعرت بها تحترق
جسدي و تغوص في أعماقي ظننت لوهلة أنه أحد
المسؤولين عن الشبكة التي تعبت بأمن مصر لكن كلماته لي
جعلتني أتخير أكثر حين قال : " مراد . . . أعجبني
أسلوبك و ذكائك و إصرارك و عندي عرض لك و أري
أنه من الخسارة أن تفقد حياتك في صراع مع أشخاص أكبر

و أقوى منك و للعلم فلن يتم القبض علي واحد من هؤلاء الذين تسعى خلفهم . . فهل تحب أن تسمعه " .

فقلت له علي الفور : " طبعاً . . . بكل سرور "

فقال لي : " أعرض عليك أن تخرج من مصر وتعيش بأي دولة أوربية معززا مكرما وتترك لنا الأمر لتتصارع معهم فهذا صراع الأقوياء وأنت أضعف من هذا " .

أردت أن أقاطعه لكنه التفت لي و نظرة عينيه أوقفت الكلمات في حلقي و قال لي بعدها : " أتمنى أن لا ترفض عرضي . . . فأنا حقا معجب بك و هذه أول مرة أعجب بأحد ضحاياي و تذكر بأن هناك أسرار و ما هو أكبر من الأسرار "

ألقي بكلماته تلك كحجر سقط في بحيرة راکدة فمن هذا . . . هل يعقل أن يكون واحدا من أفراد الشبكة انفصل عنهم و بدأ يعمل لحسابه جائز و ربما يكون هذا

أحد أفراد الشبكة و يريد إيهامي بذلك لكن مهلا . . . مهلا ما معني عبارته تلك " هناك أسرار و ما هو أكبر من الأسرار ؟!!! " لم اطمئن لهذه العبارة فقد أثارت لدى حالة من البلبلة الغير عادية .

في عالم السياسة دوما ستجد أن هناك من يعد الطبخة و هناك من يأكلها و آخرون يكتفون فقط بغسل الصحون . . . قالها السيد / شهاب أحد منسقي القنوات الغير رسمية مع دول الجوار مع مدير جهاز الاستخبارات شارحا له أخبار لقائه مع المبعوث الإيراني و عرضه المشوق و للأسف لم يذكر اسم المبعوث ضمن ملفات القضية .

عرضت حكومة طهران عرضا سخيا يتضمن بضعة أسرار مخبراتية خطيرة استطاعت الوصول إليها عبر اختراق الدوائر المؤثرة في حكومة تل أبيب ومع هذه المعلومات لا مانع عندهم من إعطائنا جزء من تكنولوجيا

صناعة الصواريخ الباليستية في مقابل الحصول علي امتيازات الاستثمار و التنقيب بأرض الصحراء الغربية و لحسن الحظ أنه لنا عملاء في طهران قاموا بإبلاغنا ببضعة معلومات قبل وصول المبعوث الخاص عن تسرب خبر عملية الومضات الخفية لحكومة طهران مما أثار دهشة المسؤولين بالقاهرة .

فقال مدير جهاز الاستخبارات للسيد/ شهاب " و نفس هذا المبعوث اتصل بالجانب الآخر في تل أبيب و هددهم بإخطارنا بما يجري خشية اختلال توازن القوى في منطقة الشرق الأوسط و بهذا يضمن نصيبه من الصفقة من الجانبين فهكذا دوما تسير الأمور و كنا سنكتفي نحن بغسل الصحون لولا اكتشاف مراد "

فقال له السيد شهاب : " مراد . . . الذي لا نعرف إلى الآن ما هو مصيره "

فقال له مدير الاستخبارات : " لا تقلق رجالنا
يبدلون أقصى جهدهم لكن ما السبب في قيام بن عوفاديا
هذه المرة بتسريب خبر بهذه الخطورة لإيران . . . هل
ينوي إزاحة ايشيل من منصبه "

فرد عليه السيد/ شهاب : " المعلومة ليست أكيدة
إن كان بن عوفاديا هو الذي وراء الخبر أم شخص آخر
ربما له المصلحة في إزاحة ايشيل و خصوصا بأنهم يشعرون
بالنشوة لأنهم استطاعوا اختراق عملية الومضات الخفية
لكن اكتشاف مراد للمسألة هو الذي أفسد كل حساباتهم
و محتمل أراد أن يستفيد من الوضع الجديد " قالها ثم ران
علي المكان صمت عميق .

بدأ ذلك المثلث يُشعُرني بنوع من الكرم فحسن من
نوعية الغذاء فأصبحت وجبة واحدة من الجبن و الأخرى
عدس و سمح بتركيب لمبة لإضاءة القبو في المساء و ترك
لي مصحفا و كل هذا لأتعاون معهم و يحاول أن يتلطف

معي و قال لي أنه لا يريد تعاوني معهم كل ما يريد أن
أكون حياديا تجاه الصراع الدائر فهو أمر لا يخصني و بدأ
يسألني عن مهنتي و كيف اكتشفت شبكة التجسس فقلت
له أنها عن طريق المصادفة التي لا يمكن أن تخطر علي عقل
أحد فابتسم بتحفظ و قال لي أن أغلب اكتشافات العظيمة
حدثت مصادفة فاكشف الأمر كتين كان مصادفة جرت
الويل علي سكانها الأصليين ثم نظر إلى بطريقته العميقة و
فهمت مغزى كلامه و علمت أنني ميت لا محالة لكنني
باغته بالسؤال و قلت له : " لكنك أنت لا تبدو لي ضابط
مخابرات يبدو أنك لا تزال كاتسا^١ و هذا ليس عملك
الأصلي "

فعاد إلى القهقهة الوحشية و قام من مكانه ، و لا
أدري حتى الآن ما الذي دفعني إلى استفزازه بكلمة كاتسا
فقد شعرت بأنها ضايقته و صار لازما علي أن أبحث عن

^١ كاتسا مصطلح عبري يعني العميل الميداني في جهاز الموساد و هو أول درجات السلم
في الجهاز .

أي طريقة للهرب من هذا المكان لأنني يوميا أشم رائحة الموت و لابد أن هذه الكومة من الكراكيب تحوي شيئا قد يساعدني في الهرب و كل ما أحتاحه أي شيء أقرض به القضبان الحديدية لعلني اقدر علي الهرب لكنني لم أجد في هذه الكومة سوي كراتين فارغة و مواد كيميائية تقريبا كان هذا القبو لمصنع مواد النظافة فقد وجدت حامض كبريتيك " ماء نار " و المادة المستخدمة في نظافة المراحيض و كلور سائل بالإضافة إلى منظف أظافر " أسيتون " بخلاف بطارية سيارة و فانوس سيارة لقد كانت كل هذه المواد كافية لصنع قنبلة بدائية و تذكرت قراءاتي السابقة و الكتاب الشهير روعة الكيمياء الذي لم يترك شيئا من التجارب العلمية القيمة لكن يبقى أمامي مشكلتين الأولى عدم استقرار هذه التركيبة الخطيرة فأنا سأحتاج لصنع كمية كافية لتحث سرعة تفجيرية كبيرة لتحطيم أحد جدران القبو أو صنع فجوة فيه و في نفس الوقت تحدث ضجة

هائلة و المشكلة الأخرى هي في المفجر أو الشرارة الأولى التي تشعل فتيل هذه القنبلة كان علي شحذ عقلي فكل دقيقة تمر هي من عمري فلو لم أجد ما أأطلبهم به فلن يُبقوا على حياتي لساعة أخرى و ما أسهل تدبير حادثة لي تبدو مثل انتحار أو سرقة بالإكراه لكن لو طلبت كبريت أو حتى أشرت إلى هذا فسوف ينتبه إلى ما أفكر فيه و خصوصا أن هذا المثلث شخص في منتهى الذكاء و ظلمت طوال الليل أفكر في هذه المشكلة إلى أن لمحت شعاع الشمس عند الشروق يتسرب ليصطدم بفانوس السيارة المحطم فتلمع المرآة العاكسة التي بداخله . . . و كانت هي الشمس هي مصدر صنع الشرارة الأولى سوف أضع الفانوس بحيث يجمع أشعة الشمس ثم يعكسها علي قنبلتي البدائية و بعدها أترك أمري للتوفيق الإلهي فأنا في كل الأحوال ميت فلو نظر أحدهم أسفل قدمه لوجد الفانوس و اكتشف الخدعة و نهايتي هي الموت و قد تكون الحرارة

المتجمعة من ضوء الشمس كافية لصنع تفجير أكبر مما كنت أتوقعه فأموت و إن نجوت من كل هذا فقد لا تفلح التركيبة التي صنعتها بسبب طول فترة التخزين لهذه المواد و يكون الانفجار الناتج عنها مجرد فرقعة لا تتجاوز حجم الفرقعة الناتجة عن الألعاب النارية جميعها احتمالات و الحياة مليئة بالاحتمالات العديدة .

الفصل الثامن عشر

في اليوم التالي نشرت الصحف خبر وفاة المتهم الهارب مُراد كامل مُراد في حادث انفجار بأحد مصانع الكيماويات و قد أشفقت كثيرا علي أبي و أمي من سماع خبر كهذا لكن لحسن الحظ استطاع حسام أن يوفر لي غرفة علي سطح إحدى البنايات في المعادي بالقرب من بيت أبي لكنني طلبت منه هو و حميد عدم الاتصال بي لفترة حتى ما تهدأ الأمور فقد يتم مراقبتهما من عاصم أو ربما غيره لا أحد الآن خارج دائرة الشك .

أعلى إحدى البنايات في حي المعادي دق الباب و كان الطارق هو صديقي حسام شوقي فرحبت به ثم دق الباب مرة أخرى فأشهر حسام سلاحه بتحفظ فابتسمت و قلت له : " لا تقلق هذا حميد بالتأكيد "

جلسنا ثلاثتنا لتتشاور في الخطوة التالية التي ينبغي القيام بها و عرض حميد وجهة نظره بأن اقبل بعرض سارلا وأبتعد عن المواجهة لبعض الوقت لأننا أمام خطر يفوقنا و أترك الأمر للسلطات هي التي تتصدي له و أيد حسام اقتراحه حفاظا علي حياتي و كنت أجلس صامتا أتابع المناقشة الدائرة . . . ثم انتبه كلاهما إلى صمتي فالتفتا نحوي " إن ما أمر به في هذه التجربة يحتاج إلى حكمة صائد الثعالب و هذا ليس وقت التراجع بعدما تهاوت حياتي " ردا على كلامهم .

فبدأ حميد الدين بالتهكم من كلماتي لكن حسام نظر له بحسم ليستوعب معنى كلامي فقلت له : أن صائد الثعالب يتحلى بصبر شديد و لكنه لكي يصطاد طريدته فعليه أن يفكر مثلها ثم يلقي لها بطعم يدفعها خارج جحرها لذا إن أردنا اصطياد الثعلب فعلينا بالنزول إلى وجاره ، و الثعلب عادة لا يخرج من مخبئه إلا عندما يطمئن

لهدوء الأمور هذه هي طبيعة الثعالب عموما وهذا ما فكرت به علي مدى فترة حبسي ، و الميزة في الحبس الانفرادي أنه يوفر لك حالة من الهدوء و الكثير من الوقت للتفكير وقد توصلت إلى بعض الاستنتاجات :

أولها أن اختفائي سوف يسمع بعودة الحياة إلى طبيعتها و يتحرك العدو بحريته مرة أخرى مما يسمح لنا بالمزيد من الوقت لترتيب أفكارنا و يعطينا حرية الحركة ومن هنا فكرت في تدبير مسألة موتي أما الأمر الثاني فهو إن كانت ليل متورطة بأي شكل من الأشكال في مسألة اختطافي فلماذا لم يتم قتلي مثلما سبق و قاموا بتوريطي في جريمة قتل ملفقة و بهذا يتخلصوا من الشخص الوحيد الذي كشف تحركاتهم و شبكة بهذه النفوذ لن يستصعب الأمر عليهم و خصوصا أنني الآن أمام المجتمع و القانون القاتل الهارب مراد كامل مراد و لولا العناية الإلهية التي

تدخلت لإنقاذي لكنت الآن في السجن لولا الظهور
المفاجئ للأشقياء الذي قلب الموازين .

ثالثا و هو الأهم منذ متي يا حسام تشارك أجهزة
الأمن القومي في أنشطة الرقابة علي الحدود و تجنيد الأفراد
علما بأن هذا الأمر من اختصاص أجهزة الشرطة و حرس
الحدود ؟!

اعتدل حميد في جلسته و كأنه يحاول أن يستوعب
وكان علي وشك الكلام ثم سكت حتى يسمع لحسام
الذي تلمل في جلسته و همهم ثم قال : " أحيانا تتدخل
أجهزة الأمن القومي في بعض المسائل الحساسة و شديدة
الأهمية و يكون هذا في حالات نادرة لذلك فإن الأمر لم
يثر اهتمامي بالمرّة و خصوصا أننا جلسنا علي مائدة
اجتماعات واحدة جمعت أكثر من جهاز و جهة أمنية داخل
الدولة "

ثم قال لي بدهشة مفاجئة: " مراد . . . هل تقصد أن عاصم متورط بشكل أو بآخر في كل هذه الأحداث لكن كيف إنه في منصب . . . "

فقلت له: " أعلم منصب حساس لكنه بكل الأشكال هو موضع شكى بل إن كل الدلائل تشير إلى كونه العميل الثلاثي الذي سمعنا عنه في الاجتماع " فغر كلاهما فاه في محاولة لاستيعاب الأمر ثم قالاً لي في صوت واحد: " من الواضح أن مسألة اختطافك أثرت عليك وأصبحت تشك بالجميع " وأشاحا بوجههما .

فقلت لهما: " لا بالعكس بل بدأت أدرك حجم وخطورة الموقف الذي نواجهه وبدأت أفكر بطريقة أخرى من خارج الصندوق فمن هو أقرب شخص لهذه الأحداث سواه "

هنا تكلم حميد الدين : " مُراد إن ما تقوله هو
درب من الجنون لقد وصل عاصم هذا الموقع حساس في
أحد الأجهزة السيادية المهمة ولا يمكن بأي حال من
الأحوال أن يصل لهذا بدون المرور علي فحص دقيق
للغاية و ما الذي أكد لك أن ليل ليست متأمرة أم أن الحب
أعماك " ثم أردف قائلاً : " مسألة التهريب في منتهي
الخطورة و كان لابد من تدخل أكثر من جهاز سيادي
للحيلولة ، و لكن لو كانت هي مجرد ستار لماذا لم يتم
لفت الأنظار إليها من البداية ؟ "

تجنبنا الرد على ملاحظات حميد في مسألة الحب ،
ثم تدخل حسام ليكمل الكلام :

" مهلا يا حميد لكن كلام مُراد يبدو منطقيا من
الناحية النظرية فمسألة التهريب لم تكن سوي قبلة دخان
للإلهاء عن الحدث الأهم و الأكبر و هو التنقيب عن

اليورانيوم في الصحراء الغربية و هي مسألة في منتهى الدقة والحساسية وترتبط بها العديد من الأطراف المحلية و الدولية التي تساند هذه الشبكة بكل ثقلها و ل يبدو الأمر طبيعيا تم بسرية تامة وعند القبض علي المهربين فهذا سوف تتحسن صورة الأجهزة الأمنية بشكل عام و لن يفكر أحد مرة أخرى بما يجري في أرض الصحراء الغربية "

كان حميد يبدو مترددا في تقبل كل هذه الأفكار ثم قال : " من المستحيل أن تجري كل هذه التحركات في الصحراء الغربية بدون علم الأجهزة الأمنية و لو سلمت بصحة الفروض التي تفترضوها فهل من الممكن أن يكون السيد/ رأفت هو الآخر متورطا فقد كان معك وقت الاجتماع ، يا حسام أنت ضابط شرطة و تعرف كيف تجري الأمور "

فقال له حسام : " يا حميد يا صديقي كل شخص له نقطة ضعف و يجب أن نأخذ هذا بعين الاعتبار فمثل هذه الشبكة لن تقدر علي التغلغل في أوصال الدولة إلا بتغطية أمنية مناسبة سمحت لها أن تعمل تحت سمع و بصر الجميع و تفتح لها الأبواب المغلقة "

فقلت لحسام : " أضف إلى ما سبق أن عاصم هو العامل المشترك الوحيد في كل الأحداث التي جرت فقد كان دائما متواجدا بالحدث سواء خطف مُختار من إسطنبول عنتر أو اختطافي بعد الاجتماع و قبل كل هذا تواجهه في مديرية الأمن بانتظار الأشقياء ليقوم بتجنيدهم . . . "

أخذ حميد يحك في رأسه و يهمهم ثم قال : " إذن من المتسبب في اختطافك و ما هي مصلحته إن لم يكن يقصد قتلك بل عرض عليك الخروج بشكل آمن !!! "

فقلت لهما : " هذه حلقة غامضة لم أقدر الوصول إلى تفسير مناسب لها لكن لا يمكن المراهنة علي

مسألة تهريبي للخارج إلا لشيء في أنفسهم لكن الغريب في الأمر هو ما حدث بعد الانفجار بلحظات . . . " فردا في صوت واحد : " ما هو " .

وعاودت السرد مرة أخرى : اندفعت سيارات الشرطة تقتحم المكان الذي كنت محتجزا فيه و كأنها كانت تتحين اللحظة المناسبة و هناك كنت أختبئ بين جذوع شجرة كبيرة بجوار المبني الذي كنت محتجزا فيه و رأيت عاصم يقف بعيدا و يتجاذب أطراف الحديث مع أحد ضباط الشرطة و بعدما قامت الشرطة بإحضار الجميع أخذ يتفرس في كل الوجود الأحياء منهم و الأموات ثم أخذ أحدهم عرفته من نظرات عينيه إنه سجاني ثم ترك الباقيين في عهدة الشرطة و ذلك هو الوحيد الذي ركب معه سيارته . . . فكيف تفسر هذا يا حميد "

فقال لي حميد الدين بجدية شديدة : " من الطبيعي أن عاصم يقوم بدوره في البحث و التحري و قد تصادف

لحظة اقتحامه مع لحظة هروبك كأحد المصادفات العديدة التي حدثت لنا يا صديقي فأنا غير مقتنع بمسألة أن يكون عاصم عميلاً ثلاثياً فهو ليس بهذا الغباء ليضع نفسه في موضع شبهة و يمحو كل تاريخه و كل ما نفكر فيه هنا هو محض تكهنات وفرضيات ليس بالإمكان إثباتها "

و يبدو أن حسام بدأ يميل لرأى حميد الدين وقال :

" نعم يا مراد كل هذه مجرد أفكار و قد تكون الحقيقة شيء مختلف عما سبق فهل من الممكن أن يكون عاصم بهذا الغباء " .

فقلت له : " و ربما بمنتهى الثقة لأنه يعرف أنه فوق القانون لكنني أشك في هوية خاطفي بشكل أو بآخر "

فسأل حميد وقتها قائلاً : " الآن أخبرنا يا سيد ماكجيفر كيف هربت و دبرت مسألة موتك و دعنا الآن من مسألة التحليلات الإستراتيجية ؟ "

أخذ حسام أيضا يضحك من تشبيه حميد الدين لي
ببطل المسلسل الأمريكي الشهير الفتى ماكجيفر الذي كان
يستخدم ذكائه في حل القضايا العويصة و مساعدة
الشرطة .

فسألني حسام : " فعلا فكرة تجميع ضوء الشمس
لإشعال فتيل لقنبلة بدائية الصنع أعمال لم يقم بها إلا
ماكجيفر في مسلسله "

فقلت لهما : " الفكرة بدأت تتضح أكثر في رأسي
بعدها وجدت المواد التي تصلح لصنع قنبلة بدائية لكن
كانت المشكلة في التقدير الصحيح للكميات المناسبة لعمل
تفجير فهي مخاطرة تساوي الموت لكن إن كنت موضعي
فأنت ميت ، ميت لا محالة و فرص النجاة كلها تساوى
صفر و كان الحل الوحيد هو الهرب من المكان قبل
إعطائهم أي معلومات تفيدهم وفعلا بدأت في خلط
كميات بسيطة و صغيرة من مادة الفلاش الخاصة بتنظيف

المراحيض مع حامض الكبريتيك و مادة الاسيتون و مع أول إنذار بتصاعد أبخرة الحرارة كنت أتوقف عن الخلط و أتركها لتبرد ثم أعاود العمل مرة أخرى لأن هذه المواد برغم قدرتها على عمل انفجار قوي إلا أنها غير مستقرة و مع أقل هزة خفيفة من الممكن أن تنفجر و أحيانا من الممكن أن تتفاعل مع الهواء الجوي ثم خلال عدة أيام انتهيت من عمل كمية أظنها كانت تكفى لعمل التفجير المطلوب لكن بقيت أمامي مشكلة واحدة وهي المفجر الذي يصنع الشرارة الأولى و نظرا لأنه لا يوجد شيء كهذا فعمدت إلى استخدام طرق بدائية جدا مثل الفتيل الذي يتم إشعاله و قد قمت بصنعه من الليف الذي كنت أنام عليه و لجأت إلى تجميع أشعة الشمس من خلال الجزء الداخلي لفانوس السيارة الذي وجدته لأنه عبارة عن مرآة مقعرة لتجميع الضوء ثم عكسه مرة أخرى لإحراق طرف الحبل لكن للأسف أن الفتيل كان قصيرا و لا يسمح لي بوقت

كاف للهرب و كانت أكبر مخاوفي أن أكون في المدى المؤثر
للانفجار فتكسر ضلوعي أو يحترق جلدي نتيجة
الانبعاثات الحرارية الناتجة عن الانفجار بخلاف مخاطرة
الوقوف بجوار النافذة الصغيرة التي في القبو فلو لمحني أحد
الخاطفين و فهم ما أحاول فعله فلن يتسامحوا معي "

دوى الانفجار و على أثره فوجئت بصوت
صافرات سيارات الشرطة تملأ المكان و انطلقت أجري
هربا من النيران لا أعرف وجهتي كنت أشبه بفأر مذعور و
قابلت اثنان من الخاطفين أرادا احتجازي و نفعتني دروس
الايكيدو التي علمتني إياها حميد فقبلت قبضتي معدة
أحدهما فسقط أرضا و لم يقدر علي المقاومة أما الآخر
فظل يحاورني حتى تمكنت منه فكسرت رقبته ، و خطرت
في بالي وقتها فكرة اختراع مسألة موتي في الانفجار الذي
حدث فوضعت هويتي في جيب المتوفى و تركت الجثة

تلتهما النيران حتى يصعب تحديد الهوية ثم صعدت إلى
سطح المبني ، وجدت شجرة ضخمة تظل المكان فتعلقت
بأحد الأفرع و أخذت أراقب الموقف عن كثب و شاهدت
عاصم كما أخبرتكم .

فقال حسام بصرامة : " لا تقلق يا صديقي نحن
معك "

جلس على حافة اليخت المريح يمارس هوايته صيد
الأسماك في يوم عطلته لكن صليل الهاتف أزعجه و ضيع
المتعة بعدما جعل الأسماك التي بدأت تتجمع حول الطعم
تهرب فقام بعصبية شديدة للرد على الهاتف بأسلوب فيه
جفاء و جاءه صوت محدثه سعيدا متهللا بموت مراد فرد
عليه : " هل أنت متأكد فعلا من هذا فرد عليه محدثه : "
لقد أتيت حالا من المشرحة " لم يبد عليه أي انفعال بعد

سماع الخبر لا تعرف إن كان متفائلا أم متشائما أو لعله لم يكن مقتنعا بالمرّة .

عندما عاد إلى البيت كان صوت البيانو القديم يصدح في جنبات البيت و دموع ابنته الكبرى تنسال علي وجنتيها بعدما قرأت الخبر في الصحف اليومية و لم تنتبه إلى وجود أبيها الذي اقترب منها و أعطأها قبلة أبوية حانية فانزعجت من حضوره المفاجئ و قامت بعصبية شديدة لتصعد الطابق العلوي و أغلقت عليها غرفتها في ظل اندهش الأب من تصرفها لكنه لم يحاول أن يستفسر عن السبب بل ارجع الأمر إلى أنها حزينة لأن ذكرى وفاة أمها اقتربت لكنها في حقيقة الأمر كانت حزينة لخبر موت حبيبها و لم تكف عن الاتصال بحميد لكي يدبر لها مقابلة مع والده و والدته لتقديم واجب العزاء لكن حميد احتار كثيرا في صفة تقديمها و خصوصا أنه يعلم بأن أسرتي من الطراز المعترز بالعادات و التقاليد فاضطر أن يقول لهم أنها

ابنة صاحب شركتى و هذا ما خشيت منه كثيرا فقد
تكررت زياراتها لأبى و أمى و قد يتم رصدها و قد يسألها
أبيها عن سر معرفتها بي فسألني حسام على الفور : " و
ما المشكلة في هذا ؟ "

فابتسم حميد بنحبث رهيب فقمتم بقذفه بإحدى
الوسائد و ساد جو المرح جلستنا ثم قلت لهم بجد : "
أخشى أن تراني ليل مصادفة و يفتضح أمرى "
فرد حسام : " دعنا من أمر ليل فهي إن كانت
قامت بزيارة والديك مرتان فلن تسافر للمرة الثالثة . . .
لكن الآن الأهم ما هي الخطوة القادمة "

فقلت له : " لا تستعجل يا حسام سوف نستمر
في مراقبة الموقع الخاص بالشبكة و بالتأكيد أنهم هداً
توترهم بعد خبر وفاتي و سوف يرجعون لاستئناف
نشاطاتهم مرة أخرى كل المطلوب حالياً هو متابعة الموقع
لنعرف من الذي يستخدم كلمات السر و نعرف من الذي

يراسلهم و هل الجميع داخل البلاد أم خارجها و بعدها
نقرر الخطوة القادمة " و بعدما أنهيت كلماتي أطرقت
برأسي وأخذت أنظر إلى الأرض كانت كل عواطفي
تتضارب في هذه اللحظة الصعبة لكن صوت حسام
أخرجني من شتات أفكارى وهو يقول : " لكن هذا
سوف يستغرق وقتا ليس بالقليل علي الأقل سوف يحتاج
أصدقائي في مباحث الإنترنت أسبوعا علي الأقل للتحري
و التقصي "

فقلت له : " خذ وقتك الكافي في البحث لكن
هناك خدمة أخرى أحتاج إليها منك أن تقوم بمراقبة قصر
فؤاد الصواف مراقبة جيدة . . . حسام أنا أعتمد عليك في
هذا "

فرد علي حسام : " من الممكن أن أتابع كل
تحركاته "

فقلت له : " لا يا صديقي . . . ذلك الرجل مثل
الثعلب و بالتأكيد أنه لا يهدأ أبدا و سوف يشعر بأن هناك
من يراقبه فقط علينا أن نعرف مداخل و مخارج قصره
بمطروح فبالتأكيد أنه لديه خطة جاهزة للهرب في أي
وقت "

ثم قال حميد الدين بعفوية : " مُراد أَلن تقوم بإخبار
السيد / رأفت بكل ما حدث "

فقلت له : " حميد لن يكون من المناسب أن أثق
بأي شخص سواكما و الكل الآن ضمن دائرة الشك إلى أن
تتضح الأمور لكنني سوف أرسل له رسالة في الوقت
المناسب "

فنظر إلى الاثنين وقالوا لي في صوت واحد : "
نتمنى أن نعرف ما الذي تخطط له "

كان هناك ترتيب معين في ذهني هو اقتفاء أثر
عاصم الذي لن يخطر في باله أن شخص ميت يتابعه عن

قرب و غالبا أنه بدأ يرجع لطبيعته بعدما مر علي خبر وفاتي أسبوعان أو أكثر لكن للأسف تصرفاته لا تشوبها شائبة و قد كنت أوشكت على التراجع عن تحليلاتي و استنتاجاتي حول عاصم و كونه العميل الثلاثي الذي يعمل لحساب ثلاثة جهات في وقت واحد .

سيارة العمل تأتي له في تمام السادسة و النصف و ينتظره السائق ثم يتحرك في الساعة إلا ربع ليصل إلى مقر عمله بأحدي البنايات العسكرية شديدة الحراسة و غالبا ما ينصرف في نفس الموعد بشكل يومي و يقبع بالبيت مع زوجته و أطفاله و قليلا ما يتحرك وحيدا و أحيانا يأخذ معه زوجته و أولاده لقضاء وقت ممتع لقد كانت متابعته مخيبة كثيرا لآمالي فلا توجد أي أحداث مريبة تتعلق به و يبدو أنه كان ينفذ فقط عمله في الإطار المسموح له به كما اعتدت عليه من أيام الخدمة الوطنية فقط يبحث عن إرضاء رؤسائه و الحصول على ترقية و ظلت هذه هي

وجهة نظري فيه إلى أن أتنبي الأخبار من حسام الذي يقوم بعمل التحريات بأنه اكتشف أن هناك رسائل إلكترونية تم إرسالها من عدة أجهزة لأشخاص في أماكن حساسة فقد تم معرفة الشخص المسئول عن الإصدار الإلكتروني في الجريدتين المشهورتين و كذلك وجدت رسالة مرسلة من حاسوب عاصم إلى الموقع الذي تستخدمه الشبكة لكنها كلها كانت رسائل عادية أو تبدو عادية لكن بالتأكيد أن لها دلالة عند قارئها و يبدو أن مسألة الهدوء التي تبدو غالبية علي حياة عاصم لم تكن إلى مجرد واجهة تخفي ورائها الكثير و الكثير من الأمور التي لا نعلمها أما الجديد في الأمر هو أن معظم كلمات السر التي تم الاستيلاء عليها تعمل جميعها و معظمها يتم استخدامها من منزل فؤاد الصواف أو شركته عدا كلمة سر واحدة يتم استخدامها من الخارج أما الموقع نفسه فالمسئول عن شراء المساحة المخصصة له علي الإنترنت شركة بالخارج و ذلك لإبعاد

أي شبهة للتخابر عن فؤاد لكن الآن أصبحت كل المؤشرات و الدلائل تشير إلى أن هناك معرفة و علاقة ما تجمع عاصم و فؤاد مع ذلك فهذا لا يمنع عدم اتصالي بالسيد / رأفت حتى تتضح الرؤية فما أكثر المفاجآت التي تتضح لي كلما توغلت هذه في القضية .

كان الحل الوحيد أمامي هو خلق الارتباك بين عاصم و فؤاد الصواف و إذا تولد الشك فلن تعود الثقة مرة أخرى و كل ما كنت احتاجه هو اللحظة المناسبة لكي أضرب ضربتي و كانت الفكرة اختمرت في ذهني و قررت أن أرسل إلى فؤاد الصواف جزء من المعلومات الموجودة علي أحد كروت الذاكرة التي كان يحتفظ بها عوض و تم الإرسال بعلم الوصول وكان المرسل هو عوض و بمجرد أن دخل ساعي البريد ليسأل عن السيد المهندس / فؤاد الصواف تم منعه من الدخول و طلبوا منه أن يترك الطرد

للسكرتارية و هي سوف تقوم بالتوقيع نيابة عنه و تسليم
الطرد له .

كنت أتمنى في هذه اللحظة أن أرى ملامح وجهه و
هو يقرأ الخطاب و يشاهد كم المعلومات التي تدينه و تدين
معه الكثيرين بما فيها من رشاوي عبر تحويلات بنكية و
تواريخ الإيداع . . . إلخ

بدأ الشك يثور في نفسه و يُفكر في أن عاصم انقلب
عليه و يلعب لحسابه هذه المرة فمن الذي يمكنه الحصول
علي معلومات كهذه و من أين حصل عليها إلا من خلال
ما كان يمتلكه عوض ثم قال لنفسه : " ذلك اللعين عوض
استطاع أن يؤمن نفسه جيدا "

كان علي الانتظار لأرى ردة فعل فؤاد و كيف
سيتصرف و لابد أنه بالتأكيد مصاب بالتوتر و يخشى أن
يعرف أحد بخبر هذا التسرب الذي حدث و إلا سيكون
مصيره القتل كما تم قتل عوض و بدأت أول سقطاته فقد

حضرت سيارة نقل بضائع لها صندوق أشبه بثلاجة
للمجمدات و تأكد صدق حدسي عندما أخبرني حسام
بهذا فعلمت أنه أتى ببعض كميات من اليورانيوم تمهيدا
لنقلها و غالبا ما سيتم نقله عبر الطرود الدبلوماسية التي لا
يمكن التفتيش عليها .

بدأت الطائرة تتهاذى على أرض المطار و يستعد
الركاب للنزول و كان من بينهم رجلنا المطلوب مسيو/
روجيه و هو الاسم الحركي له لأنه شخصية دبلوماسية
أوروبية اغلب الظن أنه بلجيكي الجنسية و هو الذي
سيقوم بنقل كميات اليورانيوم . . . و قد وصل لعلمي
موعد وصول طائرته من خلال الموقع و المراسلات التي
تم .

لم أنتظر كثيرا و قمت بالاتصال بعاصم الذي
فوجئ باتصالي و طلبت مقابلته لكنه عندما ذهب ليراني لم
يجدني و تركت له رسالة في المكان الذي كانت ستتم فيه

المقابلة و لما فتحها وجد بضع كلمات تطمئنه علي حالي و كلمة سر طلبت منه أن يستخدمها و شرحت له كيف توصلت إلى سر الومضات الخفية و أنني استطعت فتح الموقع عبر كلمة السر المكتوبة بعدما استخدمت أساليب الهاكرز و قد علمت أن هناك شخص مهم سيحضر إلى القاهرة و أعطيته موعد وصول الطائرة بحوالي ساعة تقريبا ثم بعدها سوف يسافر هذا المبعوث لمحافظة مطروح و في هذه اللحظة تأكدت أن خطتي سوف تنجح بعدما شاهدت تعبيرات وجه عاصم عندما قرأ رسالتي و لابد أنه شعر بأن فؤاد ينوي على الغدر و بدأ يلعب لحسابه دون أن يعطيه حصته أو ما وعده به ، وقتها شعر عاصم بالخطر الذي يحيط به فلا بد له أن يتخلص مني للأبد و لابد من التخلص من أي أثر لعملية الومضات الخفية لكن قبل كل ذلك فلن ينسي نصيبه و إلا ما استحق الأمر كل هذا العناء .

شعرت بأنه يكاد يذوب عرقاً عندما سمع صوتي في الهاتف و أنا أقول له : " أنا أعرف أنك قتلت عوض و عندي الدليل "

حاول أن يخفي الهزة التي أصابته فرد بتعال شديد وثقة : " آسف من المتحدث "

فقلت له : " عوض . . . ثم ضحكت بخشونة " فتحشرج صوته و ارتبك ثم قال لي : " يبدو أنك اتصلت برقم خطأ "

فقلت له : " انتظر . . . أنا من أرسل إليك القرص المدمج و أنا الآن أطلب عشرة ملايين دولار و تهريبي للخارج و لا مجال لأي ألاعيب أنا أعلم أنني لن يكن في استطاعتي مواجعتك لذلك علي الأقل لا أخرج خال الوفاض "

حاول أن يماطلني و يبدو أنه خاف من تسجيل المكالمة و لما أخبرته بأنني لم أقوم بتسجيل مكالمته لكنني

سوف أرسل له تحيات المسيو / روجيه أغلق الخط في وجهي .

الفصل التاسع عشر

لم يكن من الممكن إقناع فؤاد الصواف بالأمر الهين لأنه قابل كلامي في البداية بشيء من التشكك في البداية لأنه لم يتخيل أن بإمكانني اختطاف شخصية دبلوماسية بهذه السهولة لكن عندما ذكرته بالمصير الذي ينتظرني وعن حضور المسيو / روجيه بصفة غير رسمية و أخبرته بموعد وصول الطائرة ورقم الرحلة و صالة الوصول لم يجد بدا من الرضوخ أمام المعلومات التي سمعها و بدأ المفاوضة معي .

اعتمدت في خطتي الصغير علي إحداث الفتنة بين جميع الأطراف ليتم القبض علي عاصم و فؤاد متلبسين و اليورانيوم بحوزتهم و لهذا الغرض قمت باستئجار سيارة ومعها سائق لتقف أمام الفندق الذي من المفترض أن ينزل فيه المسيو / روجيه الذي كان في حقيقة الأمر يغط في نوم

عميق بعدما تناول مُخدر شديد المفعول قمنا بدسه له في المشروب بمساعدة حُسام و لحسن الحظ أنه قادم في زيارة غير رسمية لذلك لم يتم إخطار السلطات ولا سفارة دولته و نزل بأحد الفنادق و هذا ما سهل كثيرا المهمة علينا و كان علي أن اصنع الطعم الذي يجعل عاصم يتبعنا إلى مطروح فتكرت في ملابس رسمية و قبعة نظارة شمسية سوداء و عصا و كان بانتظاري السيارة الفخمة التي أوصلتني لأحد الفنادق ثم تركتها هناك و من هناك ركبت سيارة حميد الدين الأثرية لكي تلفت نظر عاصم إلينا أكثر و جلس في الأمام سائقي الذي في حقيقة الأمر هو حميد الدين و أنا علي علم أن عاصم يتابع و يترقب .

سارت الخطة بشكل مثالي للغاية الآن فؤاد يسعى للتخلص من أي شيء قد يدينه و بعدها يتفرغ لقتلي لكن قبلها عليه تسليم شحنة اليورانيوم و في نفس الوقت عاصم الآن يقتفي أثر المسيو / روجيه الذي هو في حقيقة الأمر أنا

لكن ما أغفلته خطتي الصغيرة هو أنني نسيت أنني من الممكن أن أقابل مُختار الذي يعرفني جيدا و لم أدرك هذا إلا لحظة عبور سيارتنا البوابة الرئيسية للاستراحة . . .

فقد كانت كل المقابلات المهمة تتم في الاستراحة و هي في حقيقتها فيلا صغيرة لها سور و حديقة منفصلة عن القصر الذي يقيم فيه فؤاد الصواف لكن السور الفاصل بين القصر و الاستراحة له بوابة وكانت الإشارة المتفق عليها بيننا و بين حسام المرابط بالخارج هي صوت إنذار سيارة حميد الدين الذي إذا انطلق معناه أننا في خطر شديد لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن عبارة لم يكذب أبدا قائلها فقد وقعنا في أخطر غلطة بسبب التسرع و الفرحه بالنتائج السريعة التي توصلنا لها و نسينا تفصيلا صغيرة و هي السيارة !

سيارة حميد الدين و تعتبر تحفة أثرية أي أن عدد مالكيها معدودين و بمجرد أن لمحت ليل السيارة و سمعت

صوت آلة التنبيه الخاصة بها إلا و خرجت للشرفة لتري
سيارتنا تدخل إلى حديقة الاستراحة و علمت بقدومي .

ترجلت من السيارة و استندت علي العصا

بأرستقراطية و اصطنعت عرجة خفيفة في مشيتي لا أعلم

لماذا و بثقة شديدة دخلت للقاء ، و استقبلني السيد فؤاد

بجفاوة شديدة و رحب بي لكن في هذه اللحظة دخل علينا

مُختار و بمجرد أن رأني عرفني و اتجه نحوي و علي حين

غرة نزع الشارب المستعار و أزال التنكر و قال لي : "

يبدو أنك سقطت في الفخ يا . . . مسيوروجيه " و أخذ

يضحك بشماتة شديدة ، فنظرت إليه بحقد شديد فلم يكن

في حساباني بالمرة دخول مُختار و الأغرب هو حضور

عاصم من الشرفة الأمامية شاهرا سلاحه الذي صدمته

المفاجأة فقال : " مراد !!! "

فسأله فؤاد بدهشة : " مراد . . . أتعرفه يا عاصم ،

حسنا يا مُختار يبدو أن الحفلة بدأت "

في هذه اللحظة أطلقت إنذار السيارة فاشتعلت معركة حامية بين قوات الشرطة التي اقتحمت حديقة الاستراحة و الحراسة الذين لم تطل مقاومتهم و اقتحموا الفيلا و اختفى عاصم في غموض فأخذني فؤاد رهينة لكنه لم يهتز لمحاصرة الشرطة بل ابتسم لنا ببساطة وكأنه كان يعد العدة للأمر من قبل فضغط علي تحكم عن بعد فسمع دوي انفجار رهيب رج المكان و دخان كثيف ونزلت حواجز معدنية ، كان البيت تم تصميمه بأسلوب المنازل الذكية مثل التي بالخارج ، ثم وجدته يقتادني في سرداب نهايته عند الشاطئ و قال لي بحقد شديد : " لو الأمور كانت تسير بشكل عادي لكنت سحقتك و لكن للأسف أنت تذكرتي للنجاة من هنا "

كان اليخت الفخم هو وسيلته الأخيرة للهرب إن فشلت كل الوسائل و لن يخطر في ذهن أحد أن هناك أحد السفن الدولية تنتظره خارج المياه الإقليمية يمكنه أن يركبها

و يهرب إلى أي مكان في حال تم اكتشافه لكن كلانا فوجئ
بليل تحمل بندقية الصيد وتهدد أبيها .

وقفنا بدهشة حتى أنا نفسي اندهشت لم يكن
يخطر في بالي أنها قد تتغلب علي عاطفتها لأبيها لكنها
أخذت تستعطفه و تبكى بحرارة و تقول له : " أبي أرجوك
اهرب لكن دعه لا داع للقتل ، من فضلك أبي ، يكفي
العار و الفضيحة " .

بكت ليل بحرقة شديدة و شعرت بمدي الحرقة التي
في قلبها و هي في موقف لا تحسد عليه ما بين عاطفتها و
واجبها نحو أبيها و حبها و عاطفتها نحو وطنها و حبيبها ،
كانت مأساة أن تضطر للاختيار بين أمرين كلاهما في
منتهى المرارة و الصعوبة .

لكن كلمات ليل لم تشني فؤاد عن عزمه بالعكس
زادته غيظا و عنادا و شدد الحناق علي رقبتني و أمرها بعدم
التدخل في مثل هذه المسألة ثم أخذ يتكلم بعصية و قال

لها : " إذا هذا هو سر حزنك و كآبتك الفترة الماضية هذا
الكلب سأقتله أمام عينيك " .

أطلق فؤاد رصاصة على قدمي أوقعني أرضا و
ليل أخذت تتوسل إليه و هو يرفض أن يستمع لصوت
العقل و هي أخذت تهدده ببندقية الصيد التي تقف بها
قبالته لكنه لم يتراجع و بدأ يستعد للتصويب علي و أنا
مدد على الأرض لا حول لي ولا قوة ، أخذت يدها
ترتعش و أبيها يسخر من حبها لي ثم دوي طلق نار
ظننت أنه من سلاح فؤاد لكنني فوجئت به يتمايل و
سيهوي أرضا فطاشت من سلاحه رصاصة لتستقر ما بين
كتفي و صدري و أخذت ليل تصرخ و تولول و تنادي
علي الإسعاف هذا آخر ما أذكره لأنني غبت عن الوعي
من شدة الألم والنزيف .

أفقت في المستشفى لأجد نفسي محاطا بالأجهزة
التي تقيس النبض و ضغط الدم و معلق لي محاليل و حولي

كل الأهل و الأصدقاء . . . أبي و أمي و حميد الدين و
حسام و السيد / رأفت الذي حزنت كثيرا بيني و بين نفسي
لأنني تشككت فيه ، ثم دخل فرقة الأشقياء و الدكتور /
عاطف لتحيتي و الاطمئنان علي و خرجوا سريعا و
أخذت أتفقد كل الوجوه لكنني لم أراها ثم سألت السيد /
رأفت عن مصير عاصم فقال لي : " لا تشغل نفسك
كثيرا بهذا الأمر المهم أنك عدت لنا بالسلامة و أحمد ربك
لأن هذه الفتاة الطيبة أعطتك من دمها فقد كانت فصيلتها
نفس فصيلة دمك "

فقلت له : " ليل . . . "

فقال لي : " هي تلك . . . إلىس كذلك يا حميد "

فقال لي حميد : " نعم هي التي أصرت علي أن
تركب معك سيارة الإسعاف و لما احتجت لنقل دماء

كانت هي أول المتطوعين و لحسن الحظ أن فصيلة دمها
كانت مشابه لفصيلة دمك "

فقلت لهم بلوعة: " لكن أين هي ؟ و لماذا لم
تأتي "

فقال لي حميد : " هون عليك يا صديقي هي لم
تتركك إلى أن اطمأنت علي استقرار حالتك وبدأت
تتجاوب معنا لكن لم يكن بالهين عليها موت أبيها و
الفضيحة التي ثارت حولهم "

فقلت له بانفعال شديد: " حميد . . . المسألة كانت
محض حادث هي لم تكن تقصد هذا "

قطع علينا كلامنا دخول بعض القيادات في جهاز
المخابرات و الشرطة لتهنئتي و شكري علي الجهد المبذول
و بعض عبارات الإطراء المتبادلة بينا ثم دخل الطبيب و
طلب من الجميع الخروج لراحة المريض .

أخذت أثقلب يمينا و شمالا و أنا حزين ثم غلبني
النعاس و شعرت بأن باب الغرفة يفتح لكنني لم أقدر علي
أن أفتح جفوني و ظننت أنها إحدى الممرضات سوف
تقوم بمراجعة حالتي الصحية و ستخرج فلم أعرها
اهتماما .

جلست بجواري ثم وضعت كفها علي كفي و
شعرت بحرارته كنت ما بين النوم و اليقظة ثم شعرت
بنقطة ماء حارة سقطت علي يدي لكن لم اقدر علي فتح
عيني و ربما ظننت أنني أحلم بأن ليل تجلس معي و تبكي و
لما أفقت وجدت خطاب موضوع بجواري ففتحته علي
الفور و قرأت و شعرت كأنني أسمع صوتها و أحس
بطيفها في المكان وهي تقول لي :

" مراد أتذكر كلماتي لك عن الحب المستحيل بين
الشمس والقمر ذلك هو مصير حبنا فلن نلتقي أبدا مهما
كان حجم المشاعر التي تجمعنا و إن التقينا فإن اللقاء لن

يدوم طويلا فحرارة الشمس كافية أن تذيب القمر و أنت
لن تقبل أسرتك بأن تقترن بابنة الجاسوس ولا أن تتزوج
من قاتلة أبيها و كذلك أنا مهما بلغ حبي لك فإن موت
أبي سيظل حائلا بيننا .

مراد . . . أرجوك حاول نسياني فأنا لم يعد لي
مكان هنا لا في حياتك ولا بالوطن نصيحتي لك اختر
لنفسك فتاة طيبة تحبك و املاً حياتك بالبنات و البنين كما
كنت تتمني دوما .

قرأت كلماتها لي و غبت عن الوعي و أخذت
الأجهزة المعلقة بجسدي تطن و جاء فريق من الأطباء
لإعطائي صدمات بالكهرباء و كنت في هذه اللحظة فقدت
أي رغبة تُعلقني بالحياة فلم يعد لها طعم من بعدها لم
يكن الفراق ليخطر ببالي و لم أكن أعلم أن فؤاد الصواف
سيظل واقفا بيننا العمر كله ، كنت أسمع صوت حميد

الدين يناديني و أنا أتلقى صدمات الكهرباء و الأطباء
يحاولون إبعاده .

تمر الأيام سريعا و أغادر المستشفى و أعود للبيت و
تحتاج قدمي للمزيد من الراحة بسبب الرصاصة التي
أصبت بها لكن هذا لا يثنني عزمي في البحث عن ليل لكن
سرعان ما تنتهي رحلتي في البحث سريعا بعدما أخطرتني
حسام بأنها غادرت البلاد مع إخوتها و حاول السيد/
رأفت مساعدتي في الوصول إليها عن طريق جهود
سفارتنا بالخارج لكن لأنها تحمل جنسية أخرى فقد
انقطعت كل صلة تربطها بالوطن .

حاولت مرارا و تكرار الاتصال بها لكن بعد فترة
أغلقت الرقم الذي أتصل عليه و حاولت التحدث إلى
سارلا لكنها ادعت أنها لا تعرف عنها شيئا و أرسلت لها
مئات الرسائل علي بريدها الإلكتروني لكنها لم ترد علي
أي واحدة منها و غابت ليل و غاب معها طعم كل شيء

جميل في حياتي و شعر بذلك كل المقرين بأني فقدت
روحي اخرج من عملي لأعود إلى المنزل فأجلس مكاني لا
أتكلم إلا حين يحدثني أبي أو أُمي ثم انقطع في غرفتي
أخرج مع حميد أو حسام أو تجتمع صحتنا فلا يحصون لي
أكثر من بضع كلمات ثم أركن للسكون . . . و حاول
الجميع مساعدتي للخروج من هذه الحالة من اليأس لكن
جهودهم باءت بالفشل إلا أُمي التي أصرت علي اختيار
فتاة لتكون شريكة لي فازداد الأمر سوءاً و تفجر الموقف
لأن أبي تدخل و احتد علي و وصلت المناقشات إلى طريق
مسدود رفض فيه أبي حتى محاولة الإصغاء لي فهو يراها
مثل بقية أفراد المجتمع ابنة الجاسوس حتى لو كانت شريفة
و تعشق تراب و وطنها و أغفل الجميع دورها في مساعدتي و
للأسف أن حتى حميد انضم إلى صف أسرتي فجاء قراري
للجميع صادماً بأني لن أتزوج سواها و لن أعود إلا بها .

تتهادي الطائرة علي الممر ويهتئنا الطيار بسلامة
الوصول و لا أجد في نفسي صبرا فأسرع بفك أحزمة
الأمان لكي أنزل من الطائرة و كلي شوق للذهاب إلى
سارلا فرما حين تري حالي تشفق علي أمري و كان معي
حميد الذي لا يقدر علي ملاحقتي ولا مجاراتي و كان ينظر
لي بإشفاق و محبة و كأنه لأول مرة يراني بهذه الحالة
الجنونية أسبق الزمن لأصل إلى وجهتي .

تغير وجه سارلا حين رأتني أقف أمامها كانت المرة
الأولي التي نتقابل فيها وجهها لوجه فقد كان سابق حديثا
معا تليفونيا أو عبر الإنترنت أو من خلال كلام ليل عني ،
لكن مقابلتها لي كانت باردة و هاجمت بشدة بلادنا و
أفكارنا و معتقداتنا و دافعت عن صديقتها بشدة و كانت
تكلمني بحدة كأنني أنا الملام عن أخطاء غيري لكنني كنت
أشفق عليها لأنها تحب صديقتها كثيرا و تخلص لها و
حاولت أن أوضح لها أنني أقف معها في نفس الجانب

لكنها رفضت أن تسمع و أخبرتني في النهاية أنها لا تعرف شيئاً عن ليل حتى أنها لا تسكن مع أهل والدتها بل اختارت السكني في مدينة أخرى تبعد عنهم و من وقتها انقطعت أخبارها ثم ودعتني بوعود طيبة بإخطاري بأي شيء يجد .

عدت إلى الوطن أحمل خفي حنين و الخيبة تملأ نفسي و تساؤل كبير يهز كياني و لا أجد إجابته فتوجهت إلى السيد / رأفت أبته أحزاني : " أريد أن أسألك عن شيء "

فقال لي تفضل : " فقلت له كيف أن تهرب ليل من الوطن خشية الفضيحة و هي التي ساعدتنا و تكتفي السلطات بنقل عاصم من مكانه إلى وظيفة إدارية برغم تورطه الواضح في عملية الومضات الخفية "

سكت السيد رأفت هنيهة ثم ربت علي كتفي و
قال لي : " مراد يا ابني هناك أسرار و هناك ما هو أكبر من
الأسرار "

أعادت كلماته إلى ذاكرتي الكثير من الأحداث و
كلمة أحد خاطفي عندما قالها لي ولم أفهمها منه و ها هو
السيد رأفت يعيدها علي لكن ما الذي يعرفه عاصم و
يخفيه أو كيف تكون هناك أسرار و ما هو أكبر منها . . .
لكن يبدو أن الزمن كفيل بتعليم الإنسان و تمر الأيام تلو
الأيام و يكتمل العام علي غياب ليل لم تنقطع خلاله
زياراتي لمطروح ما بين رحلة ليوم واحد أو إقامة لعدة أيام
حتى فهمت كلمات السيد / رأفت عندما قرأت النعي
الكبير الذي احتل عدة صفحات بالصحف اليومية عن
وفاة عاصم المنفلوطي بعدما اختنق بالغاز في شقته و الكل
يشيد بدوره الوطني و البطولي في خدمة الوطن فزاد ألمي
أكثر علي فقد ليل و مر شريط الذكريات أمام عيني كأن

كل ما جري لي فيه كان بالأمس والآن صاحبة الفضل التي
أنقذت حياتي تحيا بالمنفى الاختياري أو ربما هي أُجبرت
عليه بسبب نظرة المجتمع القاصرة .

نزلت دموعي في صمت و كبرياء ألما وقهرا و أنا
أقف أمام البحر و رن الهاتف برقم دولي غير مسجل
عندي فضغطت علي زر الرد بلهفة شديدة و سرعان ما
أصابتنى الخيبة لم تكن إلا سارلا التي لم تنقطع بيننا الصلة
منذ آخر لقاء فهي بعد مقابلتها الباردة لي في مكتبها ،
ذهبت إلى بالفندق الذي كنت أنزل به و اعتذرت لي
بشكل لائق و شرح لي أن ليل هي أعز صديقاتها و هي
أيضا تأسف علي حالها و تواعدنا علي التواصل من حين
لآخر لو وفقت إلى شيء يوصلني إلى ليل و كنت من حين
لآخر أتصل عليها اطمئن علي أحوالها فهي الشيء الوحيد
الباقى من ليل لكنها كانت هذه المرة تبكى بحرقة و لم تقل
لي سوى " أنقذ حببتك "

كنت أسابق الزمن فلم اهتم بأن احضر معي حتى حقيبة صغيرة احمل بها بعض الملابس كان كل همي أن أصل إلى ليل التي ترقد في المستشفى بعد حادث سيارة تعرضت له أدت الصدمة لدخولها في حالة من الغيبوبة و هي ترفض أن تعيش و الأطباء يحاولون فعل المستحيل معها لكنها في غيبوبتها نطقت باسمي و عندما علم الجميع بمكالمة سارلا تحرك الجميع من أجل تسهيل حصولي علي تأشيرة السفر ثم بعدها ذهبت إلى أبي استأذنه في اللحاق بليل و استرضيته فاحتضنني بحب شديد و قال لي : " لقد علمتك و ربيتك و أثق في صحة قراراتك ، مراد لا ترجع بدون ليل نحن جميعا ظلمناها بسبب خوفنا من نظرة المجتمع "

أما سارلا فلم يكن هناك مجال للعتاب أو النقاش رغم أنها أخفت عني الحقيقة لكنها تعذرت بأنها لم تكن تقدر علي كسر وعدّها لصديقتها بعدم إخباري بمكانها و

في آخر مرة عندما رأت أن الحزن يأكل قلب صديقتها فتشاجرت معها و قالت لها : " تبا لكبريائك و غبائك . . . أنت هنا تموتين ببطء في كل لحظة بعيدا عنه ومن دونه و هو كذلك ، إنه يجبك تبا لكما و لمجتمعكم القاصر النظر " خرجت ليل علي أثر هذه المناقشة غاضبة و لم تتبه للسيارة التي كانت تعبر الطريق فصدمتها و هربت .

أخذت أتمتم باسمها و أهزها و أنا أتكلم بعصبية : " ارجعي لي أيتها العنيدة " لكنها لم ترد علي انسكب دمعي في صمت رغما عني فبلل يديها ولأول مرة يسقط أمام الغرباء فلم أنزعج أو أخجل من دموعي ثم علا صوت نشيجي و انتبه الطبيب واضطرت سارلا والمرضات أن يسحبوني بعيدا عنها و كنت أقاوم و أرفض الخروج ثم شيئا فشيء بدأت تفتح عيونها ببطء و تستوعب ما يدور حولها و بدأ النبض يرتفع و أصدرت الأجهزة المعلقة بجسدها الرقيق صوتا فانتبهت الممرضة إلى

تحسن النبض و ضربات القلب و لما رأني حاولت نزع
الكمامة لتحدث إلى لكنني منعتها من الكلام و نزلت
دموعنا في صمت فهمست و قرأت حركة الشفاه و هي
تقول لي : " أحبك "

لم أقدر وقتها على كبت فرحتي الطفولية التي
كانت بلا حدود فسجدت شكرا لله ثم اختلطت المشاعر
فكنت أضحك و أبكي بنفس الوقت لكن هذا لم يشفع لي
عند الطبيب الذي بدا علي وجهه الصرامة الأوربية وهدد
وقتها بطردي من الغرفة و سارلا لم تتمالك نفسها و
أخذت تضحك و هي تشرح للطبيب سر سعادتي فابتسم
الطبيب بهدوء و تحفظ ثم أوصى بالراحة التامة و حذر من
أي انفعالات فقد تضطر بصحتها و شدد علي و كنت
أتمني أن أجري في طرقات المستشفى لأعلن حبي للعالم
أجمع .

اتصلت بأبي في القاهرة و السيد رأفت أخطرهم
بأنها قامت بالسلامة و أنني سوف أعود بها حالما تتحسن
صحتها و لحسن الحظ أنني لم أحتاج إلى إجراءات لمد
إقامتي في الخارج .

عدنا إلى أرض الوطن في يوم الثلاثاء أنا و ليل
وأخوتها و سارلا التي أصرت ألا تترك صديقتها وحدها
في تجهيزات الزفاف و لم نكن نعلم أن في المطار بانتظارنا
مفاجأة رائعة جهزها لي أبي ، رأيت الجميع في انتظارنا
أبي و حميد و حسام و الكثير من أفراد عائلي و الأهل و
المعارف يحملون أعلام الوطن يلوحون بها في فرحة شديدة
و هم يرفعون لافتة كبيرة كتب عليها بخط واضح "
مرحبا بعودة الغالية إلى الوطن " انتبه جميع من بالمطار لهذه
اللافتة و لما عرفوا السبب فرحوا لفرحتنا و كانت فرحة
غالية و سعادة ملأت القلوب بعدما التأم الشمل من جديد
و عادت ليل إلى وطنها مرفوعة الرأس .

obeikandi.com